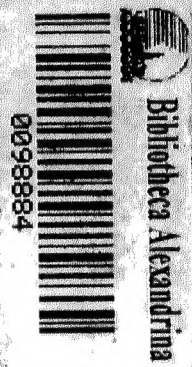


الدولة الأيوبية تاريخ مصر الإسلامية



دور عبد المنعم ماجد



الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية

التاريخ السياسى

(٥٦٧-٦٤٨ هـ / ١١٧١-١٢٥٠ م)

بقلم

د. / عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية

فى جامعة عين شمس

١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤ - ٢٧٥٢٧٩٤

٩٥٣،٠٧٣٩٣ عبد المنعم ماجد.

الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية: التاريخ

السياسي (٥٦٧ - ٦٤٨هـ / ١١٧١ - ١٣٥٠م) / بقلم عبد

المنعم ماجد. - ط٢ - القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٩٧.

١٩٢ ص؛ ٢٤ سم .

بيلوجرافية: ص ١٦٩ - ١٨٣ .

يشتمل على ثبت بالأعلام وآخر بالاماكن

تدمك : ٢ - ١٠٠٤ - ١٠ - ٩٧٧ .

١ - مصر - تاريخ - العصر الأيوبي . ٢ - الدولة

الأيوبية . أ - العنوان .

أصبح الملك بعد آل عليّ
مشرقاً بالملوك من آل شادي

محتويات الكتاب

المقدمة:

- أ - التمهيد. ----- ٧
ب - المصادر التاريخية. ----- ٩
ج - أسماء ملوك الأيوبيين في مصر. ----- ٢١

الفصل الأول:

- أحوال الخلافة العباسية، وظهور السلاجقة. ----- ٢٣

الفصل الثاني:

- اغتناب الأرض العربية على يد الفرنجة. ----- ٣٣

الفصل الثالث:

- الصمود، ورد الفعل الفرنجي. ----- ٥٥

الفصل الرابع:

- ظهور صلاح الدين، وتأسيس الدولة الأيوبية. --- ٧٥

الفصل الخامس:

- انتصار صلاح الدين في حطين، ودور العساكر
المصرية البارز في استرداد بيت المقدس. ----- ٩٣

الفصل السادس:

- رد الفعل الفرنجي، والهدنة مع الصليبيين. ----- ١١١

الفصل السابع:

- الأيوبيون، والحركة الصليبية بعد موت صلاح الدين. - ١١٩

الفصل الثامن:

- سقوط الدولة الأيوبية في مصر في يد المماليك. --- ١٣٧

الخاتمة:

١٦٧

الكشاف:

١٦٩

- ١ - جدول المصادر والمراجع. ----- ١٦٩

- ٢ - جدول الأعلام والأماكن. ----- ١٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أ - التمهيد

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسى لدولة الأيوبيين، التى أسسها صلاح الدين بن أيوب فى مصر، وهم الذين حكموها أكثر من ثمانين سنة من وقت سقوط الخلافة الفاطمية على أيديهم، إلى وقت قيام دولة سلاطين المماليك، فى الفترة من ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، إلى ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، حيث غلب على ملوكها التلقب فى أوراقهم الرسمية بلقب الملوك، على عكس الفاطميين قبلهم الذين تلقبوا بالخلفاء، والمماليك بعدهم الذين غلب عليهم التلقب بالسلطين، مما يهين لهذه الدولة دراسة متخصصة فى تاريخ مصر الإسلامية.

ولكن لا نستطيع أن نربط تاريخ الأيوبيين بمصر وحدها، مثلما يربط بها تاريخ الفاطميين، الذين اتخذوا مصر قاعدة لحكمهم، واشتمل على أقطار متعددة فى المغرب والمشرق؛ لأن الأيوبيين بعد صلاح الدين تفككت وحدتهم، وتكونت لهم دول متعددة، وأصبحت لهم رهوس كثيرة؛ ولأن الدولة الأيوبية لم تظهر نتيجة لظروف مصر وحدها، وإنما خلقتها ظروف المسلمين بعامة بضعفهم وتفرقهم، مما أتاح الفرصة لأعدائهم من دول أوربا، أو ما عرفوا بالفرنجية، إلى اقتطاع أجزاء من بلادهم، بعد أن أنشبو فيها أظافرهم.

ومع ذلك، فإن سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر وظهور دولة الأيوبيين، ماكان يعود بمصر إلى الوراء؛ لتكون مجرد ولاية فى ملك الخلافة العباسية التى بقيت فى الشرق وحدها بعد روال خلافة الفاطميين، حيث كانت مصر فى عهدها دولة عظمى بكل المقاييس حربياً واقتصادياً وحضارياً. وعلى العكس، فإن مصر فى وقت حكم دولة الأيوبيين قد زاد دورها عن ذى قبل فى العالم الإسلامى فى ظل وحدة الحكم الخلافى العباسى، وأصبح لاهلها الفاعلية الأساسية فى وحدة

العرب ومصير الإسلام، وكان موقعها المحورى المتميز من شأنه أن يجعلها تقوم أكثر بهذا الدور الوحدوى للعرب والمسلمين، فهى تقع تمامًا فى وسطهم "Juste au Milieu".

وحتى نظم مصر السياسية فى زمن الدولة الأيوبية تطورت هى الأخرى تطوراً كبيراً عنها فى الفترة السابقة. ويؤكد على ذلك ظهور تعابير اصطلاحية تركية كثيرة، بالإضافة إلى التعابير الاصطلاحية الحربية والفارسية السابقة، التى كانت رسخت فى نظام مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامى؛ وذلك لأن العصر التركى قد ساد أكثر فى مصر منذ قيام هذه الدولة، واستمر فيها إلى العصر الحديث القريب.

ويؤكد على دور مصر البارز فى الحقبة الأيوبية تسميتها بمصر، وأهلها بالمصريين، مثلما كان الحال منذ الفتح العربى، إلا أنه بسبب إسلام المصريين واستعراهم، ودخولهم فى زمرة المسلمين والعرب، فإن كلمة مسلم أصبحت تشملهم، مثلما شملت المسلمين فى أقطار أخرى، أما كلمة عربى، فهى فى مفهومها أصبحت تمثل اتجاهها جغرافياً، يشتمل على الشعوب التى تتكلم العربية، وتمتد من المحيط إلى الخليج.

والله ولىّ التوفيق.

أ. د. عبد المنعم ماجد

ب - المصادر التاريخية

ولحسن الحظ أنه توافرت مادة تاريخية غزيرة للدولة الأيوبية في مصر، بمنعطفاتها ومؤثراتها، تلقى لنا ضوءاً ساطعاً عليها، تأتي في مقدمتها مصادر من الدرجة الأولى، متمثلة في أوراقها الرسمية في شكل: رسائل ومراسلات جمعها القاضي محيى الدين المصرى (ت ٧ من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ/ ٢٦ يناير ١٢٠٠م)^(١)، الذى عمل من قبل مع الفاطميين، وكان صاحب ديوان الإنشاء في عهدهم، كما أصبح كاتباً لشيركوه السلجوقى لما وُزر لهم في عهد الخليفة العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين، ثم وُزر لصالح الدين لما قامت الدولة الأيوبية من بعدهم، وصحبه في حروبه، وبقي في خدمته إلى أن توفى، وفي خدمة ملوك الأيوبيين من بعده، حيث إن هذه الرسائل أغلبها بشارات بالانتصارات المستطابة على الفرنجة من أهل أوربا. وقد كان القاضي الفاضل قطباً في الكتابة الإنشائية، وخاصة أن صناعة القلم كانت راسخة في مصر، ولها أساتذتها فيها، ويعد القاضي الفاضل أحد أربعة معالم في تاريخ كتابة النثر الفنى^(٢)، وهم: ابن المقفع، والجاحظ، وابن العميد، والقاضى الفاضل.

كذلك أوراق رسمية أخرى للأيوبيين، متمثلة في حجج المدارس^(٣) في عهدهم، إذ اعتبرت المدارس من وسائل نشر المذهب السنى^(٤)، بعد قضائهم على

(١) لدينا مخطوطة في المكتبة الأهلية (B. N.)، برقم 6024، من إنشاءات القاضي الفاضل. عنه: صبح الأعشى، ١ ص ٩٧.

انظر: فتحة النبروى، إنشاءات القاضي الفاضل، دراسة وتحقيق وتعليق، القاهرة، ١٩٨٠؛
Ency of Isl, (Art Kādī al-Fādīl,) 2ed, tIV P. 376;

Horst-Adolf: Beitrage zur Ayyūbidische Diplomatic. Freiburg, 1968.

(٢) أنظر: نعمات أحمد فؤاد، دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٨٥، ص ٤٤٧.

(٣) وهي توجد محفوظة في دار المحفوظات بالقاهرة.

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٣٤٢.

المذهب الفاطمى، حيث كان مذهبهم، ومذهب الدولة العباسية، أو فى شكل وثائق محفوظة فى دير سانت كاترين النائى فى سيناء^(١)، صدرت عن ملوك الأيوبيين فى مصر لتأمين رهبانه وزواره، وحسم الضرر عنهم، حيث إن أغلبها رد على التماسات وشكايات منهم، وأهميتها فى مضمونها وصياغتها التى تبدأ بالبسملة، وبها القاب الملوك الأيوبيين والتاريخ الهجرى، أو فى شكل أوراق اليهود التى وجدت فى قاعة بمعبدهم بالفسطاط، اشتهرت باسم: الجنيزة «Geniza»^(٢) تتناول أحوالهم، وخاصة نشاطهم الاقتصادى، وهى مكتوبة فى أغلبها بالعربية، أو فى شكل نصوص ومعاهدات تجارية^(٣)، بين دولة الأيوبيين وجمهوريات إيطالية، وبخاصة بيزة والبندقية وجنوة وفلورنسا، وأغلبها مكتوب باللغة الإيطالية الدارجة المسماة: «Vulgare»، ومع ذلك، فليست لأغلبها نصوص عربية مقابلة.

وفوق ذلك وجدت مصادر من الدرجة الأولى عنهم متمثلة فى آثارهم، ومنها: قلاع لظروف الحروب فى وقتهم مع الصليبيين، أشهرها قلعة جبل المقطم فى القاهرة، أو ما عرف بقلعة الجبل، حيث توجد كتب متخصصة عنها، أو عن المدارس والخوافق والريط، وهذه الأخيرة ابتكرها صلاح الدين^(٤)؛ لميله الشديد إلى التصوف والمتصوفة، ومع ذلك فما يهمنا منها فى مصادرنا نقوشها التى جمعها «Van Berchem» فى: «Corpus»^(٥)، و Sauvaget و Wiet و Combe، فى موسوعتهم: "Répertoire"^(٦).

(١) بالتفصيل، انظر

Atiya: The Arabic Mss of Mt Sinai.. Baltimore, 1955.;

جوزيف نسيب، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبي المخطوطة بمكتبة دير سانت كاترين بسيناء، فصل من مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٦٥.

(٢) هى كلمة آرامية أو عبرية؛ لتعنى قاعة دفنت بها أوراق، حتى لا يندس اسم الله فيها، ولعل فيها معنى جنازة العربية، ولما هدمت القاعة تسربت هذه الأوراق لمكتبات أوروبا وأمريكا.

(٣) توجد فى أرشيفات هذه المدن، وقد نشر بعضها أمارى وغيره. أنظر: Amari, Diplomi Arabi del Archivio. Fiorentino. 1873.

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٣٤٣.

(٥) Matériaux Pour un Corpus Inscriptionum, Arabicorum. Première Partie. T2. أنظر: Egypte, 1930.

(٦) أنظر: Répertoire Chronologique, d'épigraphie arabe. Le Caire., 1931 sqq. (ظهر منها حتى الآن ١٨ جزءاً). ولها فهرست لتسهيل البحث فيه. وما يتعلق بالمدارس يوجد فى: R C E A, IV, p. 176, No. 3449.

كذلك من مصادر الدرجة الأولى عنهم السكة وهى عملتهم، حيث سكّت فى أماكن متعددة فى مصر والشام وبلاد الجزيرة الفراتية، وتوجد تأليف عنها، من ابن بكرة الذهبى - منصور الذهب - (حوالى ٧ هـ / ١٣ م)^(١)، فى كتابه: كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، الذى ربما يكون كتبه من أيام الأيوبيين، وأيضاً من المقرئى^(٢)، من عهد دولة سلاطين المماليك، فى كتابه: شذور العقود فى ذكر النقود، إلا أنه فى وقتنا راد الاهتمام بالسكة كمصادر تاريخية هامة، ويهمل منها السكة الأيوبية، التى جمعها المؤرخون الحديثون مع غيرها فى المكتبات العامة، وصوروها، مع ترتيب أزمنتها، ودولها، فى جداول، مثلما فعل: Lane-Poole فى: "Catalogue"^(٣).

ثم نذكر عيون المؤلفات الموثوق بها، ومنها المعاصرة لدولة الأيوبيين، وهى كثيرة، بسبب تداخل تاريخهم فى التاريخين الفاطمى والمملوكى؛ إذ إن دولتهم فى أول نشأتها قامت على أنقراض خلافة الفاطميين، وأنها استخدمت المماليك التى فى جيشها، وهم الذين قضوا عليها وحلوا مكانها فى حكم مصر، إلى وقت العثمانيين، بالإضافة إلى المعلومات التاريخية وأحداثها فيها، وتتضمن وثائق عديدة نقلت من أصولها، بعضها نصوص كاملة، ليس من السهل إحصائها.

(١) تحقيق عبد الرحمن فهمى، القاهرة ت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦. نشرت وترجمت بعض نصوصه من Eh-renkreutz فى: BSOAS, 1958, Vol XV. Part 3., 442 - 447. وربما ألفه فى عصر الملك الكامل محمد.

(٢) ط النجف ١٣٥٦ هـ، وترجمة De Sacy، بعنوان:

Traité des Monnaies Musulmanes. Paris, 1797.

(٣) أنظر.

Lane-Poole: Catalogue of the Collection of arabic Coins. Preserved in, Khedivial Library;

: Catalogue of the Oriental Coins in the British Museum. LoVols. London 1875, - 1890;

Paul Balog: The Ayyubids Jeton. Congresso. Napoli, 1967, p. 121 - 125.

فندكر كتاب أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م): الاعتبار أو حياة أسامة^(١) وهو عاصر الفاطميين الأواخر، وقيام الدولة الأيوبية، ووصفه المؤرخون الحديثون الأوربيون بالجنّلمان "Gentleman"؛ لقيامه بالسفارة للأيوبيين، أما العرب في وقته اعتبروه بطلاً للفتوة الإسلامية.

وكتب الأصفهاني - عماد الدين الكاتب أو العماد الكاتب - (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، ولد بأصفهان^(٢)، ثم ذهب إلى الشام، وعمل عند نور الدين السلجوقي مشرفاً على ديوان إنشائه في دمشق، ثم لازم صلاح الدين، وعمل كاتباً له في الشام، نائباً عن القاضي الفاضل في مصر، وأصبح يذهب معه في كل تنقلاته، واعتبر مؤرخه الحربى، وقد شبهه القاضي الفاضل لحماسه في الكتابة عن حروب صلاح الدين بأنه: كالزناد الوقاد^(٣). فكان يكتب له معاهداته واتفاقياته، وله فيها أسلوب بليغ جداً، وكأنها برقيات، ويمكن مقارنة أسلوبه بأسلوب القاضي الفاضل، حيث كان قد تتلمذ على يديه. فمن كتبه: الفتح القسى - أى البليغ - في الفتح القدسى، سماه كذلك تنبيهاً على جلال قدره، وهى تسمية القاضي الفاضل للكتاب، أما هو فسماه: الفتح القدسى^(٤)، وفيه يتناول حروب صلاح الدين مع الفرنجة لسبع سنين فقط، وبخاصة استرداد بيت المقدس على يد المصريين بالذات^(٥)، والبرق الشامى^(٦)، وفيه يتناول بتفصيل الأحداث الأيوبية السياسية والحربية، وله مختصر بعنوان: سنا البرق الشامى^(٧)، من الفتح البندارى الأصفهاني (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)، وتاريخ دولة آل سلجوق^(٨) وفيه يتناول نشأة

(١) تحقيق وترجمة فرنسية من Derenbourg، ط. Paris، ١٨٨٦ - ١٨٨٩، ١٩٤٤، وتحقيق وترجمة إنجليزية من Hitti، ط. Princeton، ١٩٢٩ - ١٩٣٠، وترجمة ألمانية من Schumann، ط. Innsbruck، ١٩٠٥، وترجمة روسية من Sale، ط. Moscou، ١٩٥٨.

(٢) عنه: وفیات، ٢ ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) النجوم، ٦ ص ١٧٨ ص ٥.

(٤) ط. مصر ١٢٩١هـ / ١٨٧٢. ولدينا طبعة أخرى غير مستعملة، من تحقيق محمد صبيح، القاهرة ١٩٦٥، وتحقيق Landberg، ط. Leiden، ١٨٨٨، وترجمت بعض أجزاءه من Kraemer في ١٩٥٢، وأيضاً من: Massé.

(٥) أنظر. بعده.

(٦) ضاع معظمه، ولم يبق منه غير مجلدى ٣ و ٥، ويوجدان في مخطوطة: ط. Code: Or. Leiden. ١٥٦٢.

(٧) تحقيق وتقديم فتحة النبروى، القاهرة ١٩٧٩.

(٨) تحقيق Derenbourg، ط. Paris، ١٨٨٩، وتحقيق مصر ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م. وهو غير كتاب الحسينى، صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق إقبال، لاهور ١٩٣٣.

السلاجقة، والأخبار التاريخية منذ قيام دولة صلاح الدين من سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦١ م إلى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م، وله هو الآخر اختصار من الفتح البندارى أيضاً، وخريدة القصر وجريدة أهل العصر^(١)، وهو مؤلف ضخمة به أخبار الشعراء الذين كثروا في عهد صلاح الدين من مصر والشام والعراق والمغرب؛ بسبب تغنيهم بانتصاراته.

وكتابتى ابن الجوزى - أبو الفرج - (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م): المنتظم فى تاريخ الأمم الملوك^(٢)، وفيه يتناول أخباراً كثيرة عن علاقات الأمم والدول، وكتاب سمي ابن الجوزى - سبط - (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م): مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان^(٣)، وفيه تناول فترة حرجة بين سقوط دولة الأيوبيين، وقيام دولة سلاطين المماليك، وسرد تفاصيل رائدة عن تنافس السلالة والفاطميين على بيت المقدس، وتحركات الفرنجة فى فلسطين.

وكتاب ابن الأثير^(٤) - عز الدين - (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م): الكامل فى التاريخ^(٥)، وهو من خيار التواريخ على حسب قول المؤرخ ابن خلكان، ويزيد من أهميته فى أنه يعرض الأحداث على حسب السنين، وأن ابن الأثير نفسه كان شاهد عيان على حروب صلاح الدين، فهو من آل أثير الذين اشتهروا بالكتابة والتأليف، وله كتاب آخر بعنوان: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية^(٦)، وفيه يتناول تاريخ الدولة الأتابكية فى الموصل ببلاد الجزيرة، بعد تفكك الدولة الأيوبية، التى أسسها صلاح الدين، فابن الأثير تربى فى كنفها، إذ إنه موصلى المولد.

(١) وهو فى عشر مجلدات، ولم ينشر منه إلا أجزاء، تحقيق أحمد أمين وشوقى ضيف، القاهرة ١٩٥١، وتحقيق فى الشام من غير تاريخ، وفى بغداد ١٩٥٥، وفى تونس ١٩٦٦.

(٢) ط. فى الهند من Krenkow، حيدر آباد ١٣٥٧، ١٣٥٨ هـ. نشرت منه الأجزاء من ٥ - ١٠، كما حقق منه الجزء ١٧، بيروت ١٩٩٢؛ انظر. 2 - 751، p. 3، t 2، Ency of Isl., (Ibn al-Djawzi) 2 ed.

(٣) نشر بعضه، وهو الجزء الثامن من Jewett، فى Chicago، ١٩٠٧، و ط حيدر آباد فى جزئين ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٢ م. عنه:

Ency of Isl., (art Ibn al-Djawzi) 2 ed, t 3, p 752 - 3.

(٤) وفیات الأعيان، ١ ص ٤٩٤، ٤٩٥.

(٥) حققه النجار ونخبة من العلماء، القاهرة ١٣٥٣ هـ / ١٨٨٥ م. فى ١٢ جزءاً. كان له أخان: أشهرهم الأديب: ابن الأثير، أبو الفتح.

(٦) تحقيق عبد القادر طليعات، القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م.

وكتاب ابن شداد - بهاء الدين - (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين^(١)، وفيه يتناول سيرة صلاح الدين وفتوحاته، فقد كان ابن شداد قاضى عسكره فى القدس.

وكتاب ابن العديم - كمال الدين - (٦٦٢ هـ / ١٢٦٣م): ريدة الحلب من تاريخ حلب^(٢)، الذى خصصه للكلام عن حلب، التى كانت من أهم الاتابكيات السلجوقية، والحلب هو ما يحلب من الناقة، والزبد هو خلاصته، مما يؤكد على دسامة مادة الكتاب التاريخية.

وكتاب أبى شامة - عبد الرحمن - (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧م): الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية^(٣)، ولد فى دمشق، وقضى بقية حياته فى القاهرة، وله كتاب آخر بعنوان: الذيل على الروضتين^(٤)، عبارة عن تراجم لرجال القرنين السادس والسابع، وفى كليهما ينقل عن مؤرخين كثيرين، وبخاصة عن القاضى الفاضل.

وكتاب ابن شداد - عز الدين - (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة^(٥)، وهو كتاب تاريخى وجغرافى يهتم بمدينة حلب ودمشق، وفيه يتكلم عن ملوك الأيوبيين المتأخرين.

(١) ط. مصر ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩م، وتحقيق الشيال، ١٩٦٤، له ترجمات متعددة: لاتينية ١٧٧٥م، والمجلدية من Conder ١٨٩٧، وطليلية من Gabriel، كما حققها DeSlane فى R.H.C.Or H, 1884، حيث يوجد له ملحق من شاهنشاه بن أيوب (صاحب حماة) بعنوان: مستخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة، وفيه يتناول تاريخ الفاطميين على الخصوص، أما عن كتابه فهو بعنوان: مضممار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨. وهنا نذكر مخطوط آخر من: الحبلى - عز الدين - (٨٧٦ هـ / ٨٤٧١)، بعنوان: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، حيث يسير فيه على نهج ابن شداد فى الإعجاب بأل أيوب، ويوجد مصوراً فى مكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٣١ تاريخ، المجلد السابع عشر. وله كتاب آخر بعنوان: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

(٢) حققه سامى الدهان فى جزئين، دمشق ١٩٥١، وله ترجمة من Blochet بعنوان:

Histoire d, Alep. Paris, 1895 - 1898.

(٣) نشر فى جزئين، بإشراف عبد الله بن مسعود، القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ / ١٨٧٢، وحقق مع دراسة من حلمى محمد أحمد، فى جزئين، القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٦٢، وله ترجمة فى:

R.H.C.H or IX, 1898; V, 1906

وعن أبى شامة، انظر. Ency of Isl, (art AbúSháma) 2ed, II, p. 154

(٤) نشر عزت العطار، القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧.

(٥) الجزء الأول، تحقيق D.Sourdel، دمشق ١٩٥٩، والثانى تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥٦، وط.

وكتاب ابن واصل - محمد بن سالم - (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب^(١) وفيه يتناول بتفصيل تاريخهم إلى عهد السلطان بيبرس المملوكي، وهو عاصر نجم الدين أيوب، وشاهد عيان لحملة ملك فرنسا لويس التاسع على مصر، مما يؤكد تداخل تاريخ دولة الأيوبيين في تاريخ دولة سلاطين المماليك في مصر.

ثم نذكر تأليف معاصرة للأيوبيين تناولت نظم دولتهم السياسة والاقتصادية، وبخاصة مواردها المالية في مصر، وتفاصيل دواوينها، إذ كان لا بد للدولة الأيوبية أن تنظم دولتها من جميع النواحي، حتى تتفرغ لأهدافها الحربية، وإن كانت في نظمها واثرة لنظم الخلافة الفاطمية^(٢)، وأغلبها من تأليف كبار المتخصصين في النواحي المالية وفي مقدمتهم المخزومي - أبو الحسن - (ت ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م) وكان من كبار كتاب الفاطميين، حيث استمر أفراد أسرته يعملون كتاباً للأيوبيين من بعدهم: المنهاج في علم خراج مصر^(٣)، وله مختصر: المتقى من كتاب المنهاج في علم الخراج^(٤)؛ والشيزري (ت ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م): نهاية الرتبة في طلب الحسبة^(٥)، الذي ألف في عهد صلاح الدين وابن مماتي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م): قوانين الدواوين^(٦)، وعثمان النابلسي (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م)، وهو مؤرخ الدواوين

بيروت ١٩٥٧، وتحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٥٦، وتحقيق يحيى عبادة، دمشق ١٩٧٨، وتحقيق من Anne - Marie، في: Bulletin d, Etudes Orientales xxII-xxxIII, 199، وله ترجمة مذيبة بعنوان: Description de la Syrie du Nord. Damas, 1984

(١) قام بتحقيقه والتقديم له الشيال، في ٣ أجزاء، ١٩٥٣ - ١٩٦٠، ومن ٤ - ٥، تحقيق حسنين ربيع، ١٩٧٢ - ١٩٧٧، ويوجد مخطوطا بدار الكتب، برقم ٥٣١٩، ومخطوطا في (B.N.) برقم 1702, 1703

يوجد كتاب آخر لابن واصل، بعنوان: التاريخ الصالحى، وهو مختصر، وله صورة شمسية بمكتبة كلية آداب إسكندرية.

(٢) رسالة الماحستير: نظم الحكم والإدارة في العصر الأيوبي عام ١٩٨٣، من أحمد فؤاد السيد (بإشراف).

(٣) مخطوط بالمتحف البريطاني، B.M. Ms, no. : Add 23483، وهو مكتشف لمخطوطته؛ بعنوان: Makhzūmiyyāt. Leiden, 1977

(٤) تحقيق Cahen، ومراجعة راغب، في: Ann Islamo، عدد ٨، القاهرة ١٩٨٦؛ وله ملخص في: Ann Islamo, No 8.

(٥) تحقيق البار العربي، القاهرة ١٩٤٦. ويوجد موسعاً في كتاب ابن الأحرار (ت ٧٣ هـ / ١٣٢٩ م): معالم القرية في أخبار الحسبة، تحقيق Levy، ط. Cambridg، ١٩٣٨

(٦) تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.

الأيوبية وعمل في دواوين السلطان الكامل، حفيد صلاح الدين: لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية^(١)، وله كتاب آخر عن تاريخ القيوم^(٢)، أشبه بتقرير إداري عن الإقليم في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بعنوان: إظهار صنعة الحى القيوم في تراتيب بلاد القيوم، ورسالة لمجهول ألقت لصلاح الدين عن: السلاح^(٣)، فيها معلومات ثمينة عن الفن الحربى في وقته، وما يؤيد هذا الرأي أن المؤلف يذكر اسم صانع الأسلحة: أبا الحسن الأبرقى الإسكدرانى، الذى كان يمارس مهنته فى صنع الأسلحة من أيام الفاطميين.

وتوافرت أيضاً مادة قيمة ومعاصرة من تراث رجالين مسلمين، زاروا مصر فى وقت الأيوبيين. وهى حقبة من الزمان رخرت بأحداث الحروب الصليبية، فى ظروف كانت فى غاية الحرج للمسلمين جميعاً، ضمت مذكرات ومعلومات جغرافية، بالإضافة إلى أنهم شهدو عيان على العصر، فكتبهم أشبه بالمعاينة للمنطقة من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والحضارية، أبرزت الإنجازات والسلبيات، ومنهم: الهروى الموصلى (ت ٦١١هـ/١٢١٥م)، الملقب بالسائح الهروى لكثرة تنقلاته فى المشرق، فى كتابه: الإشارات إلى معرفة الزيارات^(٤)، حيث كان مولعاً بزيارة أضرحة الأولياء والمقامات، وكان يكتب بخطه اسمه على حوائطها، مما جعله يدون النقوش التى رآها، ويذكر كثيراً من الأبنية، كما كانت له معرفة بفنون الحرب وأسلحتها، فربط بين السياسة والحرب فى كتابه: التذكرة الهروية فى الحيل الحربية^(٥)، وابن جبير الأندلسى (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، فى كتابه: رحلة^(٦)، الذى كتبه بأسلوب الرحالة المتجول، وقد قام بعدة رحلات متتالية

(١) تحقيق Cahen فى: Bull d, Etud. Or. Damas XVI, 1958-60

(٢) ط. القاهرة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧، وتحقيق Moritz، القاهرة ١٨٩٩، ودراسة من Cahen فى Arabica, III, 1956, P. 8 - 30

(٣) عنوانه فى الترجمة Un Traité D'armurerie، فى: B.E.O, tXII, années 1947-8, p. 103 - 163

(٤) حققه Sourdel، دمشق ١٩٥٢. عنه:

Ency of Isl, (árt al-Harawí al, Mousilf 2ed. t3, p. 178.

تسميته بالهروى نسبة لهراة فى أفغانستان حالياً.

(٥) تحقيق وتعليق مطيع المرباط، دمشق ١٩٧٥.

(٦) طبع فى مصر فى ١٣٢٦هـ/١٩٠٦، وتحقيق من حسين نصار، بيروت، وحقق على يد Wright فى مجموعة de Goeje، وله ترجمة طليانية من Schiaparalli، وفرنسية من Gaud، والإنجليزية من Broadelung، وانظر أيضاً ما كتبه عنه كراتشكوفسكى فى: تاريخ الأدب الجغرافى، وله ترجمة عربية، ١ ص ٣٠٠.

الفترة الأيوبية المتداخلة في تاريخي الفاطميين والمماليك، والقلقشندى (ت ٨٣١ هـ / ١٤٢٨م). صبح الأعشى فى صناعة الإنشا^(١)، وبه نصوص وثائقية، منها سجلا تعين شيركوه وصلاح الدين فى وزارة الفاطميين، والمقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م) الذى نشأت به ويتلامذه نوعية جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية، وكتابه بعنوان: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار^(٢)، ويختص بخطط القاهرة التى اتسعت اتساعاً كبيراً، حتى عُرفت بالمدينة الكبرى، بعد أن ألحقت بها عواصم مصر الإسلامية السابقة، وامتدت إلى قلعة الجبل، وله كتاب آخر بعنوان: السلوك لمعرفة دول الملوك^(٣)، وكلاهما فيه تفاصيل مسهبة عن الأيوبيين فى مصر والشام وبلاد الجزيرة وغيرها، والعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٢م): عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان^(٤)، وابن تغرى بردى - أبو المحاسن - (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة^(٥)، وفيه يتناول حقبة الأيوبيين مع غيرهم فى تاريخ مصر الإسلامية عاماً بعد عام بإسهاب كبير، مع توالى ذكره لنسب مياه فيض النيل، وله كتاب آخر هام، بعنوان: حوادث الدهور^(٦)، تناول فيه تاريخ الدولة الأيوبية، والسيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة^(٧)، وابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، وغيرهم^(٨).

(١) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل طبع دار الكتب، وترجمة لبعضه من Wust.

(٢) ط. بولاق ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٢، فى جزئين، وفى أربعة أجزاء ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧، وترجمة لبعضه من: Bouriant, Casanova, Griveau, Wust, Wiet؛ انظر. الشيال، التاريخ والمؤرخون فى مصر.

١٩٥٨، ص ١٠٥ - ١٠٦ وله فهرست من هريدى، المعهد الفرنسى (X x / 2) ١٩٨٣.

(٣) تحقيق زيادة (١ / ٢ / ٦ أقسام)، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٨، وعاشور (٤ و ٣) القاهرة ١٩٧٠، وترجمة

لبعضه من: Blochet, Quatremère.

(٤) مخطوط بدار الكتب برقم ١٥٨٤ تاريخ.

(٥) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل دار الكتب، وترجمة من: Juynboll, Popper.

(٦) تحقيق Popper، ط. Barkeley.

(٧) فى جزئين، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩.

(٨) ط. القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ.

الفترة الأيوبية المتداخلة في تاريخي الفاطميين والمماليك، والقلقشندى (ت ٨٣١ هـ / ١٤٢٨م). أصبح الأعشى فى صناعة الإنشاء^(١)، وبه نصوص وثائقية، منها سجلا تعين شيركوه وصلاح الدين فى وزارة الفاطميين، والمقرئى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢م) الذى نشأت به ويتلامذه نوعية جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية، وكتابه بعنوان: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار^(٢)، ويختص بخطط القاهرة التى اتسعت اتساعاً كبيراً، حتى عُرِفَت بالمدينة الكبرى، بعد أن ألحقت بها عواصم مصر الإسلامية السابقة، وامتدت إلى قلعة الجبل، وله كتاب آخر بعنوان: السلوك لمعرفة دول الملوك^(٣)، وكلاهما فيه تفاصيل مسهبة عن الأيوبيين فى مصر والشام وبلاد الجزيرة وغيرها، والعينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٢م): عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان^(٤)، وابن تغرى بردى - أبو المحاسن - (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة^(٥)، وفيه يتناول حقبة الأيوبيين مع غيرهم فى تاريخ مصر الإسلامية عامّاً بعد عام بإسهاب كبير، مع توالى ذكره لمنسوب مياه فيض النيل، وله كتاب آخر هام، بعنوان: حوادث الدهور^(٦)، تناول فيه تاريخ الدولة الأيوبية، والسيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م): حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة^(٧)، وابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، وغيرهم^(٨).

(١) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل طبع دار الكتب، وترجمة لبعضه من Wust.

(٢) ط. بولاق ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣، فى جزئين، وفى أربعة أجزاء ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧، وترجمة لبعضه

من: Bouriant, Casanova, Griveau, Wust, Wiet؛ انظر: الشيال، التاريخ والمؤرخون فى مصر.

١٩٥٨، ص ١٠٥ - ١٠٦ وله فهرست من هريدى، المعهد الفرنسى (X x / 2) ١٩٨٣.

(٣) تحقيق زيادة (١، ٢ / ٦ أنسام)، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٨، وعاشور (٤٣) القاهرة ١٩٧٠، وترجمة

بعضه من: Blochet, Quatremère.

(٤) مخطوط بدار الكتب برقم ١٥٨٤ تاريخ.

(٥) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل دار الكتب، وترجمة من: Juynboll, Popper.

(٦) تحقيق Popper، ط. Barkeley.

(٧) فى جزئين، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩.

(٨) ط. القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ.

وأخيراً، نذكر مؤلفات الحروب الصليبية أو ماسماه المسلمون حركة الفرنج، وهى فى غاية الأهمية للفترة الأيوبية فى مصر؛ لسبب أن الدولة الأيوبية قضت حياتها كلها فى كفاح مع الفرنجة، وهم سكان أوربا الذين تحركوا نحو الشرق الإسلامى بموجاتهم المكثفة والشرسة؛ ليس بهدف الاستعمار فيه فقط، وإنما أيضاً بمشروع مبيت للاستيطان فى فلسطين، التى تعتبر واسطة العقد فى المنطقة العربية، وباستعادة الأرض المقدسة من المسلمين: *De Recuperatione Sanctae Terre*؛ بحيث سجلوا حتى خطوط سير حملاتهم *Itineraria*. وقد ورد معظم ماكتب عنها فى الموسوعة الفرنسية الكبيرة المعروفة باسم: "Recueil"^(١)، التى جمعت نصوصها ومعظمها من الشاهد العيان، منذ بداية القرن الثالث عشر، وموردة بين أصناف من المؤرخين الذين كتبوا عنها: فمنهم اليونانيين، مثل "Jean Phocas" و "Niketas"، ومن الأرمن: متى الرهاوى "Mathieu d'Edesse"، ومن الأوربيين بخاصة وليام - ولیم - الصورى "Willemero Terensi"^(٢) وهو مستشار لعمورى "Amauri" ملك بيت المقدس، وشاهد عيان على حروبه مع الفاطميين، ومن مؤرخين عرب، ذكرت لهم فيها بعض تأليفهم التى تناولت الحروب الصليبية بغزو بلادهم؛ حيث قام De Slane بترجمة وتحقيق نصوصها العربية. ومع ذلك؛ فإن بعض هذه الكتب المعاصرة للحروب الصليبية ذكرت فى كتب أخرى، مثل: In- ventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades^(٣) بإشراف Riant، وفى: Bibliographie des Croisades^(٤)؛ بإشراف Michaud. كذلك ظهرت مؤلفات للسريان، وهم مؤرخون من أصل عربى عن قوانين مملكة بيت المقدس اللاتينية^(٥)، مثل: قوانين "Assises" - أو أسس - بالإضافة إلى مصادر بيزنطية، مثل: كتاب أناكومينا "AnnaComnenus" فى قصائدها الكسياد "Alexiadis"^(٦).

(١) انظر:

Recueil des Historiens des Croisades (R.H.C) 16 Vols. Paris, 1841 - 1956: Historiens arméniens 2 Vols., Historiens grecs 2 Vols, Historiens occidentaux 5 Vols, Historiens orientaux 5 Vols.

(٢) ظهرت له ترجمة من حسن حبشى وتعليق فى عدة أجزاء، بعنوان: الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩١ - ٩٤، وعنوان الكتاب الأصلى هو: الأعمال التى تم إنجازها فيما وراء البحر.

(٣) انظر: Archive de L'Orient Latin، فى: (A.O.L. 11 - 224. Paris, 1881).

(٤) فى جزئين، ١٨٢٢م. وله مؤلف بعنوان: Histoire des Croisades. 4 Vols. Paris, 1841 - 1852.

(٥) بتاريخ ١٨٤١ - ١٨٤٣م. انظر: Assises de Jerusalem R.H.C.occ t.II.

(٦) ترجمة حسن حبشى، القاهرة.

أما المؤرخون الحديثون وهم متخصصون "Ex - professo"؛ فإنهم تناولوا تاريخ الدولة الأيوبية؛ وبخاصة من المستشرقين، الذين راد اهتمامهم بتاريخها بسبب الصراع الصليبي معها، فنذكر منهم:

Lane - Poole, Grousset, Runciman, Ashtor, Strauss, Elisséef , Tourneau, D. Sourdél, J. Sourdél Thomine, Benrard Lewis, Hodgson, Cahen, Creswell, Gabrielli, Abel, Champdor, Gottaschalk, Ehrenkreutz , Casanova, Bassietti, Kahle, Smith, Lófgren, Norgate, Marin, Hitti, Gibb, Slaughter, Gaston - Paris, Sauvaget,

أما المؤرخون الحديثون في مصر، الذين كرسوا لها دراسات، فنذكر منهم: جمال الدين الشيال، والباز، وعاشور، وحسن حبشى، وحسين مؤنس، وسعداوى، وفتحية النبراوى، وسوريات عطية، وسوسن نصر، وزبيدة عطا، وبدر الدين، وياسين الحموى، وأبو حديد، وسعيد العريان، وصلاح البحيرى، وأحمد بيلى، وحسني ربيع، وحمزة، وكامل حسين، ومصطفى زيادة، وسليمان صائغ، وعلى بيومي، وفاروق عمر، وأحمد فؤاد (رسالة ماجستير بإشرافى).

جـ - أسماء ملوك الأيوبيين في مصر

ميلادى	هجري	
١١٧١	٥٦٧ .	* صلاح الدين يوسف .
١١٩٢	٥٨٩ .	* العزيز عثمان عماد الدين .
١١٩٨	٥٩٥ .	* المنصور محمد ناصر الدين .
١٢٠٠	٥٩٦ .	* العادل أبو بكر سيف الدين .
١٢١٨	٦١٥ .	* الكامل محمد ناصر الدين .
١٢٣٨	٦٣٥ .	* العادل الصغير (الثانى) سيف الدين .
١٢٣٩	٦٣٧ .	* الصالح نجم الدين أيوب .
١٢٤٩	٦٤٧ .	* المعظم توران شاه .
١٢٥٠	٦٤٨ .	* عصمة الدين أم خليل «شجرة الدر» .
١٢٥٠	٦٤٨ .	* الأشرف موسى (ابن السعد) .

الفصل الأول

أحوال الخلافة العباسية، وظهور السلاجقة

كان ظهور السلاجقة فى فترة احتضار الخلافة العباسية؛ فمنذ مدة انقسمت أملاكها الواسعة بين حكام مستقلين؛ بحيث لم يبق لها غير بغداد العراق، وأصبح الخليفة نفسه أشبه بشيخ لاسلطان له تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الأتراك الأقوياء؛ فظهرت لهم وظيفة أمرة الأمراء^(١)، التى أبطلت الوزارة والدواوين، وأصبح لتوليها كل السلطة من دون الخليفة، ولهذا أطلق المؤرخون على الخلفاء العباسيين: الخلفاء المستضعفين^(٢)؛ كما أطلق المؤرخون على خليفة تركيا - فى وقت ضعفها - الرجل المريض.

ولم يقف ضعف الخليفة العباسى عند حد أن يسيطر عليه رجل أقوى منه، ولكن تطور الأمر إلى أن سيطرت عليه أسرة من الديلم الشيعية، تخالفه فى المذهب، وتحكم معه وارثا عن وارث. ففى أثناء تنازع القواد الترك المستبدين به فى بغداد، تمكنت أسرة بنى بويه^(٣) - على اسم جدها أبى شجاع بويه - من دخول العراق؛ حيث كان أجدادها يعيشون كجند مرتزقة أو على صيد السمك. وكان أول ظهورها بين قبائل الديلم البدوية، وهى من أصل فارسى، وتقيم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين، ولم يكن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد تمكنوا من فتح بلادهم؛ إلا أنهم اكتسبتهم الدعوة الشيعية وتحولوا إلى الإسلام فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى؛ حيث اعتنقوه على المذهب الزيدى، من فوق الشيعة الأولى، التى كانت من أسباب قيام الخلافة العباسية، وزوال

(١) ابن الأثير، الكامل، ٦ ص ٢٥٤. ظهرت امرة لأول مرة فى عهد الخليفة العباسى الرضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ / ٩٣٤ - ٩٤١ م).

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨ س ٣.

(٣) الكامل، ٦ ص ٢٣٠ وما بعدها؛ المقريزى؛ النزاع والتخاصم، ص ١٦٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ١٥٨؛ انظر.. Ency. de L'I Sl. (Art Búyides) TI, P. 827 - 828.

الخلافة الأموية. ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر لبني بويه أطماع في أملاك الخلافة، على أيدي زعماء لهم. ولكنهم على أيدي بني بويه، كونوا دويلات قوية في إيران ونواحيها، ودخل بهم أحمد بن بويه إلى بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وتلقب بمعز الدولة، وعزل الخليفة المستكفي، وولى بدلاً من المطيع لله حتى يطيعه. فكانوا بنو بويه مع الخلفاء العباسيين، أكثر استبداداً من القواد الترك السابقين؛ وذلك لأنهم كشيعة لم يكن عندهم باعث مذهبي على الطاعة للخلفاء السنة؛ فكانوا يعزلونهم ويسملون عيونهم لو يقتلونهم. كذلك أصبح الواحد منهم؛ يسك العملة باسم شاهنشاه أي ملك الملوك، ويخطب له على المنابر، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسي في خطب المساجد، وتضرب له الدفوف - الطبول - أمام قصره في الضحى والعشى، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل^(١).



ولكن نارغ الشيعة البويهيين في السيطرة على الخليفة العباسي أسرة السلاجقة^(٢)، على اسم سلجوق^(٣) - بمعنى القوس الحديد - ابن يقاق أو دقاق، وهذا الأخير كان يعتبر من زعماء قبائل الغز التركية، وهم من أبناء عموماتهم، وكان ملكهم اسمه يبيجو، وكان سلجوق هو قائد جيشه - سوباشي - إلا أنه حدث نزاع بينهما، وكان الملك يحقد عليه؛ مما جعل سلجوق يستقل إلى بلاد الإسلام بمساعدة زوجة الملك، إذ كان سلجوق، مع أنه كبير السن؛ إلا أنه قوى البنية، متمرس بالقتال ومشهور فيه. ويظهر من تاريخهم الأول أنهم جاءوا من أعماق القارة الآسيوية، وأنهم نزحوا من شمال بحر قزوين إلى جنوبي روسيا الحالية، وعاشوا على ضفاف نهر إتل - الفولجا - ثم انتقلوا إلى نواحي بلاد ماوراء النهر الإسلامية^(٤)، وأنهم كانوا وثنيين في أغلبهم، وأن بعضهم كانوا مسيحيين، ولكن لما نزحوا إلى ناحية خوارزم أصبحوا أكثر استعداداً لقبول الإسلام؛ واسم

(١) النجوم، ٤ ص ١٤٢.

(٢) الحسيني صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية؛ عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق؛ السلوك؛ ١ / ١ ص ٣٠ وما بعدها؛ انظر. t4, p.216 Sq. Ency. de L'isl. (Art Seljukides). يقصد بالغز الترك والتركمين والقفش. السلوك، ١ / ١ ص ٣١، جاشية ٧.

(٣) الحسيني صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، ص ٢٠١.

(٤) عنها، انظر. معجم البلدان، ٧ ص ٣٧٠ وما بعدها. المقصود بالنهر جيحون.

الغزّ على مايسدو أطلق على قبائل الترك التى دخلت فى الإسلام، وربما سلجوق هو أول من أدخل الغزّ فى الإسلام ؛ ولكنهم اشتهروا بالاسم الفارسى تركمان، أى أنهم مسلمون بحق وإيمان، وأنه تعطر قلبهم بالإسلام ؛ مع أن الإسلام نشأ بعيداً عنهم، وكانوا بدواً رحلاً أشبه بببدو العرب، ولا يعرف لهم مواطن استقرار، ولا يهتمون بالزراعة أو التجارة، وكان همهم الوحيد الاشتغال بالجنديّة. ويذكر أحد المؤرخين أن السماء كما يقولون أصبحت تمطر تركاً، وبلغ الإعجاب بهم حتى أن المؤرخ الخوارزمى قال: من لم يكن له عبد، فليلحق تركياً به؛ بحيث أصبحوا يؤلفون أغلب جيوش دول الإسلام، وانتهى بهم سلطان العرب تماماً بانتهاء العصر العباسى الأول تقريباً؛ بل تطور الحال إلى أن أصبحوا حزباً له وجوده فى دول إسلامية كثيرة. والواقع أنهم لم يكن يسعون فى حروبهم إلى التخریب؛ وإن كانت فيهم غلظة، ولذلك لما دعاهم الخليفة بالرحنة بالعباد؛ تقبلوا خطابه بكل احترام وتباهوا به.

وقد بدأ ظهور السلاجقة السياسى، منذ أن تداخلوا مع بقايا السامانيين - إحدى الدول الفارسية فى بلاد ماوراء النهر - إذ إن السامانيين كانوا يطلبون عون الغزّ هؤلاء ضد أعدائهم فى الدول المجاورة فى وسط آسيا؛ فدخل الغزّ فى خدمتهم، وربما أخذوا الإسلام عنهم^(١). ولما ساءت علاقة الغزّ بالسامانيين، انتقلوا إلى بلاد خراسان فى جنوبى منطقة ماوراء النهر، بقيادة طغرل بك حفيد سلجوق^(٢)؛ حيث كانوا هجرة جامحة تفتح كل شىء، وهى بلاد واسعة كانت تخضع لدولة مجاهدة تقوم على حدود الهند، وهى الدولة الغزنوية، تعمل على تحويل الهنود للإسلام. ولكن حدث نزاع جديد بين الغزّ وهذه الدولة الغزنوية؛ فحاربها السلاجقة واستولوا على أملاكها منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م^(٣)، وكونوا لهم دولة من دول الأطراف، وانتشروا فى نواحى متعددة، حتى دقوا أبواب العراق. فلما استدعاهم الخليفة العباسى القائم بأمر الله فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م؛ لإنقاذه من الشيعة البويهيين فى العراق، وكانوا طردوه من منصب

(١) أنظر: بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة عربية، ص ٥٧.

(٢) بتفصيل: وفيات الأعيان، ٢ ص ٤٣٨ وما بعدها.

(٣) الدولة السلجوقية، ٢ ص ٤٣٨ وما بعدها.

الخلافة، أسرع طغرل بك بتلبية ندائه، وأعادته إلى رتبته. وبذلك أصبح السلاجقة أصحاب السيطرة في بغداد؛ حيث اتخذ طغرل بك لنفسه لقب سلطان، ونقشه على العملة الإسلامية^(١)، ولأول مرة، وهو اللقب الذي ورد في القرآن بمعنى القوة والنفوذ، وكان يطلق على الخلفاء وحدهم^(٢).

ومن المحقق أنه لم تتحسن أحوال الخلافة العباسية بمجيء السلاجقة إلا من الناحية الروحية، بالقضاء على الدولة البويهية الشيعية، التي كانت تسيطر عليهم وتخالقهم في المذهب؛ إذ المسألة لم تتعد تغيير المتغلب عليهم "Changer de Maître"، فهم مثل البويهيين جعلوا الخلافة اسمًا بلا مسمى. ولكن الأهمية الكبرى لمجيء السلاجقة جاءت من أنهم كانوا أول هجرة تركية حقيقة في العالم الإسلامي؛ فتحت الباب على مصراعيه لهجرة أفواج الأتراك من وسط آسيا إلى الشرق الإسلامي؛ مما جعل التاريخ الإسلامي إلى عصرنا الحديث القريب، يتسم بسيادة الترك.

ولقد أصبح من أهداف السلاجقة الثابتة الاستحواذ على ثقة الشعوب الإسلامية بمهاجمة أعداء الإسلام، وبرزت فكرة الجهاد وتأكدت عندهم؛ بحيث عادت بهم المشاعر الإسلامية قوية، وأصبح الدين عند السلاجقة هو كل شيء. فطغرل بك رئيس البيت السلجوقي كان محافظًا على صلاة الجمعة، ويصوم يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع. فانكملت بهم القوميات والعصبية، ولم يتعصب السلاجقة لجنسهم، ويرون أن الدين الإسلامي يجب أن يكون سنيًا، وهو مذهب الخلافة العباسية والالتفاف حولها، وأنها الوسيلة الوحيدة لكى تسير بها الشعوب الإسلامية معًا في طريق واحد، وخصوصًا أنهم أظهروا لها احترامًا كبيرًا^(٣)، على عكس البويهيين الشيعة، الذين أذلوا وعملوا على إلغائها؛ بحكم الاختلاف في المذهب، فتباهوا بها، وتباركوا بالتقرب منها؛ بحيث إن الخليفة

(١) أنظر. Lane - Poole: Catalogue of Oriental Coins, 3, p. 28; Ency. de "Isl (Art Sultán) t4, 568. sqq.

(٢) الطبرى (Annales) ٣: ٤٢٦.

(٣) آل سلجوقي، ص ٣.

العباسي بادلهم الإحساس؛ فالقائم العباسي حرص على أن يصاهر طغرل بك، فتزوج من ابنة أخيه أرسلان خاتون.

فعلى أيدي السلاجقة ظهرت المدرسة الفقهية، التي بلورت فكر السلاجقة السني في القرن الرابع الهجري، واشتهرت بالمدرسة النظامية، وهي أول مدرسة منظمة، بُنيت في الإسلام؛ إذا استثنيت منها مدارس الفاطميين، نسبة إلى من أقامها وهو المفكر والمعلم والوزير السلجوقي نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م)^(١)؛ بحيث عممت في القرنين الخامس والسادس الهجريين، وانتشرت في مدن العراق وفارس وخراسان، وبخاصة في بغداد عاصمة الخلافة، وكانت نحو الثلاثين، كما يذكر الرحالة ابن جبير^(٢) (٥٠٤ - ٦١٤ هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧ م)، فكان تعيين مدرسيها من صلاحية هذا الوزير. حقاً إن السلاجقة نشأوا أميين، إلا أنهم كان لهم احترام للفكر الإنساني، وإن صبغوه بصبغة الإسلام، فكان المذهب الأشعري^(٣) السني، وهو مذهبهم، يختلط بالفكر الشافعي الذي كان يدرس أيضاً فيها؛ إذ كان هو الآخر في حرب مع المذهب الشيعي. وقد اعتبر هذا الوزير أن التعليم في المدرسة ضمن الوسائل الأخرى في حرب المذهب الشيعي. كما تحولت المساجد هي الأخرى في خدمة المذهب السني، واعتبرت امتداداً للمدرسة، بل أحرقت أجزاء من كتاب إخوان الصفا وهم شيعة ببغداد، ونهى الناس عن قراءته، وقتل من الشيعة جماعة منهم.

ففي عهد ألب أرسلان^(٤) السلطان السلجوقي الثاني، الذي جاء بعد وفاة عمه طغرل بك في سنة (٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م)، امتد السلاجقة من العراق إلى شمال الجزيرة، وتمكنوا من السيطرة على قبائل الأرمن، وهي عناصر مجهولة الأصل، كانت تعيش بجوار الفرس منذ الزمن القديم، وتحولت إلى المسيحية، ونشأت لها دويلات مستقلة؛ نتيجة لضعف الخلافة العباسية، وقد اعتبر الأرمن الجزء الضعيف في جبهة الروم - بيزنطة - ولم يكونوا مخلصين لهم، ولهذا لم

(١) كتاب: سياست نامه، ترجمة العزاري، القاهرة ١٩٧٥.

(٢) رحلة، ص ١١٤؛ انظر: حسين أمين، تاريخ العراق السلجوقي، بغداد ١٩٦٥، ص ٢١٨ وما بعدها.

(٣) أنظر بعده. (فصل ظهور صلاح الدين).

(٤) عنه بتفصيل: وفيات الأعيان، ٢ ص ٤٤٢ وما بعدها؛

يتضامنوا معهم فى الوقوف أمام السلاجقة، لما واصلوا الزحف الى أبواب آسية الصغرى. فهاجم السلاجقة الروم بجيش بلغ عدده أكثر من ستمائة ألف فارس، جاءوا بهم من شتى المدن الإسلامية، وجهزوه بكل شئ، ومعهم العربات الخربية، ووراءهم قطعان الماشية والأغنام للغذاء. فحاربوا ملك الروم رومانوس الرابع ديوجينوس "Romanos IV Diogenes" - يسميه العرب أرمانوس - الذى جاء هو الآخر للملاقاتهم فى جيش كبير من جنسيات مختلفة، فى ثمانين وخمسمائة ألف بطريق - أى قائد - مع كل بطريق أكثر من ألفى فارس، ومائة ألف نقاب وحفار، ومعهم العرادات والمسامير والمجانيق، ومنها منجنيق عليه ألف ومائتان رجل، وكان أقطع البطارقة الأرض حتى بغداد. وبعد حرب ضروس بينهما، وقعت فى يوم الجمعة فى ملاذكرد أو منازكرد فى عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م^(١) - بلدة على الفرات الأعلى فى مدخل آسية الصغرى - تمكن أحد أتباع ألب أرسلان - واسمه شادى - من أسر الملك الرومى، بعد أن أبعد الجيش الرومى كله. فأمر ألب أرسلان بطرح رومانوس تحت قدميه، وراح يضربه بالمقارع ويرفسه، وهو يقول له: ألم أرسل لك فى السلام، فأبيت. وقد كان هذا النصر السلجوقى سبباً فى أن فتحت أبواب آسية الصغرى أمام شعوب الترك، الذين بقوا فيها إلى وقتنا الحاضر، وقضى نهائياً على خطر الروم على الشرق الإسلامى، وأصبح الترك يعرفون للأوربيين باسم "Tourkoi"، وإن لم يعودوا فى نظرهم مجرد قبائل. فكان ما قام به السلاجقة بانتصارهم على الروم هو كرد فعل لما حدث فى العالم الإسلامى من تمزق وضعف، وتحديدًا للنشاط الإسلامى.

وفى عهد ملكشاه^(٢)، سلطان السلاجقة الثالث، الذى خلف أباه ألب أرسلان فى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٢م، وعرف بالملك الصياد^(٣)، لهوايته رياضة

(١) آل سلجوق، ص ٣٥ ومابعدا، انظر: Cahen:

La Campagne de Mantzikert d'après Les Sources Musulmanes. Ext de Byzantion, t IX, face 2, Bruxelles, 1934, 214; Ency. de L' Isl. (Art Malâzgerd) 3, p.214

(٢) عنه بالتفصيل، انظر. وفيات الأعيان، ٢ ص ٥٨٦ ومابعدا.

(٣) الراوندى، راحة الصدور، ص ١٣١، ١٣٢.

الصيد، فكان إذا فتح بلاداً أقام فيها أبراجاً من حوافرها وقرونها. فقد أصبحت دولة السلاجقة ذات آمال كبار فى إخضاع المسلمين جميعاً للخلافة العباسية السنية القائمة فى بغداد؛ كوسيلة لإعادة وحدة المسلمين؛ بعد أن تخلصوا من الروم أعداء الإسلام التقليديين، منذ ظهور الإسلام، وهم الذين لم تستطع دول الإسلام قبلهم تحقيقه، ويعتبر انتصاراً لا يدانيه أى انتصار إسلامى سابق. فاستولى السلاجقة على الموصل، وقضوا على سيطرة القبائل العربية فى إقليم الجزيرة^(١)؛ حيث كانت هذه القبائل العربية تساند العناصر الشيعية فى بغداد؛ فى ثورتها على الخلافة العباسية السنية.

كذلك قرر ملكشاه لأخيه تاج الدولة تئش بن ألب أرسلان فتح الشام ومصر، وحتى المغرب^(٢)؛ حيث كانت الشام ومصر تحت حكم خلافة الفاطميين منذ أكثر من قرنين، واعتبر السلاجقة أنفسهم أعداء لها، مثلما كان العداء بينها وبين العباسيين على النفوذ. فقد كان الفاطميون شيعة، ولم يكن الدين عندهم مثلما كان عند السلاجقة هو كل شيء، وإنما كان البشر أيضاً متمثلاً فى الإمام الفاطمى، الذى ظهرت له الهوية المصرية الإقليمية، واشتهر بالخليفة المصرى، ودولته فى مصر بدولة المصريين. وقد زاد الخطر السلجوقى السنى على خلافة الفاطميين من أن أتسز بن أوق - المعروف بالأقسيس - وهو أحد قواد الترك الفاطميين سابقاً؛ وقد أصبح يعمل لحساب تئش هذا، فاستولى أتسز على دمشق، وخطب فيها للخليفة العباسى فى ٤٦٧هـ أو ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م أو ١٠٧٦م^(٣)، ومنع فيها الأذان الشيعى ب(حى على خير العمل)، وفرح أهل دمشق فرحاً عظيماً لرجوع السنة إليها، لتخليصهم من سوء تصرف الولاة الفاطميين فيها، ولدينا نقوش منذ ذلك التاريخ باسم الخلفاء العباسيين^(٤)، فلم يظهر للفاطميين عملة فيها^(٥)، كما سقط بيت المقدس^(٦)، الذى كان فى أيدي

(١) ابن الأثير، الدولة الاتابكية، ص ١٣، ١٧.

(٢) آل سلجوق، ص ٦٥، الكامل، ٨ ص ١٢٦ (وهذا الأخير يقول أقطعه الشام).

(٣) الكامل، ٨ ص ١٢٢. وقيل ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م.

(٤) Répertoire, t7, p. 214.; Van Berchem: Inscr Arabes de Syrie, p. 12 Suiv, 90 أنظر: Suiv'; Ency de L, Isl. (Art Damas) t. I, p. 930.

وأيضاً مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، القسم الأول، نشر حيدر آباد ١٩٥١.

(٥) أنظر: Hist. Of Eg., p. 161, n (1); Lane - Poole.

(٦) ابن القلانسي، ذيل، ص ١٦٦.

الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر. ويعتبر كتاب المؤرخ سبط بن الجوزي المصدر التاريخي، الذي انفرد بأخبار مفصلة عن تحركات السلاجقة نحو بيت المقدس؛ فقد كان للفاطميين فيه نائب سمى السلاجقة نائب المصري. كذلك سقطت حلب التي كانت في أيدي العرب المرادسيين، التابعين للفاطميين أيضاً في أيدي السلاجقة في ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م^(١)، وهي التي هوجمت من قبلهم في عهد السلطان السلجوقي الثاني ألب أرسلان. ويذكر المؤرخون أن مملكة الفاطميين في مصر اضطربت بسبب تغلب أئسز على أكثر بلاد الشام الفوقاني^(٢)؛ بحيث أصبح على حدود مصر، إلا أن الفاطميين تمكنوا من صدّه، وهزم أئسز على يد بدر الدين الجمالي الوزير الفاطمي القوي، فقتل تش أئسز، ربما لسوء سيرته في أهل الشام أيضاً. حقاً تمكن الفاطميون من استرداد بيت المقدس على يد الوزير الأفضل الفاطمي ابن بدر الجمالي، من سقمان الذي كان السلاجقة عينوه عليه بعد قتل أئسز وهو من أسرة الأراتقة^(٣)؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من استرداد دمشق التي دافع عنها تش بنفسه.

ومع ذلك، فإن الدولة الفاطمية في مصر وجنوب الشام الذي تبقى لها بعد استيلاء السلاجقة على شماله وقفت لهم بالمرصاد على أمل استعادتها، تارة بإثارة أهل الشام ضدهم، وتارة أخرى بالحرب؛ بحيث تمكن الفاطميون من استعادة بعض مدن الشام مثل: صور وأفامية. كذلك كانت الإسماعيلية الشرقية أو فرقة الباطنية أو القداوية، وهي فرقة شيعية منشقة على الفاطميين، وذات تنظيم دقيق، تنفذ ما يطلب منها من قتل كبار السلاجقة، وامتد نشاطها إلى أرجاء المشرق الإسلامي والشام والعراق ومصر؛ بحيث إن أتباعها هم الذين قتلوا نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور في ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م^(٤). فكان السلاطين من أبناء ملكشاه يحاربونهم بتخريب قلاعهم.

(١) الكامل، ٨ ص ١١٠، ١٢٣.

(٢) نفسه، ٨ ص ١٢٦. ربما استولى عليها ألب أرسلان في ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م.

(٣) ابن القلانسي، ذيل، ص ٦٠ ابن الصيرفي، الإشارة، ص ٦٠. هم ترك سيطروا في ديار بكر من نهاية القرن ٥ هـ / ١١ م إلى ٩ هـ / ١٥ م، وبرزوا في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي. عنهم بتفصيل: Ency of Isl. (Art Artukides) 2 ed, TI, P. 662 Sq. وبعده.

(٤) آل سلجوقي، ص ٦٨ الكامل، ١٠ ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

عنهم: الشهرستاني، الملل، تحقيق Curton، ص ١٢٠ انظر:

Ency de L'Isl. (Art Ismâiliyya) (2, p. 526

ولكن هذه الدولة السلجوقية الفتية سرعان ما دب فيها ديب الانفصال بعد وفاة ملكشاه في ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م؛ فقد كانت تحمل في أساس نشأتها جرثومة الانحلال؛ إذ كان السلاطين السلاجقة قد جروا على عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم الأمراء على أن يكفلوا تربيتهم إلى قوادهم، الذين يسمونهم بالأتابكة، وهي لفظة تركية مفردا أتابك، ومركبة من كلمة «أنا» بمعنى أب، وكلمة «بك» بمعنى السيد أو الأمير، أى الذى يرى أولاد الملوك^(١) فكان هؤلاء أشبه بالوزراء المستبدين، وسرعان ما ينفردون بالسلطة من دون أسيادهم. فنظام الملك فى كتابه: سياست نامه، من الأفكار التى يشرحها وكان لها أثرها فى دولتهم هى أن السلاجقة يعتبرون الملك الذى ملكوه ملكية خاصة لزعمائهم كباقي الأملاك، ولهذا يقسمونه فيما بينهم "Quota"، دون أى اعتبارات أخرى. كذلك أوجدوا نظاماً جديداً فى عطاء الجند لم يكن معروفاً من قبل على نطاق واسع؛ بجعل هذا الملك إقطاعاً لهم، وإن كان نظامهم الإقطاعى لا يمس الحرية الشخصية، مثلما كان الحال فى أوروبا.

فلما توفى ملكشاه، وترك من الأولاد أربعة^(٢)، انقسمت دولته بينهم فى العراق والجزيرة وإيران وخراسان؛ حيث كان من يحكم هذا الأخير يعتبر السلجوقى الأعظم. هذا فضلاً عن أنهم ومن بعدهم أبنائهم كانوا يتنافسون على السيطرة على الخليفة الضعيف فى بغداد، وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لقب سلطان. يضاف إلى ذلك أن أبناء تُشش ومعهم أتابكتهم كانوا يتنافسون فى الشام^(٣)؛ وأن أعمام ملكشاه وأبنائهم كانوا يتنافسون فى ولايات المشرق بكرمان وبلخ وخوارزم وطخارستان^(٤)؛ كما أن بعض أقارب السلاطين أو الأتابكة كانوا يستقلون ببلاد صغيرة أو كبيرة مبعثرة هنا وهناك، مثل: الموصل وأنطاكية، والرُّها، وأذربيجان، وآسية الصغرى، وغيرها^(٥).



(١) أنظر. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٢٢ وما بعدها.

(٢) آل سلجوق، ص ٧٦. وهم: بركياروق ومحمود ومحمد وسنجر.

(٣) الكامل، ٨ ص ١٨٤؛ النجوم، ٥ ص ١٥٥.

(٤) الكامل، ٨ ص ١١٣. مثلاً: دقاق فى دمشق، ورضوان فى حلب.

(٥) نفسه، ٨ ص ١٠٣. مثل بوران فى الرها، وياغى سنان فى أنطاكية، وكربوقا فى الموصل.

والخلاصة أن الدولة السلجوقية، التي كان يخضع لها مسلمو الشرق، أصبحت بعد ملكشاه عبارة عن دويلات متحاسدة، تخضع لأبناء السلاطين وأقاربهم وأتابكتهم، غمرتها حروب داخلية، وصراعات بين سلاجقة وسلاجقة، وأن الخلافة العباسية بقيت على حالها من الضعف الشديد.

الفصل الثاني

اغتنصاب الأرض العربية على يد الفرنجة

هذا التمزق الذى شغل مسلمى الشرق، جعلهم لا يستطيعون الصمود أمام التدخل الأجنبى، الذى كان يترصد بهم، ويريد الانقضاض عليهم، وجاء من قبل أهل أوربا، الذين عرفوا لهم باسم: الفرنجة أو الإفرنج أو الفرنج^(١) "Francos"؛ نسبة إلى أمة عرفت بهذا الاسم فى أوربا، فأطلقوه على كل أمم أوربا عموماً كما أن حروبهم معهم عرفت لذلك بحركة الفرنج^(٢)، أما هؤلاء فأطلقوا عليها الحروب الصليبية "Cruzada"، أو ماسماها الأوربيون الحديثون فى لغتهم الفرنسية "Croisades"، والإنجليزية "Crusades"، على أساس أنهم مسيحيون يحملون فى رُيهم الصليب "Crux"^(٣)، التزاهى اللون، شارة الخلاص، واعتبرت حركتهم حركة مقدسة من قبل الفرنجة "Gesta Dei per Francos".

وقد اختلف فى تفسير دوافع الحروب الصليبية^(٤)، أو حروب الفرنجة، فمنها ما هو مادي مثل طمع الأوربيين فى خيرات الشرق، أو دينى بالتعصب ضد المسلمين، وبخاصة أن الأوربيين بدأوا يرون ضرورة ضم البلاد التى ظهر فيها المسيح، واعتبارها بلاداً مسيحية؛ كما أن هذه الحروب اعتبرت تكفيراً للخطيئة. وفى رأينا أن السبب الرئيسى لهذه الحروب، هو أن ميزان القوى بين الشرق

(١) معجم البلدان، ١ ص ٢٩٩، ٣٠٠. يقول إنهم نسبة إلى جد اسمه أفرنجش.

(٢) النجوم، ٥ ص ١٤٦ ص ٣.

(٣) انظر: Gesta Francorum, transl. into English by Somerset. England, 1945, p. 12, 15;

(٤) انظر: Alphandry et Dupont La Chrétienté et L'idée de Croisade. Les Premières Croisades. Paris, 1954;

Bloomington: Crusade, Commerce and Culture, 1962. P. 152qq;

Ency. of Isl. (Art Crusades), 2ed, t2, P. 63 Sqq.

والغرب قد تغيرَ بضعف المسلمين وتمزق وحدتهم؛ كمظهر من مظاهر الصراع
البشرى؛ إذ كان مقدمة لما عرف في التاريخ الحديث بالمسألة الشرقية: "La Ques-
tion d'Orient"

ومع ذلك، فهذه الحروب الصليبية قد أنت في مظهرها الأول بسبب الحج
المسيحي "Passagium"، وهو الحج إلى الأماكن المتصلة بذكريات المسيحية في
فلسطين، وبخاصة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس، وهي تسمية عربية الأصل
عرفت في وقت الصليبيين، وسموها «Jerusalem» وتعني الطهارة أو القداسة أو
بيت الله^(١)، أو حتى المكان المرتفع. ومع ذلك فلإنها في وقت الفتح العربي،
غلبت عليها تسمية أخرى هي إيلياء، واعتبرت عاصمة لفلسطين، وإن كانت هذه
التسمية رومانية الأصل، نسبة إلى عائلته "Aelia" العريقة، التي ينتمي إليها
الإمبراطور الروماني هادريان "Hadrianus" (٣٧ - ١٣٨م): تمجيدها له. كذلك
كانت لها تسميات أخرى في اللغة العبرية، منقولة عن أصل عربي، أشهرها
أورشليم أو "Urishlem"، التي اتخذها اليهود عاصمة لهم في أيام نبيهم سليمان
"Soloman"، وهي محرفة عن سالم؛ نسبة للملك سالم اليوسى، مؤسس
مملكة اليوسيين الكنعانية العربية الأصل، التي قضى عليها نبي يهودى آخر وهو
داود، حتى أنه كان أطلق اسمه عليها: مدينة داود؛ فكل تسمياتها إذن من أصل
عربي أو آرامي أو كنعاني أو عبري محرف عنها.

ويدعونا هذا إلى أن نتكلم عن الحج المسيحي بالتفصيل، وليس لدينا ما
يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة عنه، أو أنه فرض ديني كما هو عند
المسلمين. و يظهر أنه بدأت تظهر له شعائر بقيام الدولة البيزنطية - الروم - التي
ورثت الرومان في الشرق، وأخذت بدين المسيح، ودانت بتعظيمه، واعتبرته
إمبراطورها "Christos Basilieus". فيروى المؤرخون - ومنهم العرب - أن هيلانه
"Helena"، أم قسطنطين "Constantinus" الأكبر، أول إمبراطور لهذه الدولة
المسيحية، ارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة، التي صلب عليها المسيح، وكانت
فيها رقدته الأخيرة، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض، وألقيت
عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة وبنيت مكانها كنيسة، بناها

(١) وليام الصوري، ترجمة، ٢ ص ٨؛ معجم البلدان، ١ ص ٣٩٢ - ٣٩٤، ٨ ص ١١٠ وما بعدها؛ انظر:
Ency, de l'Isrl, (art Kuds)2ed, V, P. 322 Sqq.

الأسقف مكسيموس "Maximus"^(١)، بأمر من قسطنطين الأكبر، عرفت باسم: كنيسة القيامة المبجلة، أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة. ثم بنى البيزنطيون كنيسة أخرى في بيت لحم المجاور للقدس على المكان الذي ولد فيه المسيح^(٢). فكان المسيحيون يذهبون إلى القدس لزيارة هذه الأماكن المقدسة؛ وأصبحت لهم مزاراً أشبه بالكعبة للمسلمين. وقد منعت غزوات الفرس للشرق الزيارات، وحين استرجع هرقل "Heraclius" - إمبراطور بيزنطة - الشام منهم في ٦٢٢م^(٣)، عاد النصارى للحج زرافات.

ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين، صمم أسقف بيت المقدس اليوناني واسمه سفرونيوس "Sophronius"، على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر ابن الخطاب نفسه، على أن يمنح النصارى الأمان لدينهم وكنائسهم. فقبل الخليفة طوعاً، وقدم إلى فلسطين في سنة ١٧ هـ / ٦٣٨م، وهو راكب بعيراً أحمر، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء، ودخل القدس، التي سلمها إليه الأسقف، ومنح عمر أهلها النصارى الأمان على دمايتهم وأموالهم وكنائسهم، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود، وامتنع من أن يصلى في كنيسة القيامة، وصلى خارجها على سلامها، حتى لا يحولها المسلمون إلى مصلى^(٤)، ويذكر وليام (وليم) الصوري في كتابه عن الحرب الصليبية أو تاريخه الكبير نقلاً عن مؤلف مجهول عاصر الحروب الصليبية في كتابه^(٥): "Gesta Francorum et Hierosolymitanorum Aliorum" أن الخليفة عمر أمر بإعادة بناء الهيكل فيها، وكانت بقيت منه أطلال، ورصد له قدرًا كبيرًا من المال، وجلب لبنائه العمال، وحمل إليه عن طيب خاطر شتى مواد البناء اللازمة من الرخام والخشب، حتى استوى على الصورة التي رآها؛ كما أوقف الخليفة عمر على الهيكل كثيرًا من الأملاك، وزوده بمصابيح لا تنطفئ؛ وأنه في وقته رمت كنائس كثيرة أخرى بما فيها كنائس مصر.

وكان من استمرار العداء بين العرب والروم في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم الأمويين، أن توقف الحج المسيحي إلى هذه الأماكن من خارج أرض

(١) ولیم، ص ٧. توجد مدينة قدس بالأردن، وهي ليست بيت المقدس؛ انظر:

اليقوي، البلدان، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م، ص ٩٨ - ٩٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢.

(٣) المسعودي، التنبيه، ص ١٤٧.

(٤) سعيد بن بطريق، ص ١٧، اليقوي، تاريخ، تحقيق Houtsma، ط. Lug - Bat.، ١٨٩٣،

ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٥) انظر. ولیم، ترجمة، ١ ص ٦٦.

الإسلام. ولما قامت الدولة العباسية، أخذ الحج المسيحي يزداد وبخاصة بالنسبة لسكان أوربا، الذين كانوا قد تحولوا الى المسيحية؛ وذلك لأن العباسيين فى عهد هرون الرشيد، كانوا على علاقة طيبة بأكبر دولة للفرنجية، وهى دولة شارلمان، وتبادل السفراء بينهما حاملين الهدايا. ويذكر مؤرخو الفرنجة وحدهم أن هرون الرشيد، جعل للإمبراطور شارلمان، حق الإشراف المعنوى على بيت المقدس، وأنه أرسل له جملة هدايا، منها مفاتيح كنيسة القيامة^(١)، وأنه جعل هذا المكان المسيحي من أملاكه؛ حتى كان النصارى فى فلسطين قد أصبحوا وهم يعيشون فى ظل ملكهم شارلمان؛ كما يقول وليام (وليم) الصورى^(٢)؛ وأن السلام قد رفرِف فى عهد هرون بجناحيه، وأن هرون جدير بكل ثناء. ولهذا ازداد اهتمام أهل أوربا بالحج؛ إلى بيت المقدس، وبدأت تظهر تقاليد بينهم؛ كما ظهرت بين مسيحي الشرق؛ بحيث إنهم بنوا فى بيت المقدس نزلاً وأديرة؛ وأن هيئات خاصة، أشهرها جماعة الكلونيين، التى نقلت نظام الرهبنة من مصر؛ كانت تحرض الأوربيين على زيارة الأماكن المقدسة. كذلك كانت بيزنطة من ناحيتها، تسهّل مهمة حجاج أوربا، ولاسيما أن الدولة العباسية؛ جنحت نحو السلم مع الروم، وتركت جهادهم^(٣). غير أنه منذ أن حرم البابا فى روما بطريرك القسطنطينية - بيزنطة - ووقف منه موقف عداء ظاهر، وقف البيزنطيون موقف العداء من حجاج أوربا؛ وإن كان هؤلاء غالباً ما يأتون من بلادهم إلى الأراضى المقدسة عن طريق البحر مباشرة. فكان تسامح خلفاء العباسيين مع المسيحيين السبب فى استمرار الحج المسيحي.

ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى مصر، وكانت أعظم دولة فى وقتها، وتستند إلى أيديولوجية مذهبية تختلف عن أيديولوجية مذهب العباسيين، فهم شيعة والعباسيون سنة، استولوا على الشام من ولاية العباسيين، وتوقف الحج

(١) نفسه، ص ٦٨؛ انظر. ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص ١٣٤.

(٢) وليم الصورى، ترجمة، ١ ص ٦٧.

(٣) ابن صاعد، ص ١٤٨؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٠.

المسيحي إلى بيت المقدس؛ بسبب العداء بين الروم والفاطمين، ولاسيما أنه في ذلك الوقت كانت تحرك ملوك الروم دوافع صليبية^(١)، دفعتهم إلى السعى في استعادة الأراضي المقدسة، ولعله السبب الأول في غزو الفاطمين للشام في أول قيام دولتهم.

وقد بلغ العداء أقصاه حينما أصدر الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي الثالث في مصر، أمره بهدم كنيسة القيامة^(٢)، ولدنا نص الأمر بذلك؛ فقد أصدر سجلاً إلى واليه على القدس، كتبه أحد أقباط مصر، جاء فيه^(٣): «أمر الإمام إليك بهدم قمامة، فاجعل سماءها أرضاً، وطولها عرضاً؛ فهدمت بعض أجزائها، ويقول وليم (وليام) الصوري؛ إنه سوى البناء بالأرض^(٤). ويبدو أن الحاكم بأمر الله لم يهدمها بقصد وقف الحج المسيحي، بل لأن أمنية الروم الأولى قد أصبحت الوصول إلى بيت المقدس. وقيل أيضاً أن السبب جاء من أنه في أثناء صلاتهم، وترديدهم: كيرالييسون "Kyrie elison" - اللهم رحمتك - كانوا يطلقون فجأة في السماء ناراً، ويعطرونها عطرًا خاصاً، مظهرين أنها نور ينزل من السماء، لكي يقنعوا المسلمين بحقيقة دينهم^(٥)، ولاسيما أن تسامح العزيز بالله - والد الحاكم بأمر الله، الذي صاهر أسقف بيت المقدس - جعل النصراري يتمادون في إظهار شعائر دينهم. ويقوى من هذا السبب، هو أن الحاكم بأمر الله في الواقع لم يهدم غير هذه الكنيسة؛ فلدينا سجل بمنح الأمان لبقية كنائس بيت المقدس. كذلك قيل إن سبب هدمها، أن ملك القسطنطينية هدم جامع المسلمين فيها^(٦)؛ المسمى: جامع القسطنطينية، فعمل الحاكم بأمر الله على هدمها على سبيل الانتقام. ومع ذلك فترجح أن السبب الرئيسي في هدمها؛ هو رغبة الروم في

(١) بتفصيل، انظر. ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية ومقوطها في مصر، الطبعة الرابعة.

(٢) يحيى الأنطاكي، ص ٤٩١ - ٤٩٢ (٢٨٣ - ٢٨٤)، انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٩٩، ١٠٠.

(٣) الكامل، ص ٧، ٢٤٠؛ يحيى الأنطاكي، ص ٢٣ - ٢٣١؛ انظر: عنان، الحاكم، ص ٦٩؛ ماجد، الحاكم، ص ١٠٠.

(٤) الحروب الصليبية، ترجمة حبشي، ١ ص ٧.

(٥) ابن القلائس، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٦٧، انظر.

De Sacy: Druzes, cccxxvi - II

(٦) الخطط، ص ٢، ١٦٩ س ٩.

الاستيلاء على بيت المقدس - كما ذكرنا - ولاسيما أن الحاكم فى الوقت ذاته أرغم جالية الروم الخروج من مصر ولعلمهم من النصارى الذين كانوا على عقيدة الروم ذاتها، وهى عقيدة غير عقيدة القبط ؛ حيث كان بعض الروم يعملون فى قصره، وكانت لهم حارة خاصة فى القاهرة^(١)؛ وإن سمح لهم - على الرغم من عداوة الروم - بالانتقال إلى بلادهم بكل ما يملكون^(٢)؛ كما أن بعض نصارى بيت المقدس، من غير العرب، هاجروا أيضاً إلى بلاد الروم^(٣)، وتوقفت الزيارات.

ولقد أثار هدم الحاكم لكنيسة القيامة غضب النصرانية عموماً، وإن أسرع الروم بالتودد إلى الحاكم وخلفه^(٤)؛ مما أوجد ميلاً إلى الاعتقاد بأن إعادة بناء كنيسة القيامة قد تم فى عهد الحاكم، أو ابنه الظاهر الذى جدد الاتفاقية، التى كانت بين الحاكم والملك الرومى باسيل الثانى "Basilios II"؛ كما جدد الروابط الودية مع خلفه الملك رومانوس الثالث أرجيروس "Romanus III Argyrus"^(٥). كذلك أرسل ملك الروم ميخائيل الرابع البفلاجونى - Michael IV Paphlagoni^(٦)، المعاصر للمستنصر بن الظاهر؛ مهندسيه لإصلاح كنيسة القيامة. وعلى كل حال عاد النصارى من الروم والفرنجية إلى زيارة بيت المقدس، ويشيد وليام الصورى^(٧)؛ بما نعم به النصارى فى أيام الفاطميين، من معيشة راضية بين المسلمين، مثلما كانوا فى عهدى عمر وهرون من قبل.

(١) نفسه، ص ١١٢ يحيى الأنطاكي، ص ٢٢١ (فى آخر الصفحة).

(٢) يحيى الأنطاكي، ص ٢٠٧؛ انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠١.

(٣) يحيى الأنطاكي، ص ٥١٩ (٣١١)؛ انظر. أسد رستم، ص ٦٤.

(٤) النجوم (ط. دار الكتب)؛ ٤ ص ١٩٢؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٣٣.

(٥) وليم (وليام) الصورى، ترجمة، ص ٧٣؛ يحيى الأنطاكي، ص ٢٤٣؛ Cedrenus:

Synopsis Historiae Copus Scriptionum Historiae byzantinae, ed. Bekker (C.S.H.B.), 1838 - 9, 11, p. 259 - 260. الروم، ص ٦٤.

(٦) الكامل، ٨ ص ١٦؛ Dolger:

Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches. Berlin - Munich, 1924, 834 -

843. أسد رستم؛ الروم، ص ٦٥.

(٧) وليم الصورى، ترجمة، ١ ص ٧٥.

ولكن لما هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين في الشام، ساءت أحوال نصارى بيت المقدس، وتوقفت الزيارات إليه؛ لأنهم حينما عملوا على أخذه من الفاطميين، وهاجمه القائد التركي المسمى أئسز أو الأقيسيس^(١)، من قبل تُتَش أخى السلطان ملكشاه السلجوقي، نهبه وقتل كثيراً من أهله، حتى من التجأ منهم إلى المسجد الأقصى، مما أغضب تُتَش على أئسز وقتله، وولى غيره واسمه سكمان أو سقمان. غير أن الفاطميين عادوا بعسكر من مصر، لاسترداد بيت المقدس من السلاجقة، بقيادة وزيرهم الأفضل - وهو لقبه - في سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م؛ وذلك بمعاونة أهله، وأنبأوا فيه رجلاً من قبلهم عرف بافتخار الدولة مع حامية مصرية؛ بقيت فيه إلى وقت مجيء الصليبيين^(٢).

ومهما يكن؛ فإن فرنجية أوروبا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين في الشرق. فكلف البابا إربانوس الثاني "Irbanus II" - إربان - (١٠٨٨ - ١٠٩٩م)؛ رجل الدين الفرنسي بطرس الناسك أو الراهب "Pierre L'Ermite"^(٣) (١٠٥٠ - ١١١٥م)، بالدعوة إلى حرب المسلمين؛ لتخليص الأماكن المقدسة للنصارى منهم، وكان من قبل رار القبر في وقت سيطرة السلاجقة عليه، وقال إنه رأى السيد المسيح الذي قال له: «لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة»^(٤)، بحيث اعتبرت أوروبا المسلمين العدو الأول لها.

(١) الكامل، ٨ ص ١١٠، ١٢٦، ١٨٩. نفى كثير من المؤرخين، ومن بينهم نصارى، تعصب السلاجقة ضد النصارى، فمثلاً كانوا يعفون كنائس هؤلاء من الضرائب؛ انظر.

Dulaurier.Paris, Chronique de Mathieu d'Edesse, continuée par Gregoire Le Prêtre, trad. 1858, pp. 156, 201;

Osman Turan : Les Souverains Seljoukides et Leurs Sujets Non Musulmans. Studia: Islamica. Paris, 1953, p. 65 - 100.

(٢) الكامل، ٨ ص ١٨٩؛ النجوم، ٥ ص ١٤٨؛ وبعده.

(٣) انظر. . Hagenmeyer

La Vrai et le Faux sur Pierre L' Ermite, trad Rynaud, Paris, 1885.

قيل في سبب حقه على المسلمين؛ هو ما قاساه على أيدي الأتراك في بيت المقدس.

(٤) وليام، ترجمة، ص ٤.

وهكذا خرجت الدعوة من فرنسا لحرب المسلمين؛ إذ إنها لم تكن قد نسيت غارات المسلمين في أراضيها وقت فتحهم الأندلس، وأنها هي التي دافعت عن المسيحية في الموقعة المعروفة عند المسلمين باسم بلاط الشهداء، لكثرة من سقط من قتلى المسلمين؛ بمن فيهم قائدهم عبد الرحمن الغافقي في سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م. فعقد البابا في كلير مون فران "Clermont Ferrand - أكليرمنت - بجنوب فرنسا مؤتمراً في عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، اجتمع فيه الفرنجة من جميع مناطق أوروبا، وخطب فيه كل من البابا وبطرس حاضين على حرب المسلمين، فقال البابا في خطابه^(١): «إنه من الواجب على النصارى أن يحرموا أرواحهم بالذهاب في طريق المسيح، وإذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم»، وقال بطرس الراهب: «إنني نظرت قبر المسيح محتقراً ومهاناً، وزواره مضطهدين. فصرخ الحاضرون بالحرب، وهم يرددون: الله يريد ذلك Diex Le Volt - Dieu Le Veut - وهي العبارة التي أصبحت صرخة المسيحية في حرب المسلمين.

وقد كان أول أفواج من الصليبيين أغلبهم من الفقراء - فقراء المسيح Pauper Christi - - جاءوا من كل مكان من أوروبا، يقودهم بطرس الراهب^(٢)؛ حيث تحركوا بحشودهم الزاحفة عبر وسط أوروبا في الطريق ذاتها التي سار فيها من قبل الإمبراطور قسطنطين الأكبر، بعد تحوله إلى المسيحية. فقتلوا اليهود في طريقهم، ولكي يحصلوا على مايمسك رمقهم كانوا يسلبون وينهبون. ويصف لنا المؤرخون اليونان وغيرهم، هذه الموجة الصليبية المتعصبة؛ بأنها تتكون من جماعات من الأفاقيين، الذين لا يستحقون مشاهدة قبر المسيح. فلما وصلوا إلى أسوار القسطنطينية في ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م، نصحبهم ملكها إلخسيوس كومنينوس "Alexius Comnenus"؛ بالآ يتسرعوا في العبور إلى آسية الصغرى. ويظهر ذلك في قصائد أناكومنينوس "Anna Comnenus"، ابنة هذا الملك، وكانت شاعرة، وبخاصة في قصيدتها المسماة: "Alexiadis"، حيث يظهر احتقارها للمتبربين الفرنجة، الذين أساءوا التصرف وأحرقوا القصور، ونهبوا الكنائس في القسطنطينية

(١) وليام، ترجمة، ١ ص ٩٤.

(٢) عن خطابه، انظر. بتفصيل مقالة أحد المعاصرين:

The First Crusade, The Account Of Eyewitness and Participants, reprinted. Gloucester, 1958.

(٣) أنظر. Gesta, p. 12 - 13.

ذاتها . فأمرهم الملك بالرحيل مباشرة نحو الشرق، ولاسيما أنه خاف من أن تسخط عليه أوربا من منعهم؛ كما كان يسره بطبيعة الحال أن يحاربوا الأتراك السلاجقة، الذين احتلوا أجزاء من بلاده في آسية الصغرى؛ منذ انتصارهم في موقعة ملاذكرد. وتروى مصادر الفرنجة أن السلاجقة قاتلوهم بقيادة شخص اسمه سليمان "Solimanus"، الذي لا يمكن أن يكون سليمان بن قتلمش^(١)، مؤسس أمارتهم في آسية الصغرى، - وكان قتله تُنشأ أخى ملكشاه حاكم الشام في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م - كما حارب سليمان الروم واستولى على أنطاكية منهم، حتى لدينا إشادة بهذا الفتح^(٢)؛ وأشبهوه بالانتصار في موقعة ملاذكرد، وخلفه ابنه المسمى قلج أرسلان، أى سيف الأسد^(٣). وقد انتصر الترك السلاجقة على الصليبيين، وأحرقوا من هرب منهم فى الغابات، أو ألقوا بهم فى البحر؛ واضطر بطرس الراهب قائدهم إلى النجاة بنفسه. ولا يعتبر المؤرخون الحديثون هذه الحملة، حملة صليبية بالمعنى الصحيح، بل هى تمهيد للحملة الصليبية الأولى.

وفى الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة^(٤)، معظمها من فرسان الفرنجة، وكانت أكثر تنظيمًا من السابقة، ولذلك أصبح خطرها شديدًا على المسلمين، واعتبرها المؤرخون الحديثون الحملة الصليبية الأولى. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون؛ ارتبط اسمهم بهذه الحملة، مثل: الأخوين جود فروى الملقَّب دى بويون "Godefroi de Bouillon" - يسميه العرب فى كتبهم كندفرى أو كندهرى - وأخيه بودوان أو بلدوين "Baudouin" (أو Baldwin)؛ الملقَّب دى بولونيا de Boulogne - ويسميه العرب: بغدوين أو بردويل - وقد جاء الاثنان من فرنسا على رأس أهل اللورين "Les Lorrains"، وكذا القائد ريموند "Les Pro-vencaux Raymond IV de Saint Gilles"، الذى جاء على رأس أهل اليروفنس، ثم هوخ "Hugues" أخو الملك الفرنسى، الذى قاد أهل غالة؛ أما الملك نفسه وهو فيليب الأول "Philippe I^{er}" (١٠٦٠ - ١١٠٨ م)؛ فلم يأت لأنه كان قد حرم من البابا، الذى كانت له سيطرة على ملوك أوربا، ثم بوهيموند "Bohemond" -

(١) عنه: وفيات الأعيان، ١ ص ٧١.

(٢) ابن القلانسى، ذيل، ص ١٩٠.

(٣) انظر: Ency. De l'sl. (Art Kilidj Arslán) t2, p. 1065.

(٤) انظر: Gesta, 14Sqq؛ وأيضًا ماأورده: الكامل، ٨ ص ١٨٥ ومابعدها.

يسميه العرب بيمينت أو ييمند - وهو الذى جاء على رأس النورمان من إيطاليا، ومعه ابن أخيه تانكريد "Tancrid" أو Tangrid - يسميه العرب طنكرى - الذى وجد فى دعوة البابوية طموحه. ويبدو من هذا التجمع الجديد أن الحملة لم يكن لها رئيس؛ وإن وصف جود فروى بأنه رعيمها، ووصف بأنه رجل طويل، وشعره أشقر، ويقال فى مصادر الفرنجة: أن الطيبة كانت بادية على وجهه.

وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة، نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق جبال الألب ونهر البو، أو عن طريق وسط أوروبا من ألمانيا وهنغاريا، أو عن طريق البحر الأدرياتي. فلما وصلوا إلى القسطنطينية فى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م؛ لعبروا بحر مرمرة - وهو الخليج المجاور له^(١) - إلى بلاد الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى، لم يمكنهم الكيسوس من العبور، وطلب منهم البقاء فى ضواحي القسطنطينية؛ حتى يحلفوا له يمين الولاء. وربما كان الكيسوس يفكر أن الفرنجة قد يستعيدون له بعض الأراضى التى أخذها السلاجقة، أو أى بلد كان فى يد الروم سابقاً؛ وأنه يسمح لهم بأن يحكموها باسمه. وعلى الرغم من أن الفرنجة لم تعجبهم هذه المساومة من الكيسوس، فإنهم حلفوا له يمين الولاء، وأقسموا له بالكذب المقدسة على ذلك^(٢)؛ إذ كان هدفهم قتال المسلمين قبل كل شيء^(٣). وليطمئن الكيسوس على خطته؛ أصبحت جيش الفرنجة جيشاً بيزنطياً بقيادة تاتيكيوس "Tatikios"؛ ووعدهم بأن يلحق بهم بقوة كبيرة من جيشه.

فلما وصل هذا الزحف الصليبي إلى آسيا الصغرى، حارب الصليبيون الترك السلاجقة فيها. فأول مكان هاجموا نيقية أو أنيقية "Nicaea"^(٤)، بلدة من أعمال إسطنبول، تقع على بحيرة، كانت لقلج أرسلان، وكان حصارها أشبه بحصار

(١) عنها، انظر: معجم البلدان، ٣ ص ٤٦٠، ٤ ص ٣٢٨

(٢) ولیم، ترجمة، ٢ ص ٥٨.

(٣) انظر: Gesta, p. 15 - 20؛ انظر: إشارة ابن الأثير لاختلافهم. (الكامل، ٨ ص ١٨٦ من ٥).

(٤) انظر Ibid, P. 21 - 24؛ النجوم، ٥ ص ١٤٦؛ معجم البلدان، ٨ ص ٣٦٠؛ انظر. Ency de l'isl. (Art lznfk) 12p. 600

الطرواديين؛ بحيث إن الصليبيين جاءوا بسفن جروها من القسطنطينية بالثيران. وقد حاول الترك السلاجقة استنقاذها على غير جدوى؛ إذ لم ينقطع وصول الإمدادات براً وبحراً، وكانت كثيرة. وبعد أكثر من سبعة أسابيع قرر الترك تسليمها إلى ملك بيزنطة، من دون الفرنجة؛ مما يبين استمرار النزاع بين البيزنطيين والفرنجة. فقبل ملك الروم ذلك منهم في رجب من سنة ٤٩٠هـ / يونية ١٠٩٧م، وحمل الأسرى إلى القسطنطينية؛ وقد بقيت نيقية في أيدي البيزنطيين إلى وقت مجيء الأتراك العثمانيين.

وكان أول نصر للفرنجة في سهل درولييه (Dorylée) ("Dorylaeum" - قرب إسكى ششهر - التي انتصر فيها جودفروي، وقتل قلع أرسلان، أميز السلاجقة سابق الذكر، ونجد أن مؤلف أعمال الفرنجة Gesta Francorum - وهو مجهول - يتكلم عن شجاعة الترك السلاجقة، ومقاومتهم الشديدة للصليبيين. وبالانتصار الفرنجي فيها؛ فتح طريق فروجه "Phrygie" وغيرها، ولاسيما أنه قد سهل زحفهم فيها؛ وصولهم إلى بلاد الأرمن المسيحية^(١).

وبعدها توقف الفرنجة أمام أنطاكية العظيمة لحصانتها^(٢)؛ فقد كانت محصنة طبيعياً بالجبال وبأسوار وبروج وحصون متقدمة، ولأن جماعات مسلمة من مدن عديدة خرجت لنصرتها من: حلب ودمشق والقدس. وبعد أن حاصرها الصليبيون مدة تسعة أشهر، بنوا أمامها قلعة، جمعوا حجارتها من قبور الموتى، استولوا عليها من صاحبها التركي ياغيسيان أو ياغي سيان - سماه الأوروبيون Cassian - في جمادى الأولى سنة ٤٩١هـ / مارس ١٠٩٨م؛ وذلك بفضل خدعة رجل اسمه فيرور أو زرد، وهو أرمني كان قد أسلم، وكان يدافع مع المقاتلين المسلمين في أحد بروجها، فسلم البرج للصليبيين؛ مما جعل بقية البروج الأخرى تتداعى. وقد

(١) عنها: انظر: معجم البلدان، ٤ ص ٥٧.

(٢) الكامل، ٨ ص ١٨٥-١٨٦؛ Gesta, p. 34 Sqq.

هرب الأمير السلجوقي، أو أنه قُتل وأخذت رأسه إلى الفرنجة؛ كما يقول ابن الأثير، فلما دخلوها ذبحوا معظم أهلها المسلمين؛ بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث^(١). ومع أن سلاجقة الشام وبلاد الجزيرة، ومعهم العرب، ساروا لاستعادتها؛ بقيادة كربوقا أو كربوغا التركي أمير الموصل، وكادوا يستولون عليها، وبات الفرنجة فيها محاصرين وليس لهم ما يأكلونه؛ إلا أن تكبر كربوقا، وانقسام القواد، أضاع هذه الفرصة، وأدى إلى انهزام المسلمين هزيمة منكرة^(٢)؛ وكان الفضل في انتصار الفرنجة في أنطاكية، يرجع إلى النورمان على الخصوص.

في ذلك الوقت، حاول الفاطميون في مصر وقف زحف الصليبيين، بعد أن عجز السلاجقة عن صدهم، بالدخول في مفاوضات معهم^(٣). ولا نصدق ما قيل من أن الفاطميين؛ خانوا المسلمين، أو أنهم هم الذين استدعوا الصليبيين إلى الشام؛ ليستعينوا بهم ضد السلاجقة أعدائهم؛ ومن الغريب أن بعض المؤرخين الحديثين يؤيدون ذلك^(٤). ولكن ينفي هذا الرأي أننا رأينا؛ كيف كان الفاطميون دائماً حماة الإسلام؛ فاستماتوا في الدفاع عنه؛ حينما هاجم الروم في الشام، ثم إن ابن الأثير صاحب هذه الرواية، وهو من بلاد الجزيرة في شمال العراق، هو نفسه يتشكك فيها، ويقول: «والله أعلم»^(٥).

والواقع أن قبول الفاطميين للتفاوض مع الفرنجة تبين موضوعيتهم في معالجتهم للمشكلات الخطيرة. ففي أثناء حصار الفرنجة لأنطاكية العظمى، كان الأمل كبيراً في صمود السلاجقة، الذين كانوا حتى وقتذاك موضع ثقة المسلمين؛ بسبب انتصاراتهم الباهرة والحاسمة على الروم؛ إلا أنه بسبب انقسامهم وتحاسدهم

(١) أنظر . Gesta, p. 51.

(٢) أنظر . Ibid, p. 53، الكامل، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) هذا من أقوال الصليبيين. ولهم الصوري، ترجمة، ص ٣٠٥.

(٤) مثلاً: مؤنس، نور الدين محمود، ص ٩٨ - ٩٩؛ عاشور، الحركة الصليبية، ١ ص ١٩٧. هذا الأخير يستند في معظم مصادره إلى مراجع حديثة.

(٥) الكامل، ص ١٨٦ ص ٤٣.

سقطت أنطاكية فى أيدي الصليبيين؛ حيث تذكر المصادر الأفرنجية^(١) وحدها أن الفاطميين فى أثناء حصار أنطاكية سعوا إلى التفاوض مع الفرنجة، وقبلوا أن يأتى وفد منهم إلى القاهرة. ومع ذلك بقى وفدهم لمدة عام مهملًا من قبل الفاطميين. ولكن الفاطميين لما سقطت أنطاكية فى أيدي الفرنجة؛ فإنهم أعادوا الوفد الفرنجى إلى أنطاكية؛ وأصبحوهم رسلاً من قبلهم، بعرض مؤداه^(٢): أن يَسمح للحجاج غير المسلمين من الفرنجة وحدهم بزيارة بيت المقدس، ويكونون فى أفواج، وكل زمرة منهم لا تتعدى المائتين أو الثلاث مائة؛ على أن يضمن الفاطميون سلامتهم فى كل مرة. ولكن الفرنجة اعتبرت عرض الفاطميين لهم إهانة كبرى؛ بعد انتصارهم العظيم فى أنطاكية، وأعلنوا أنهم لن يقبلوا الذهاب إلى القدس فى فئات، وسوف يدخلونها بحد سيوفهم، ويستولون عليها، وعلى بلاد الفاطميين أيضاً.

ولو أيدت المصادر الأفرنجية وحدها وقوع هذه المفاوضات الفاطمية مع الصليبيين؛ فيحتمل أن تكون بالأولى مع الروم وليس مع اللاتين، وكانت عادية فى السياسة الفاطمية الذين عقدوا معهم هدنات من قبل؛ مثلما حدث فى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله؛ كما ذكرنا؛ كما لم يكن فى بال الروم وقتذاك؛ استعادة بيت المقدس، أو كان لهم خطباء يدعون لحرب المسلمين. وعلى العكس كانت من مراسيم البلاط البيزنطى "De Ceremonis"؛ أن يحتل العرب على مائدة الإمبراطور البيزنطى مقاعد أعلى من مقاعد الفرنجة. . فهذه المفاوضات بين الفاطميين والروم، حتى إذا كانت صحيحة؛ فإنها أصبحت فى مصلحة المسلمين؛ لأنها جعلت المعسكر المسيحى ينقسم على نفسه، مع أنه كاد يتوحد بغزو الصليبيين للشرق العربى.

ويؤكد على ذلك أنه لما احتل الفرنجة أنطاكية العظمى، فإنهم ولوا عليها بطريركاً، وذلك بناء على اتفاقهم السابق مع الكسيوس البيزنطى^(٣)؛ إلا أنهم عزلوا البطريرك البيزنطى بسبب تفاوض الروم مع الفاطميين، واتهموا الروم بالخيانة^(٤)، وأجبروا جيش الروم الذى أرسله يوحنا الثانى^(٥) كالوجوهانيز JoanII

(١) وليم الصورى، ترجمة عربية، ٢ ص ٥٦.

(٢) نفسه، ٢ ص ٥٧.

(٣) نفسه، ٣ ص ١٣٥.

(٤) نفسه، ٢ ص ١٥٨ - 72. Gestu, P. 71

(٥) نفسه، ٣ ص ١٣٤.

"Calajahannes ، خلف الكسيوس، على الرجسوع إلى القسطنطينية^(١)، وذلك بعد وفاته، وتولى مانويل الأول "Manuel II" بعده. وكان يوحنا الثانى هذا قد بسط نفوذه على القلاع والمدن التى استولى عليها الفرنجة^(٢)، ودخل بجيشه أنطاكية^(٣)، وأصبح يقاتل الفرنجة بنفسه^(٤)؛ بحيث انشغل الصليبيون به عن المسلمين؛ إذ كان يعتبر أن ما استولى عليه من الفرنجة هو أمانة فى عنقهم ليردوها للروم؛ وحلفوا للكسيوس بالآيمان المغلظة على ذلك^(٥)؛ فكان الفرنجة بسبب هذا التفاوض مع الفاطميين يسمون الروم بالإغريق^(٦)؛ كناية عن أن إيمانهم بالمسيحية ليس فى درجة إيمان الفرنجة.

وفى الوقت ذاته، تذكر المصادر الإفرنجية أيضاً استعدادات الفاطميين الحربية للدفاع عن بيت المقدس، وتصميمهم على وقف الزحف الصليبي، فعمدوا إلى تقوية تحصينات القدس، والمدن التى حولها^(٧). وعلى عجل أمر الوزير الأفضل الفاطمى بإصلاح أبراج المدينة وأسوارها، وترميم ما يحتاج منها إلى ترميم، كما طمَّ ينابيع المياه فى الآبار؛ وفى مصانع الماء التى تتجمع فيها الأمطار، لحرمان المهاجمين من الماء؛ بينما خُزنت المياه لأهل المدينة^(٨). كذلك حشد الأفضل المقاتلين الشجعان^(٩)، المزودين بأحسن السلاح، والسماح للمتطوعة بالتوافد على القدس للدفاع عنها^(١٠)؛ وتحرك الأسطول المصرى من عسقلان، وهو الميناء الهام فى فلسطين، للإيقاع بالسفن الصليبية^(١١). وقد اجتمع أهل القدس للتشاور فى ساحة المسجد الأقصى^(١٢): فأفتى بعضهم بهدم كنيسة القيامة، المقامة على قبر

(١) نفسه، ٣ ص ١٦٤.

(٢) نفسه، ٣ ص ١٥٩.

(٣) نفسه، ٣ ص ١٦٤.

(٤) نفسه، ٣ ص ١٦٧.

(٥) نفسه، ٣ ص ٣٥.

(٦) نفسه، ٣ ص ١٦٧.

(٧) نفسه، ٢ ص ٦٧.

(٨) نفسه، ٢ ص ٩٣.

(٩) نفسه، ٢ ص ٩٤.

(١٠) نفسه، ٢ ص ٩٥.

(١١) نفسه، ٢ ص ١٠٦.

(١٢) نفسه، ٢ ص ٦٨.

المسيح، مثلما فعل من قبل الحاكم بأمر الله، ولكنهم وجدوا أن ذلك ربما يزيد من عناد الفرنجة في حربهم^(١).

وعلى كل حال، تولى أمر أنطاكية العظمى بوهيمند "Bohemond" النورمانى - يسميه العرب فى كتبهم ييمنت أويمند - إذ كان طامحاً كما ذكرنا إلى إقامة إمارة له فى الشرق، وإن تركها لابن أخيه تنكرد Tankrid - طنكرى - الذى جعلها هو الآخر إمارة خاصة له، وسك فيها عملة باسمه: "Tankridos"؛ فكانت بداية لإمارة أنطاكية، وبذلك ظهرت نيابة الصليبيين واضحة فى استعمار الشرق.

وبعد الانتصار فى أنطاكية، سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة فى شمالى العراق، وتقع بين الموصل والشام، واستولوا على مدن كثيرة منها: مدينة الرها، المسماة أيضاً أرفة، ولليونان أذاسا أو أديسا "Edessa"^(٢)، وهى المدينة المسيحية الهامة، الذائعة الصيت وقتذاك، وكان أغلب سكانها من الأرمن، وليس فيها من المسلمين إلا قليل، وإن تمكن أتابكة السلاجقة فى بلاد الجزيرة من وقف تقدم الصليبيين نحو بغداد. فكانت الرها هى مركز إمارة صليبية أخرى فى بلاد الجزيرة.

وكذلك سار قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب بمحاذاة الساحل الشمالى، وكان المارونيون من جبل لبنان، وهم على عقيدة الصليبيين الدينية؛ يدلونهم على الطريق^(٣)؛ حيث كانت المراكب الإيطالية من جنوة والبندقية وقبرس ورودى وبلاد اليونان تدمهم بالذخائر والرجال^(٤). فكانت مدن الشام العليا وموانئها تستسلم واحدة بعد أخرى للصليبيين بدون مقاومة. وقد استعمل الصليبيون منتهى

(١) النجوم، ٥ ص ١٧٨ - ١٧٩. لعلها فتحت فى سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣ - ١١٠٤م. انظر. الكامل، ٨ ص ٢٠٤. عنها، انظر. معجم البلدان، ٢ ص ١٥٩، ٤ ص ٢٣٠ - ٢٤١.

(٢) وليم، ترجمة، ٢ ص ٦٢ Sqq. Ency. de L'isl. (Art Orfa) t3, p. 1062

(٣) وليم الصورى، ترجمة، ٢ ص ٦١.

(٤) انظر. Gesta, p. 81. وليم، ترجمة، ٢ ص ٦١ انظر. مكسيموس، ١ ص ١٥٠.

القسوة مع المدن المستسلمة؛ فحينما دخلوا معرة النعمان مثلاً، قتلوا معظم من كان فيها من الرجال والنساء، ما يزيد على مائة ألف، وأخذوا من كان حياً لبيعه^(١).

وبعد ذلك وصل الفرنجة إلى بيت المقدس، الذى كان استرده الأفضل الفاطمى من السلاجقة، وأبقى فيه حامية مصرية بلغ عددها أربعين ألفاً؛ كما ذكرنا. فضربوه بالنار والحجر من المنجنيقات، وقد دافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة تنيف على أربعين يوماً. فيصف وليم الصورى مؤرخ الفرنجة مقاومتهم يوماً بعد يوم، كانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من بروج الجدران على التسليم^(٢). ولما تمكن الصليبيون من تشديد قبضتهم على المدينة المحاصرة؛ فإن المدافعين عنها لم ييأسوا من مقاومتهم، حتى أنهم كانوا يقذفونهم بالحجارة من الآلات القذافة؛ فى محاولة أخيرة لإبعادهم عن أسوار المدينة^(٣)، على الرغم من أن الرماح والقسي كانت تنهال عليهم كسهب السماء.

فكان سقوط بيت المقدس فى أيدي الفرنجة فى شعبان من سنة ٤٩٢ هـ / يونية ١٠٩٨ م، فذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، من الشيوخ والنساء والأطفال، وأحرقوا من هرب منهم إلى مسجدى قبة الصخرة والأقصى، واقتحموا هذا الأخير وقتلوا فى داخل ساحته عشرة آلاف من المسلمين؛ حتى أن المصادر النصرانية ذاتها، قالت: لم نر مثل هذا الذبح من قبل فى المسلمين^(٤)؛ حيث استمر القتل ثمانية أيام؛ إذ كانوا يعتقدون أن المسيح عانى كثيراً من العذاب^(٥)، ولذلك كان لابد من أن يشفى غليل المسيحية من المسلمين، لما حدث له. فيقول المؤرخ الصليبي وليم الصورى^(٦): لقد شاهدت فى أرجاء المدينة - ويقصد القدس - مذبحه فظيعة الشناعة؛ ووجدت الأشلاء البشرية فى كل مكان، وقد غطت الدماء

(١) أنظر. Gesta, p. 81؛ الكامل، ٨ ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٢) أنظر Id؛ نفسه الكامل، ٨ ص ١٨٩؛ النجوم، ٥ ص ١٤٨، ١٤٩.

(٣) وليم، ترجمة، ٢ ص ١١٤.

(٤) نفسه، ٢ ص ١٢٦؛ Gesta, P. 88.

(٥) أنظر. Le Moyen Age, P. 428.: Calmette.

(٦) وليم، ترجمة، ٢ ص ١٢٦ - ١٢٨.

الأرض؛ فكانت رؤيتها مبعثرة هنا وهناك، تثير الرعب في نفوس من شاهدها، وكان أبعث على الفرع أيضاً، منظر المتصرين، وقد تخضبت ملابسهم بالدماء، التي غطتهم من أعلى رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، كما انطلق بقية العسكر الصليبي يجوسون خلال الديار بحثاً عن لايزال حياً؛ فإذا عثروا عليهم ذبحوهم ذبح الشاة، وكل واحد منهم قد اغتصب بتاً.

ومع ذلك؛ فلم يقف الفاطميون مكتوفي الأيدي لما حدث في بيت المقدس؛ فوريرهم الأفضل؛ لما بلغه خبر وصول الفرنجة إليه حشد العسكر المصري في وديان عسقلان، وهي الميناء الهام على ساحل البحر، وسار على رأسهم لاستنقاذه. ولما قرب من بيت المقدس كان الفرنجة قد فتحوه، وهجموا على الأفضل وعساكره وهزموه^(١)، وأحرقوا من التجأ من العسكر المصري إلى الغابات. كذلك خليفة مصر، وكان الأمر بأحكام الله، ويصفه وليم الصوري^(٢)؛ بأنه أقوى حكام المسلمين في الشرق، طلب من وزيره الأفضل حشد جيش كثيف يضم كل زهرة شباب مصر؛ ليقضى على هذا الشعب المتطفل، ويمحوه من على وجه البسيطة؛ حتى يتلاشى اسمه من الوجود.

وقد فرح الفرنجة بوصولهم إلى مقبرة المسيح (ربهم)؛ بحيث كانوا سيكون من شدة الفرح. وهكذا سقط بيت المقدس في أيدي الفرنجة؛ بعد أن ظل في أيدي المسلمين منذ فتحه في عهد عمر بن الخطاب في سنة ١٧هـ / ٦٣٨م. ومع أن البابا إربانوس الثاني توفي في يوليو ١٠٩٩م؛ وهو لا يدري بهذا الانتصار؛ إلا أن روما دقت النواقيس، وأعلنت انتصار الصليب على الهلال.

وقد تريت الصليبيون بعد فتح بيت المقدس لتنظيم دولتهم^(٣)؛ وإن كانوا قد اتفقوا على تعيين جو دفروي - كندفري أو كندهري - حامياً للبيعة (أو القبر المقدس) "Ad vocatus Sancti Sepulchri"، ولم يتلقب به أحد غيره، ورفض أن يتخذ لقب الملك، الذي لقّب به كل من جاءوا بعده، وينسب إلى جود فروي هذا

(١) الكامل، ٨ ص ١٩٠؛ النجوم، ٥ ص ٤٠٦.

(٢) وليم، ترجمة، ٢ ص ١٦٠-١٦١.

(٣) انظر. Gesta, p. 88.

أنه وضع أساس دستور هذه الدولة، وهو ما عُرف لهم باسم: أسس "Assises"؛^(١) حيث أضاف إليه ملوكها من بعده قوانين أخرى خاصة بنظامى الدولة السياسى والإقطاعى، وهذا النظام الأخير ساد فيها؛ وإن كانت نصوص الأسس لم تجمع إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى؛ لأن أصولها قد ضاعت، عندما استرد صلاح الدين بيت المقدس فيما بعد. ومع ذلك فهذه الأسس لم تكن وحدها تحكم دولتهم فى بيت المقدس، وإنما بالاولى كانت. تحكمهم قوانين وعادات تعودوا عليها فى أوربا؛ كما سكت عملة خاصة بها، أطلقوا عليها القراطيس، وهى تسمية مصرية.

ولما قتل جود فروى، بسهم أطلقه عليه مجاهد مسلم أصابه أمام مدينة عكا، عطاء (أو عكة)^(٢)؛ اختار مجلس كبار الفرسان ورجال الدين "La Haute Cour"^(٣) أخاه بغدوين "Baudouin"، وهو أول من اتخذ لقب الملك فى عام ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م. ومنذ ذلك الحين صار حكام بيت المقدس يلقبون بالملوك، وكان بغدوين يفعل مثل ملوك الشرق، فيلبس الثياب الشرقية، ويرسل لحيته، ويتناول طعامه وهو جالس على الأرض^(٤). وبسبب أن دولة بيت المقدس حاكمها ملك، فإنها سميت: بمملكة بيت المقدس، أو المملكة اللاتينية؛ إذ أخذت هذه التسمية الأخيرة من جنسية ملوكها، ومن إنشاء أول كنيسة لاتينية فى الشرق. وقد اتسعت المملكة الصليبية بمن جاءوها من الفرنجة من كل نوع؛ ولاسيما من الباحثين عن الثروات والمغامرات، فكان هؤلاء يأتونها كحجاج، ولكن سرعان مايستقرون فيها، كما أصبح للمدن الطليانية على الخصوص نفوذ كبير فى هذه المملكة؛ بسبب مشاركتها بأساطيلها فى هذه الحروب، ونالت حقوقاً تجارية كثيرة فيها، وفى غيرها من الإمارات الصليبية الأخرى.

كذلك قسّمت مملكة بيت المقدس إلى إقطاعات، وعهد فى الدفاع عنها إلى طوائف من الرهبان الفرسان، أبرزهم طائفة: الاستبارية "Hospitaliers"؛ لأنهم

(١) انظر "Assises de Jerusalem. R.H.C.o"THI" انظر.

Dodu: Histoire des Institutions Monarchiques dans Le Royaume Latin. de Jerusalem. Paris, 1849.

(٢) يقول ولیم الصوری إنه مات من مرض استعصى برؤيه منه. انظر. ترجمة، ٢ ص ١٨٦.

(٣) انظر. Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem 1972, p. 282 Sq.

(٤) انظر. جر وینباوم، حضارة الإسلام، ترجمة جاوید، مصر ١٩٥٦.

فى أصل نشأتهم، كانوا يقومون باستقبال الحجاج وإيوائهم فى نزل "Hospes"^(١)، أنشأوها بجوار كنيسة القيامة. وهناك طائفة أخرى، عرفتھا العرب باسم فرسان: الداوية أو الديوية، أو ما عُرِف لدى الفرنسين باسم «فرسان الهيكل أو المعبد» "Templiers"؛ ذلك لأنهم سموا مكان الصخرة بالهيكل أيضًا "Templum"؛ بسبب غموض تاريخها لديهم. فكانت الطائفتان تملكان الحصون والأساطيل، ولها حق عقد المعاهدات، وجباية الضرائب، وكأنهما أصبحتا دولتان داخل مملكة بيت المقدس، مع أنهم فى الأصل من التجار.

وعقب فتح الصليبيين لبيت المقدس، حولت جميع مساجده إلى كنائس، وخاصة مسجد قبة الصخرة^(٢)، الذى بناه عبد الملك بن مروان، على أنقاض المسجد الذى بناه عمر بن الخطاب، والمسجد الأقصى، الذى بناه الخليفة الوليد^(٣) ابن عبد الملك فى ساحة مسجد قبة الصخرة، وعُرِف لفخامته أيضًا بـبلاط الوليد. فاخذوا يعظمون الصخرة ويفتخرون بها، وأقاموا على قبتها صليبيًا من ذهب، سموه بصليب الصلبوت، أما المسجد الأقصى؛ فقد أقيمت فيه كنيسة ونزل للفرسان الداوية، وأصبح يعرف باسم: هيكل أو قصر سليمان "Templum Solomonis" (أو Platum)؛ لأن نبيهم سليمان كما قيل، كان قد بنى فى مكانه هيكلًا. ويبدو من ذلك أن التعصب الصليبي نحو المساجد، كان على نقىض ماجبل عليه المسلمون من تسامح نحو كنائس النصارى، التى تركوها لهم، بما فيها من ذخائر وتحف؛ وحتى بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس، ترك لهم كنوز الكنائس؛ ليأخذوها معهم، وأبقى على كنيسة القنيطرة المقامة على قبر المسيح لا يدخلها المسلمون تقليدًا لما فعله عمر بن الخطاب، الذى لم يدخلها وصلى فى خارجها؛ حتى لا يدخلها المسلمون، مع أن الصليبيين على العكس كانوا منعوا قبط

(١) عنهم، انظر: النجوم، ٦ من ٣٣ وها مش: Ency. de l'Isl. (Art al - Kuds) t2, p. 1164. The Knights Hospitaliers in the Holy Lands. London, 1931: Kings.

(٢) عماد الدين، الفتح القسى، ص ٥٠ - ٥١ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢
انظر: Ency. de l'Isl, t2, p. 1164 - 1165.

(٣) أنظر: كتابنا: التاريخ السياسى للدولة العربية، الجزء الثانى، وبعده.

مصر، وهم مسيحيون من دخولها. وبعد ذلك؛ فتح الصليبيون عكا في سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٤ م، وطرابلس سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م، وكانت تحكمها أسرة بنى عمّار^(١)، التي استقلت بها عن الفاطميين، لما غزا السلاجقة بعض أجزاء من الشام، فحاصروها قبل محاصرة بيت المقدس، ولكنهم رفعوا الحصار عنها للاستيلاء على بيت المقدس، مع أن واليها ابن عمار دخل في مفاوضات معهم، وأغراهم بالمال، ولما لم يستجيبوا له حاربهم بشدة فهزموه^(٢)، وسقطت طرابلس وما حولها من مدن مثل: جُبيل في ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م: وبيروت في ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م، حيث يذكر المؤرخ عماد الدين أن معظم أهل بيروت من المسلمين^(٣)، وصيدا في ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م، وصُور في ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م، وكان يربطها بالبحر شريط ضيق من الأرض، واعتبرت مقاومتها من أشد المدن الفاطمية في مقاومة الفرنجة؛ حيث يفرد وليم الصوري الصفحات العديدة لمقاومتها^(٤)، كما سقطت غيرها من المدن الساحلية. ويقول المؤرخ ابن تغرى بردى: إنه كان من الممكن إنقاذ كل هذه المدن أو غيرها لولا سوء الحالة في بلاد الفاطميين^(٥).

ولم يقف طمع الصليبيين أو الحجاج المسلحين عند حد؛ فقد طمعوا أيضا في مصر التي كان يحكمها الفاطميون لضعفهم، وتزهو أمام أعينهم بغناها. فقد كان بغدوين "Baudouin" - أو بلدوين الأول - يفكر في غزوها، وذهب بنفسه ليستكشف طريق الزحف إليها، وتوغل في شبه جزيرة سيناء، ودخل الفرما على الساحل بين العريش والفسطاط، وفتحها في سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م؛ إذ كان مبهورا برؤية مصب النيل. ويتشوق إلى أن يملأ بصره إعجابا بمياهه، كما يقول وليم الصوري^(٦). ولكن الجند الدائمين في الشرقية، يتقدمهم العربان حاربوه، كما

Ency de L'Isr, t2, p. 1164 - 5.

(١) الفتح القسى، ص ٤٨؛ انظر.

(٢) وليم، ترجمة، ص ٦١.

(٣) الفتح القسى، ص ٣٢.

(٤) وليم، ترجمة، ص ٤٢.

(٥) النجوم، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٦) وليم، ترجمة، ص ٢٢٩.

أسرع الوزير الأفضل الفاطمي في إرسال العساكر المصرية من القاهرة، فرحل
بغدوين أو بلدوين وحتى بردويل - كما كان يسمى - عائداً أدراجه، ولكنه مات
قبل أن يصل إلى العريش، فأخذت جثته لتدفن في كنيسة القيامة، بعد أن ألقى
بأمعائه في مكان لا يزال إلى اليوم يُعرف بسبخة البردويل أو جزيرة بردويل أو
بالسبخة فقط؛ نسبة إليه^(١).



ومعنى هذا أن الفرنجة قد انتصرت على المسلمين في الشام وبلاد الجزيرة،
وأصبحت لهم فيها مملكة وإمارات ثلاث بين إمارات السلاجقة، وعلى حدود
مصر. ولما كان معظم الغزاة من الفرنسيين؛ فقد اعتبر وجودهم في الشرق أول
استعمار لفرنسا فيه، وبذلك ظهرت سياسة فرنسا الاستعمارية فيما وراء البحار
"Outre - Mer". فمن إماراتهم: إمارة أنطاكية العظمى في الشمال، وامتدت على
ساحل البحر المتوسط إلى جبال طوروس وشمال الشام، وجاورت أنابكية حلب
التي يحكمها السلاجقة، وإمارة الرها على الفرات، وامتدت من مرعش إلى منبج
في الجنوب، فجاورت أنابكية الموصل، التي كانت تضم غالباً إلى إمارة حلب،
وتكون معها أنابكية واحدة، وتهدد بغداد مركز الخلافة العباسية، وإمارة أو كتية
طرابلس، ونشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، حيث اعتبرت منفذاً لها على
الساحل، وامتدت من حمص إلى شمال لبنان؛ وتهدد أنابكية دمشق. بل لم يقف
الخطر الصليبي عند الأماكن المسيحية المقدسة، وإنما رحف نحو ديار مصر أيضاً.

(١) الخطط، ١ ص ٣٤٢، ٣٤٣؛ ابن إياس، بلائع، ١ ص ٦٣.
عن العريش، انظر. معجم البلدان، ٦ ص ٣٦٧ - ٩.

الفصل الثالث

الصمود، ورد الفعل الفرنجى

والواقع أن نجاح الاستعمار الفرنجى فى الشرق الإسلامى كان سببه فى الدرجة الأولى انفصام وحدة سكانه، الذين أصبحوا برءوس كثيرة، ولم يعودوا أمة واحدة، كما أراد الإسلام لهم، وعلى الخصوص سكانه العرب فى: مصر والشام، وبلاد الجزيرة، من دون رقعة الإسلام الواسعة؛ مع أنهم وحدهم تلقوا الضربات الصليبية. ولعل السبب فى عدم وحدة العرب بالذات، وعلى مدى تاريخهم الطويل؛ هو تمسكهم بنظامهم القبلى السابق، وهو ما جاء الإسلام ليقضى عليه بالنظام الحضرى؛ بحيث كان العرب دائماً ضد العرب. ومع ذلك؛ فإنه توجد بعض العوامل الأساسية كانت أحياناً تتدخل لتجمعهم فى وحدة سياسية؛ منها: وحدة اللغة، والدين، والثقافة، والتاريخ، والعيش فى إطار حدودى واحد؛ حتى يتجنبوا أوجم العواقب؛ نتيجة لتفرقهم والتماسك عند مواجهة الشدائد، وتحقق بهم الأخطار. ولدينا شعر يعبر عن ضرورة وحدة العرب فى وقت الغزو الصليبي، فيذكرهم بعروبيتهم، ورد فيه:

أيرضى صناديد الأغارب بالأذى

ويغض على ذل كماء الأعاجم

وعلى كل حال، سرعان ما ظهر رد الفعل العربى فى هذه النواحي للخطر الصليبي القادم؛ بعد سقوط بيت المقدس، وبعض المدن الساحلية فى أيدي الفرنجة، وفى صمود المدن التى بقيت فى أيدي السلاجقة والفاطميين؛ حيث اعتمد هؤلاء فى صمودهم على قوة أسطولهم، الذى اشتهر بالأسطول المصرى.

فقد اشتهرت مصر فى أيام الفاطميين بتعدد دور الصناعات البحرية فيها^(١)، وهى أماكن بناء السفن. فكانت المقس^(٢)، التى أنشأها الخليفة المعز لدين الله أول خلفائهم فى مصر، فى شمال القاهرة، على شاطئ النيل، وتوسع لبناء ستمائة قطعة بحرية^(٣)؛ كما أن جزيرة الروضة، التى عُرفت فى وقتهم بجزيرة مصر^(٤)، كانت هى الأخرى تقوم سناء المراكب البحرية. كذلك وجدت أماكن فى أرجاء خلافتهم؛ تقوم ببناء المراكب؛ فيروى المؤرخ المقرئى أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بمدينتى الإسكندرية ودمياط^(٥)، أما المؤرخ القلقشندى فيذكر أن وحدات الأسطول الفاطمى، كانت مرتبة بجميع الشواطئ الساحلية، فى الإسكندرية ودمياط فى مصر، وفى عُسقلان وعكا (أو عكة) وصُور وغيرها من موانئ الشام^(٦).

وعلى الرغم من هزيمة الفاطميين أمام الفرنجة فى الشام؛ فقد ظلت السيادة البحرية لأسطولهم؛ حتى أن الخليفة الفاطمى قبل خروجه من مصر لقتال الفرنجة كان يقوم بتوديع رجاله فى احتفال رسمى، عُرف فى رسوم دولتهم باسم: المودعة^(٧). فكان الخليفة الفاطمى، وبصحبه الوزير والأعيان المصريين، يذهبون إلى ميناء المقس عند ساحل النيل؛ حيث تجتمع فيه المراكب قبل أن ترحل وتقوم بالحركة - وهى المناورات - كما يفعل تمامًا فى حالة القتال. وفى هذه المناسبة يدعو الخليفة الفاطمى للأسطول بالنصرة والسلامة، ويورع النفقة والهدايا والخلع^(٨) - وهى ملابس - على رئيس الأسطول وقواده.

(١) المقرئى، الخطط، بولاق، ٢ ص ١٨٩.

(٢) نفسه، ٢ ص ١٩٥.

(٣) نفسه.

(٤) معجم البلدان؛ أنظر.

(٥) ابن عماتى، قوانين الدواوين، ص ١٦.

(٦) صبح الأعشى، ٣ ص ٥٢٣.

(٧) نفسه؛ ابن سيرى، ص ٤٤. بتفصيل: ماجد، نظم الفاطميين، ط ٣ (الأسطول)، الجزء الأول.

(٨) المقرئى، الخطط، بولاق، ١ ص ٤٨٠، ٢١، ٢٢، ٢ ص ١٩٣، ٣٣.

ويذكر المؤرخون أنه كانت توجد من بين مراكب الأسطول المصرى مراكب ذات حجم كبير، بلغ عددها فى وقت الغزو الفرنجى على حسب قول.وليم الصورى سبعين من القراقر، وأربعة وعشرين من الشوانى^(١). فكانت القراقر - ومفردها قرقرة - وهى مراكب معدة لتموين المدن الساحلية؛ وتزويدها بالزاد والمتاع وأنواع السلاح؛ وتتميز بأن لها ثلاث طبقات، وتسير بالقلاع؛ أما الشوانى - ومفردها شونة أو شينى - فهى من المراكب الحربية العظيمة، وتجتف بثلاث وأربعين ومائة مجذافاً، وتحتوى على أهراء لحزن القمح، وصهاريج لحزن الماء الحلو، ومزودة بقلاع وأبراج للدفاع والهجوم، وبخاصة بالمنجنيقات لقذف المواد الملتهية، التى تخصصت لها طائفة من المقاتلة أطلق عليهم التفاطون؛ حيث كان النفط^(٢) متوفرًا فى مصر، ويسيل من جبل بسيناء، وميزته فى أنه يسير على الماء دون أن ينطفأ؛ ليحرق مراكب العدو^(٣). كذلك كان يوجد بالقطع البحرية المصرية مقاتلة قد درّبوا على القتال فى البر والبحر، وعرفوا لذلك باسم: بحرى وبرى، وزودوا بكل ما هو ضرورى للحرب البرية، مثل: الأبراج، والدبابات والسلايم لثقب الأسوار، والحبال للاستعانة بها فى تسلقها. ومن الطريف أن نذكر بوجود قفص فيه حمام كان ضمن معدات الأسطول الفاطمى، يستعمل فى إبقاء الاتصال بين مختلف وحداته، وبين القيادة العامة فى البر؛ وأن مركب رئيس الأسطول كانت تزود بفانوس خاص؛ لتهتدى به المراكب الأخرى؛ فتقلع بإقلاعه وترسو برسوه.

وعلى العكس، كانت المراكب الفاطمية تحتوى من نار العدو وقذائفه؛ بتغطية هيكلها بدرع من الخارج اسمه: «لبوس»^(٤) وعليه غطاء آخر اسمه «لبود»، يصنع

(١) وليم الصورى، ترجمة، ٣ ص ٥٣، ص ٣٦٩.

(٢) الخطط، بولاق، ٢ ص ٣١٤.

(٣) الحسن الأبرقى، تحقيق وترجمة Cahen، عنوان.. P 145 - 6، Trad، P 122 - 3، Un Traité.

(٤) بتفصيل: ماجد، نظم الفاطميين؛ و درويش النخيل؛ معجم، Suppl. Cf: Dozy.

من جلود البقر الطرية، أما رجال الأسطول أنفسهم؛ فإنهم يحتمون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان أو البلسم، وهو فى الأصل نبات ينمو بارتفاع ذراع، وله دهن ورائحة، ويجمع فى قناني من الزجاج^(١). ومع أن جالينوس، وهو من علماء مدرسة الإسكندرية القديمة، قال بوجوده فى فلسطين وحدها؛ إلا أن الرحالين العرب، الذين زاروا مصر فى وقت صلاح الدين، ومنهم: عبد اللطيف البغدادي والهروى، يريان أنه لا يوجد اليوم إلا بمصر، فى موضع بعين شمس، مساحته نحو سبعة أفدنة، ومحاط عليه لأهميته، وأن استخراجَه يتم بطريقة خفية، لا يعرفها العدو.

فيتبين دور الأسطول المصرى فى استنقاذ مدن الساحل الشامى^(٢)، بتواجده فى مرافئها، وحمل المؤن إليها، وبالاشتباك مع أساطيل العدو باستمرار، وبخاصة مع مراكب المدن الإيطالية التى شاركت فى حملات الصليبيين. ففى يافا، ولم تكن قد سقطت فى أيدي الفرنجة بعد، أقلع الأسطول المصرى من قاعدته بقيادة شرف المعالى، ابن الوزير الأفضل الفاطمى، لتزويدها بالمؤن^(٣). وفى طرابلس التى جعلها الصليبيون إمارة لهم بعد ذلك، فإن الأسطول الفاطمى كان متواجداً فيها؛ مما جعل حاميتها تصمد أمام الفرنجة لعدة شهور، على الرغم من حصارها من البحر بالمراكب الجنوية^(٤)، وفى صيدا، ساعد رجال الأسطول المصرى العسكر الدمشقى، حينما هاجمها بغدوين الأول «Baudouin» صاحب مملكة بيت المقدس، وحاصرها برا وبحرا؛ إلا أنها سقطت فى يده^(٥). وفى بيروت، قصدها أربعة وعشرون شينياً مصرية^(٦)، وهى مراكب حرية كبار؛ إلا أن بيروت سلّمت بالأمان بعد حصار دام سبعة وأربعين يوماً؛ لما استشهد قائد الأسطول المصرى فى اشتباكه مع الأسطول الجنوى. وفى صور، زود الأسطول المصرى حاميتها بقيادة أنوشكين

(١) الإفادة؛ والزيارات؛ أنظر.

(٢) تفاصيل: ولیم الصورى، ص ٣٦٩ وما بعدها.

(٣) ابن القلانسی، ص ١٤٢، ١٤٣.

(٤) ابن الاثير، ص ٢١٩، ٢٢٥.

(٥) ابن القلانسی، ص ١٦٢.

(٦) نفسه، ص ١٠١.

الأفضلى - نسبة للوزير الأفضل - بالرجال والغلات؛ مما جعلها تقاوم الصليبيين فترة طويلة^(١)؛ إلا أنها فقدت هي الأخرى، لما اغتيل الوزير الأفضل، وتولى بعده المأمون البطائحي في الوزارة مكانه.

أما بالنسبة للعمليات التعرضية البرية فلدينا سجلات فاطمية^(٢)؛ بتقليد أمراء مصر، وهم القواد المصريون، لأمر جهاد الصليبيين في نواحي الشام، التي استولوا عليها. فقد تعود خلفاء الفاطميين على أن يرسلوا تجريدات - جمع تجريدة - لجهاد الصليبيين في الشام؛ لا يتجاوز عدد أفرادها من ثلاثمائة إلى أربعمائة، والكثرة من أربعمائة إلى ستمائة؛ حيث كان يقدم فيها على كل مائة أمير. فكان الخليفة الفاطمي يبارك هذه التجريدات قبل خروجها، مثلما كان يفعل في مواعدة رجال الاسطول؛ فيسلم أميرها العلم والخريطة؛ حيث كان يشارك فيها أحيانا أولاد الوزراء؛ بمن فيهم الوزير الأفضل نفسه.

فكانت هذه التجريدات تؤخذ بالذات من طوائف الحجر أو الحجرية^(٣)، التي اعتبرت من طوائف العسكر الفاطمي وسموا بها لسكنائهم في الحجر، وهي أشبه بالثكنات العسكرية. فمنذ مجيء المعز لدين الله إلى مصر، كان يجند أفرادها من بين المصريين - أولاد الناس - في الأعمال وهي أقاليم مصر؛ حيث شرط على ولاتها البحث عنم يظهرهم مهارات حربية قبل أوانها، وأفرد لهم حجراً في قصره؛ فعرفوا بسبب ذلك بصبيان أو غلمان الحجر؛ فكانوا يتعلمون فيها القراءة والكتابة والفنون العسكرية؛ وإن أقيمت حجر أخرى في القاهرة في غير قصر الخليفة، أو في خارج القاهرة، ومنها واحدة كانت قرية من باب النصر في أسوار القاهرة^(٤)، وحتى في أنحاء أخرى في مصر، فالحجر الفاطمية أشبه بالمدارس الحربية سبقت الطباق المملوكية، التي أقامتها دولة سلاطين المماليك في مصر، وتقليداً لها. فكان غلمان الحجرية أو صبيانهم لسكنائهم في هذه الحجر، على حسب سنهم، ومنهم: الحجرية الكبار، والحجرية الصغار.

(١) نفسه، ص ١٨٨.

(٢) النجوم، ص ٢٤٤.

(٣) الخطط، ١ ص ٣٠٩ - ٣١١؛ صبح، ٣ ص ٥٠٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ص ١٩٦ - ١٩٨.

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٤٨١.

(٥) الخطط، ٢ ص ٣٣١.

ومنذ غزو الفرنجة للشام زادت أعداد الحجرية عن ذى قبل، وبخاصة فى عهد الوزير الأفضل الفاطمى^(١)؛ حيث استمر نظام الحجرية قائماً إلى آخر حكم الخلافة الفاطمية. فكانت الحجرية من دون طوائف الجيش الأخرى، لها تعليم عسكرى منظم، لم يكن له وجود من قبل فى مصر، تحت إشراف مباشر من الخلفاء الفاطميين أنفسهم؛ بحيث أصبحوا عصب الجيش الفاطمى، ورمز التحرك للقتال عند أول إشارة. فكانت الحجرية يؤلفون معظم هذه التجريدات الموجهة نحو الفرنجة؛ بقصد هدم تحصيناتهم، فى معارك جسورة ومهام انتحارية، وأن حربهم للعدو ارتكزت أساساً على المبادأة، بحيث ظهرت لهم بطولات، وما كان أى انتصار على الصليبيين يحدث بدونهم؛ فكانوا يقومون بحرب استنزاف حقيقية.

إضافة إلى أن الوزير الأفضل الفاطمى سعى إلى التقارب مع سلاجقة الشام؛ على الرغم من الاختلاف معهم فى المذهب وفى المصالح الخاصة؛ وعلى الرغم من العداوة السابقة بينهما؛ إذ كانت ظروف المنطقة بغزو الفرنجة لها تقضى مثل هذا التقارب. فسعى الوزير الأفضل الفاطمى إلى التحالف مع طُغتكين - أوطندكين - أتابك دمشق، الذى كان قد استقل بها بعد قتله لأميره دقاق ابن تُش، ووفاء ابن أخى دقاق؛ فتمكن من إقامة أسرة حاكمة له فى دمشق، استمرت من ٤٩٧هـ / ١١٠٤م إلى ٥٤٩هـ / ١١٥٤م، عُرقت بأسرة البوريين كما ذكرنا^(٢)؛ بحيث أصبحت دمشق بهم أهم مركز للمسلمين فى الصمود أمام الغزو الفرنجى. ويؤكد وليم الصورى، وهو المؤرخ الفرنجى؛ على التقارب بينهما، على الرغم من فقدان الثقة بين الترك والمصريين، حسداً لكل منهما للآخر، وسعيه لدرقة مملكته على حساب خصمه؛ غير أن فزعهما من الصليبيين أنسى كل منهما ما يضر للآخر من كراهية؛ فانضمت قواتهما بعضهما إلى بعض^(٣)؛ لتنفيذ مخطط استهدف الإطاحة بالصليبيين.

(١) وليم، ترجمة، ٢ ص ١٦٢.

(٢) بتفصيل: Ency of Isl, (art Búrides,) 2ed, TI, P. 1332، وبعده.

(٣) وليم، ترجمة، ٢ ص ٣٤٣.

ففى أثناء حصار الفرنجة لصُور^(١)، وهى جزيرة داخلية فى البحر مثل الكف، وكانت فى حوزة الفاطميين، حشد الوريير الأفضل أعداداً كبيرة من المشاة والفرسان، وأسرع بإرسال أنوشتكين الأفضلى بالأسطول المصرى، الذى حمل لها الأزواد؛ بقصد استنقاذها. فلما علم طغتكين، أنكابك دمشق، فلأنه من جانبه هو الآخر حشد جنده، وسار بهم إلى صور؛ بقصد الانضمام إلى العسكر المصرى؛ وإن لم يحدث اشتباك^(٢)، ولكن لما حدث هجوم جديد عليها؛ فإن حاميتها سلمت البلدة إلى طُغتكين، بأمر من الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله^(٣)، فولى طغتكين والياً عليها من قبله اسمه مسعوداً، الذى حكمها لمدة عشر سنوات، ومع ذلك تركت الخطبة فيها للخليفة الفاطمى. إلا أن الأسطول المصرى عاد إليها فى عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢م^(٤) وقبض على الوالى مسعود، الذى رحل إلى القاهرة، ومع ذلك أكرم فيها، وأعيد إلى دمشق، وولى الفاطميون على صور والياً من قبلهم، كان على علاقة طيبة بطغتكين^(٥). فلما عاد بلدوين الثانى ملك بيت المقدس وحاصرها من جديد؛ فإنها سلمت من جديد إلى طُغتكين ليدافع عنها^(٦)؛ بحيث اشتبك مع الملك الفرنجى وتمكن من أسره، وإن أطلق سراحه بعد ذلك. ولكن بُذلت محاولات جديدة من قبل الفرنجة للاستيلاء عليها، وسقطت فى أيديهم، بعد مقاومة شديدة.

وقد تجددت الاتصالات بين الفاطميين والبورين فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى، مع الملك إسماعيل، الذى تولى أنابكية دمشق بعد أبيه بورى، وهو من نسل طغتكين، وإلى بورى هذا نسبت هذه الأسرة فى دمشق، حيث لدينا سجل^(٧) ورد فيه ذكر قتل أمير بعلبك الصليبي. وكذلك زار دمشق رضوان ابن

(١) عنها: معجم البلدان، ٥ ص ٣٩٧ - ٨.

(٢) وليم ٢، ١ ص ٣٤٤ - ٣٤٥، ٣ ص ٤٣.

(٣) ابن القلانسى، ص ٢٨٤ - ٢٨٨.

(٤) نفسه، ص ٣٢٩.

(٥) ابن أبيك، الدرر المضيئة، ص ٤٤٩، انظر. غرابشة رسالة ماجستير (إشرافى)، ص ٣٩٥.

(٦) ابن القلانسى، ص ٣٣٥.

(٧) صبح الأعشى، ٦ ص ٤٤٩ - ٤٥٠، انظر، Canard: Fatimides et Búrides à L'époque du،

Calife al - Háfiz li - dñ lillah. R E I, xxxv, 1967, p. 103, 116.

ولخشى^(١)، وزير الخليفة الحافظ الفاطمي، في وقت حاكمها مجير الدين بن إسماعيل بن بوري؛ وقد صار التعاون بينهما أكثر ثوثًا وتواصل السفارات والوفود، وحتى تبادل الهدايا^(٢).

حقًا سيطر الفرنجة على معظم فلسطين، منذ استيلائهم على بيت المقدس؛ بما فيها أغلب مدنها الساحلية، إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة على مدينة عَسْقَلان^(٣)، التي بقيت وحدها صامدة أمامهم؛ على الرغم من الهجمات الصليبية المتوالية عليها، فلا يجدون إليها سبيلًا. وتقع عَسْقَلان على الساحل الجنوبي لفلسطين، وكانت انتعشت في أيام الفاطميين؛ بحيث اعتبرت في وقتهم عروس الشام، ثم سقطت في أيدي السلاجقة لما اجتاحتها الشام، ولكن الفاطميين سرعان ما استردوها منهم، قبل الغزو الصليبي للشام. فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس، ومعظم مدن الساحل، كانت فلول الفاطميين من المدن التي سقطت في أيديهم تنسحب إليها. فكان صمود عَسْقَلان أمام الصليبيين أن جعلها رأس حربة للهجوم على الأراضي التي في حوزة الصليبيين، وأصبحت قاعدة دائمة للأسطول الفاطمي؛ بحيث وصف وليم الصوري، مؤرخ الفرنجة تربص عَسْقَلان بالصليبيين بالفراشة التي لا يستقر لها قرار في حربهم^(٤)، والحية ذات الرؤوس التسعة^(٥).

ومن اليقين أن سبب صمود عَسْقَلان في وجه الصليبيين يرجع إلى قوة تحصيناتها واستحكاماتها، والعوائق التي ترد عنها هجماتهم؛ حتى أنه وضعت

(١) الاعتبار، ص ١٧، ١٨.

(٢) ابن القلانسي، ص ٣٤٢، ٣٧٩.

(٣) عنها: معجم البلدان، ٦ ص ١٧٤؛ انظر.

Ency de l'Isi (art' Askalán) TI,p. 732; Le Strange: Palestine Under the Muslim,p. 400-3.

(٤) وليم، ترجمة، ص ٣٨.

(٥) نفسه، ص ١٣١.

شعلتها من الانطفاء مما جعل ليلها نهاراً ساطعاً^(١)، لرؤية المهاجمين لها في الليل . كذلك كان الوزراء العظام في مصر، يرسلون إليها الذخائر والأسلحة والأموال في كل عام^(٢)، وعلى الدوام الجند المدربين^(٣)، والقادرين على حمل السلاح واستعماله^(٤)، في أربع مجموعات^(٥)، لتحل الواحدة محل الأخرى؛ ولتظل مقاومتها متجددة، ولتابعة القتال ضد الصليبيين، وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة . فكان القادمون الجدد أشوق ما يكونون لحربهم ؛ لأنهم يريدون عجم عود عدوهم، وليعرفوا درجة بأسهم، وليقدّموا في الوقت ذاته البرهان الجلى على شجاعتهم . ومع ذلك؛ كثيراً ما كان يحدث في هجماتهم على الصليبيين، أن البعض منهم يقعون أسرى أو يقتلون بحد السيف، ربما لأنهم غير عارفين بمسالك عَسْقلان^(٦)، وذلك على عكس أهل عسقلان أنفسهم، الذى كانوا يعرفون مسالك بلدهم؛ فيترثون في قتال الصليبيين إذا لزم الأمر، وذلك على حسب ملاحظة وليم الصورى مؤرخ الفرنجة؛ فيتجنبون الاصطدام بهم، رغم أنهم كثيراً ما كانوا يتعقبونهم بلا اكتراث؛ إذا ما أخذ الصليبيون فى الفرار . والواقع، أصبح كل من فى عَسْقلان من أهلها مجنداً بمن فيهم الأطفال^(٧)، وكان خليفة مصر يدفع لهم رواتب ثابتة؛ مثلما يدفع للكبار .

ولنا أن نقرر بيقين أن الدفاع عن عَسْقلان أصبحت مسئولية المصريين، سواء أكانوا جنداً أم بحارة مقاتلة، ويتكلم وليم الصورى بأعجاب^(٨) عن والى عسقلان

(١) نفسه، ٢ ص، ٣٨، ٣٠٢ .

(٢) نفسه، ٣ ص ٣٥٤ .

(٣) نفسه، ٣ ص ٤٩ .

(٤) نفسه، ٣ ص ٣٨ .

(٥) نفسه، ٣ ص ٣٥٤ .

(٦) نفسه، ٣ ص ٤٩ - ٥٠ .

(٧) نفسه، ٣ ص ٣٥٣ .

(٨) نفسه، ٣ ص ١٣٠ .

المصرى، الذى صورته بوحش فى قتالهم^(١)، شديد البطش، إذ اعتبر عسقلان خط الدفاع الامامى لبلده مصر، وحائلاً من الطمع فيها، وأنها حصن أمان لها. فكان يشن الغارات العنيفة على بلاد الفرنجة، ولا يتردد فى اجتياحها بجرأة كبيرة، وعيونه تراقب تحركاتهم فى كل مكان. ففى مرة هاجم يافا بعد أن أصبحت فى حوزة الصليبيين^(٢)، وبلغت به الجرأة أنه مد رحفه منها إلى بيت المقدس أيضاً، وأقام الكمائن فى مواضع معينة على الطريق الموصل إليه^(٣)؛ تمهيداً لتكرار هجماته عليه. وفى جولة أخرى، حينما قام الفرنجة بحصار مدينة صور، إحدى مدن الساحل الشامى الهامة، وكانت القدس بسببه خالية من جندها؛ فإنه بذل جهوده فى حملاته عليها؛ وكان من الممكن أن يستولى عليها؛ لولا وصول النجيدات الصليبية إليها^(٤).

ولما كان هذا الوالى المصرى يخشى تسرب الوهن إلى نفوس جنده^(٥)؛ بسبب غاراته العديدة على الفرنجة، فإنه وفر الميرة اللازمة لهم؛ بالإضافة إلى تزويدهم بالسلاح الجيد، ويريحهم من وقت لآخر بإقامة البدل بينهم، وكلما هلك طائفة منهم؛ جلب أخرى من مصر؛ بحيث أصبحت عسقلان أكبر تجمع لعسكر مصر فى فلسطين؛ فيزداد بهم بأساً على بأس^(٦)؛ وحينما يصل الاسطول المصرى إلى عسقلان، فإنه يبعث الطمأنينة فى نفوس المقاومين^(٧)، إلا أن هذا الوالى المصرى الشجاع استشهد فى قتاله مع الصليبيين^(٨).

ولكن عسقلان سقطت فى آخر الأمر فى أيدي الصليبيين؛ بعد مقاومتها الشديدة التى ذكرها مؤرخو الفرنجة أنفسهم، لمدة ثلاث وخمسين سنة متوالية؛ كما

(١) نفسه، ص ٣، ١٣١.

(٢) نفسه، ص ٢، ٣١١.

(٣) نفسه، ص ٢، ٢١٧.

(٤) نفسه، ص ٢، ٣٠٢، ٣٠٣، ص ٣، ١٣١.

(٥) نفسه، ص ٣، ١٣١.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه، ص ٣، ٣٥٨.

(٨) نفسه، ص ٢، ٢٦٤.

الشديدة التي ذكرها مؤرخو الفرنجة أنفسهم، لمدة ثلاث وخمسين سنة متوالية؛ كما ذكرنا^(١). وفي سبيل أخذها أحاطوها بسلسلة من التحصينات القوية، المزودة بالقلاع والأبراج^(٢)؛ لتكون بمثابة ركائز ثابتة في مهاجمتها، ملأوها بجند من الحجاج المسيحيين^(٣). فكانت أهم تحصيناتهم حولها في بئرسبع^(٤)، وتقع في جنوب عسقلان عند سفح الجبال المحيطة بها، حشدوا فيها فرسانًا ومدرين من الإسطارية، وفي اللُد^(٥)، وهي بلدة متاخمة لمدينة الرملة، وكانت عاصمة فلسطين. ولاشك أن سقوط مدينة صور في أيدي الصليبيين بعد مقاومتها الشديدة لهم هي الأخرى؛ مما كان سببًا في التعجيل بسقوط عسقلان. وقد حاول ابن السلار، الوزير الفاطمي، أن يسير بنفسه لاستنقاذها^(٦)، لولا ظهور منافس له على منصب الوزارة، وبخاصة أن الأسطول المصري كان قد ازداد نشاطه في عهده؛ ففي عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، هاجم معظم الشغور التي كانت سقطت في أيدي الصليبيين، مثل: يافا، وعكا، وصور، وبيروت، وطرابلس، وصور^(٧). وعلى سبيل الانتقام؛ فإن ملك الفرنجة بغدوين الثاني - بلدوين - أرسل حملة برية إلى الفرما مدخل مصر من ناحية الشام؛ كما هاجم عسقلان في حملات متتالية من البر والبحر، وسقطت في يده في ٢٧ من جمادى الأولى سنة ٥٤٨ / ٢٠ أغسطس ١١٥٣^(٨)، وطرد أهلها منها، الذين خرجوا هائمين على وجوههم في العراق^(٩)، وأقطعت للأمير عموري، قبل أن يصبح ملكًا في بيت المقدس^(١٠) وقد أصبحت عسقلان على عكس ما كانت قبل سقوطها قاعدة بحرية هامة للفرنجة، مثلما كانت للمصريين من قبل، باعتبارها رمزًا للصمود المصري أمام الغزو الصليبي في فلسطين، وقامت وحدها من دون مدن الشام الأخرى بحرب استنزاف حقيقية كرد فعل لحركة الفرنج الصليبية في الشرق الإسلامي.

(١) نفسه، ٣ ص ٣٥٣.

(٢) نفسه، ٣ ص ١٣١.

(٣) نفسه، ٣ ص ٣٥٥ - ٣٥٨.

(٤) نفسه، ٣ ص ١٣٢.

(٥) نفسه.

(٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص ٧.

(٧) ابن القلانسي، ص ٣١٥؛ ص ٣٢٧ انظر. عناني، التجربة الإسلامية في مواجهة الصليبيين في مصر والشام، مجلة اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٥٩، ص ٣٢٧.

(٨) يقول أبو المحاسن: إن سقوطها في سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠م. انظر. النجوم، ص ٢٩٩.

(٩) وليم، ٣ ص ٣٧.

(١٠) نفسه؛ وبعده.

ولكن قبل سقوط عسقلان فى أيدي الفرنجة، نقل الفاطميون رأس الحسين المدفونة فيها منذ أيام الأمويين بعد مقتله فى عهد يزيد بن معاوية؛ وأقاموا لها مشهداً بالقاهرة فى عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(١)، لا يزال يحمل اسم: مشهد الحسين، وقد أصبح من معالم القاهرة الحالية. وقد اختلف فيمن أحضر الرأس، فلعله الوزير بدر الجمالى أو ابنه الأفضل الذى خلفه فى منصب الوزارة الفاطمية، أما المشهد ذاته، فبناه طلائع بن رزيك، وهو من أبرز وزراء الفاطميين، فى آخر أيام دولتهم.



ولكن الحمل الأكبر فى الصمود أمام الفرنجة أتى من جانب الترك السلاجقة، الذين تحملوا ضرباتهم الأولى؛ وكانوا بمثابة المخفر الامامى للمسلمين. وعلى عكس الصمود الفاطمى الذى انتكس بسقوط عسقلان؛ فإن الصمود السلجوقى قد أتى بنتائج باهرة، وأصبح بداية للصمود التدريجى أمام أوربا؛ مما مهد لليقظة الإسلامية، والعمل الموحد، وبخاصة بعد أن انضم الجسد العربى إلى الجسد التركى فى جهاد الصليبيين.

وقد أصبحت منطقة الموصل من بلاد الجزيرة، التى ظهرت شخصيتها منذ أيام الإسلام الأولى؛ بسبب وجود الروم أعداء الدولة الإسلامية فى بدايتها بجوارها؛ مما أوجد خطراً شديداً عليها، بحيث اعتبر إقليم الجزيرة فى أيام الأمويين والعباسيين الجناح الأيسر أو الجزرى، الذى يدافع منه عن ثغور المسلمين ضد الروم. أما فى وقت الصليبيين؛ فإن منطقة الموصل، وتقع فى طريق بغداد عاصمة الخلافة العباسية؛ قد أصبحت تواجه إمارة الرها الصليبية، وسكانها وقتذاك خليط من العرب والترك والأكراد، كانوا تحولوا إلى الإسلام فى

(١) المخطوط، ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٤، أبو الفداء، المختصر ١ ص ١٩١. ينفى ابن تيمية نقل الرأس فى العصر المملوكى.

انظر. مقالة: Schreiner: ٨٢، ٣٣، ZDMG.

معظمهم منذ ظهوره. فمن حكامها الذين سعوا الى توحيد إقليم الجزيرة لجهاد الصليبيين؛ نذكر: مودود، وأيلغازى، وآق سنقر البرسقى، وعلى الأخص عماد الدين زنكى، وابنه نور الدين.

فمودود (ت ٥٠٧هـ / ١١١٣م)^(١) - قطب الدين - وهو أمير تركى سلجوقى، كان قد عينه أخوه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل، فعمل على ضم الأماكن المجاورة إلى إمارته؛ ليجابه إمارة الرها الصليبية، التى حاصرها ولم يقدر على فتحها. فعبر الفرات الى الشام، ليتحد مع طُغتكين - أو طغديكين - أتابك دمشق التركى، فى حربه للفرنجية، فهزم الاثنان معًا بغدوين (أو بلدوين) الثانى، ملك بيت المقدس، وجوسلين "Joscelin" أمير الرها، وغيرهما من الفرنجية عند طبرية المجاورة للقدس. ولكن ولما صل عدد كبير من الفرنجية إلى أنطاكية، توقف مودود عن الجهاد وقتًا، وذهب للراحة فى دمشق؛ حيث قتل فيها، وربما كان ذلك بتحريض من طُغتكين - طغديكين - الذى كان أتابكًا لدقاق ابن تُتش وقتله، وانفرد بالسلطة، بحجة أن دقاق كان قد صالح الفرنجية^(٢).

أما إيلغازى بن أرتق (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م)^(٣)، صاحب ماردين، إحدى مدن بلاد الجزيرة؛ فمع أنه لم يكن حاكمًا للموصل فى أول الأمر؛ إلا أنه كان يحكم فى المنطقة المجاورة للرها؛ ثم ضم إليه حلب، بعد وفاة رضوان بن تُتش. فتمكن إيلغازى من إحراز انتصارات هائلة ضد إمارتى الرها وأنطاكية^(٤)، التى قتل فيها أميرها الفرنجى روجر «Roger»، وتولى بعده تنكريد «Tancred»؛ مما جعل ملك بيت المقدس بغدوين الثانى - أو بلدوين - يسرع لاستنفاذها، فلما سمع إيلغازى بذلك مات بالسكتة القلبية؛ فتولى بعده ابن أخيه المسمى بُلُك بن بهرام^(٥)، الذى تمكن من أسر ملك بيت المقدس، وجوسلين أمير الرها أيضًا، مما قوى من الروح المعنوية عند المسلمين، ولكن تمكن الاثنان من النجاة من الأسر فيما بعد عن طريق الخيانة.

(١) ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (الموصل)، تحقيق طليعات، ص ١٧ - ١٩.
(٢) الكامل، ص ٨، ٢٨٨، ٣٠٩؛ ابن العديم، ريدة الحلب فى: R. des Hist des Croisades, P. 595 - TIII, 596

(٣) التاريخ الباهر، ص ١٩، ٢٠، ٢٤، ٣١؛ الكامل، ص ٨، ٣٠٢. عن الأرائقة، أنظر قبله.

(٤) ولیم، ترجمة، ص ٢، ٣٤٨. (٥) نفسه، ص ٢، ٣٥٩

أما آق سنقر البرسقى^(١) (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦)، وهو من القادة السلاجقة فى أيام ملكشاه، الذى تولى على حلب وبعض مناطق بلاد الجزيرة، فقد حارب الفرنجة فى الرها، وخرَّب فى بلادهم، وصد حلفاً من ملك بيت المقدس وغيره^(٢)، ولكن آق سنقر قتله بعض الفداوية الشيعة، وكانوا انتشروا فى هذه المنطقة.

ولكن كان أعظم هؤلاء جميعاً هو عماد الدين زنكى^(٣) (ت ٥٤١ هـ / ١١٤٦م)، وهو الابن الوحيد لآق سنقر البرسقى، وكان أقطعه سلطان وقته السلجوقى محمود بن محمد بن ملكشاه الموصل، وجعله مريباً لولديه فعرف بالأتابك؛ لأن الأتابك هو من يربى أبناء السلاطين. ثم مالبت أن ظهر طموح زنكى، فضم إليه حلب أيضاً، التى كانت لأبيه من قبل، كماضم غيرها من مدن إقليم الجزيرة. وبعد موت محمود أصبح زنكى مع أخيه مسعود ضد الخليفة المسترشد، الذى رغب فى تولية السلطنة فى بغداد لغير مسعود هذا. وقد ذهب زنكى مع مسعود لحصار الخليفة فى بغداد، فهزمهما الخليفة، وكاد زنكى يهلك^(٤)؛ ولكن مسعوداً قتل الخليفة، وتولى السلطنة فى بغداد. وربما كان زنكى؛ يتربح موت مسعود، ليحكم هو الآخر فى بغداد^(٥)؛ حيث اعتبرت دولة بيت زنكى بعد ذلك أول دولة لأتابك ملكوا مع الخلفاء، بملاحظه القلقشندى^(٦).

وكان زنكى يرمى إلى ضم أتابكية دمشق^(٧)، الواقعة فى وسط الشام إلى ملكه؛ وهى التى - كما ذكرنا - كان أسسها طغتكين - أو طغديكين - حيث كانت هذه الأتابكية قوية فى عهده، وعهد ابنه بورى، الذى قتله الفداوية الشيعة فى الشام. وبعد بورى تولى ابنه إسماعيل؛ إلا أنه كان ظالماً فقتل، فتولى ابنه محمود

(١) التاريخ الباهر، ص ١٥ ومابعدا.

(٢) وليم، ص ٤٧، ٤٨.

(٣) نفسه، ص ١٥ ومابعدا؛ وفيات الأعيان، ص ٣٤٣ - ٣٤٤؛ انظر:

Ency. de l'Isl (Art Zangî) (4, P. 1294 - 5.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق الشيال، ص ٤٧، ٤٨، ٥١.

(٥) نفسه، ص ٩٥.

(٦) صبح الأعشى، ص ٤٤٧ - ٤٤٨، ص ٩، ٤٠٣، ٤٠٤.

(٧) عن ملوكها: وفيات الأعيان، ص ١٦٩؛ أبو الفداء، المختصر، ط. الحسينية، ص ٨ ومابعدا.

الذى سيطر عليه معين الدين أنر، مملوك طغتكين، ولما اغتيل محمود، ولى أنر جمال الدين بن محمود، ومن بعده أخاه مجير الدين. وكان زنكى يريد فى أول الأمر، أن يضم الآتابكية الدمشقية عن طريق الزواج من الخاتون أم محمود المسماة زمرد خاتون، التى استبدت: لتأخذ بثأر ابنها محمود الذى اغتيل. ومع أن زنكى حاصر دمشق فى سنة ٣٤٤هـ / ١١٣٩م؛ إلا أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها؛ بسبب استنجاد أنر بالفرنج، مما جعله يرفع الحصار عنها.

وعلى العموم يرجع الفضل إلى زنكى فى سعيه لرفع معنويات المسلمين حيث وصفوه بأنه صنيدي وبطل، يلهب حماس المسلمين بكلامه، وأنه شديد الدهاء^(١)، ويحارب الفرنجة بشدة؛ فعرف لهؤلاء باسم: «Sanguinus»، أى محب لسفك الدماء، أما المسلمون فسموه بالشهيد، لتفانيه فى جهاد الصليبيين. فيذكر له المؤرخون أنه كان لا يتقضى عليه العام، حتى يفتح بلاداً من بلاد الفرنجة. ولعل أهم انتصاراته عليهم، فتحه لمدينة الرها، التى اعتبرت من أشرف المدن وأشهرها عند النصارى لكثرة قديسيها، ولحصانتها الشديدة؛ فكان بها عدد كبير من الأبراج شاهقة الارتفاع^(٢). وقد تم له الاستيلاء عليها فى أثناء غية أميرها، جوسلين، الذى كثيراً ما كان يتركها ويقيم فى قلعة قرب الفرات، وكان حاصرها لمدة ثمانية وعشرين يوماً، وبعد أن حفر له عماله الأنفاق تحت أسوارها. دخلها فى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م^(٣) وقتل كل من فيها من الصليبيين، وجمع رؤوس القتلى وبنى بها منارة أذن عليها؛ ونكس صلبانها، وأباد رهبانها، ورتب العساكر الإسلامية فيها؛ وبذلك خلّص المسلمين من خطرها. وقد شُبه انتصاره فى الرها؛ بالانتصار فى بدر؛ إذ كان سقوطها سبباً فى انقسام المعسكر المسيحى، وبعدها لم يتبق من إمارات الصليبيين غير إمارتى أنطاكية وطرابلس، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس، بحيث كتب الشاعر الأرمنى نرسييس الرحيم "Narsès Schnorhali"، مراثية عن

(١) وليم، ترجمة، ص ٣، ١٣٦، ١٣٨.

(٢) نفسه، ص ٢٥.

(٣) الدولة الآتابكية فى: R. H. C. or, P. 118 Sq.؛ الكامل، ص ٨.

سقوطها تتكون من ١٣٥٨ بيتاً؛ إذ كان الأرمن وقتذاك متحمسين للفرجة أكثر من تحمسهم السابق للروم^(١)؛ على الرغم من اختلاف عقيدتهم الدينية معهم. ولكن زنكى قُتل على يد غلمانه؛ ربما بتحريض من السلطان السلجوقي^(٢) في بغداد ألب أرسلان في عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(٣)؛ وبذلك طويت صفحة مجيدة في سيرة الشهيد؛ كما عرفه المسلمون بهذه التسمية.

ولحسن حظ المسلمين أن ولدى زنكى لم ينقسما بعد قتل أبيهما وهما: نور الدين محمود، وغازي الأول سيف الدين؛ فأقام الأول في حلب، والثاني في الموصل^(٤)؛ وإن كان هذا الأخير مالئاً أن توفي. وقد بدأت شخصية نور الدين^(٥) تعزز مكانتها بين الزعماء الذين عملوا على اتحاد المسلمين، في منطقة الشرق الأوسط، ودفع الغزاة عنها؛ إذ كان في رأى مؤرخي وقته شخصية قوية، حتى أنها شُبهت بالخلفاء الكبار؛ لما كان يرمى إليه من عزة الإسلام. حقاً إن نور الدين، لم يصل إلى نتائج حاسمة في حروبه مع الصليبيين مثل صلاح الدين فيما بعد؛ إلا أنه تمكن من أن يبنى دولة إسلامية قوية، تقف بثبات أمام هجمات الصليبيين. فكان نور الدين بذلك من أبطال وحدة المسلمين في الشرق الأوسط، ولا سيما أنه كان من الزعماء النادرين، الذين وصفهم الأوربيون أنفسهم بالحكمة وجودة الساسة "Noradinus tam Prudens tanque Providus Princeps".

وبالفعل سعى نور الدين إلى ضم دمشق إلى حلب؛ كما كان يريد أبوه زنكى من قبل. ويبدو أن الخليفة المقتفى لأمر الله^(٥)، هو الذى حث نور الدين على ذلك، فممنحه تقليداً على البلاد الشامية، وعلى مصر التى كانت بيد الفاطميين. وقد أُتيحت الفرصة لنور الدين فى ضم دمشق بموت أنر، ذلك الرجل

(١) أنظر R. H. C. Arm, I, P. 223 - 278.

(٢) الأتابكية، ص ١٣١ ومابعدها؛ مفرج الكروب، ص ٩٩ ومابعدها.

(٣) مفرج الكروب، ص ١٠٩.

(٤) مثلاً، انظر. حسين مؤنس، نور الدين محمود، القاهرة ١٩٥٩.

(٥) حسن المحاضرة، ص ١٧. يكتبها المكتفى. عنه، انظر.

Ency de l'isl. (Art al - Muktafi) t. 3, p. 769.

الخائن لقضية المسلمين، وقضى عمره فى الكيد والدس، ومعارضة وحدتهم واعتبر صديقاً للصليبيين؛ وإن اعترف وليم الصورى أنه لايفهمه، ويشك فى ولائه لهم^(١). فلما تولى بعده الرجل الضعيف: مجير الدين، فإنه تحالف هو الآخر مع فرنجة بيت المقدس، ووعدهم بتسليم بعلبك لهم. ويظهر قصد نور الدين فى توحيد قوى المسلمين، من الكتاب الذى أرسله لمجير الدين، حينما ذهب لحصار دمشق، ورد فيه: أننى ما أردت بنزولى هذا المنزل، طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعائى إلى هذا الأمر، كثرة شكاية المسلمين، وعدم الناصر لهم، ولايسعنى، مع ما أعطانى الله - وله الحمد - من الاقتدار على نصرة المسلمين، وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم، ولا انتصر لهم، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستبصارخ على محاربتى.

وقد اتصل نور الدين بأنصاره فى دمشق^(٢)، وخصوصاً بأيوب - أحد كبار أعوانه الأكراد - الذى كان أنقذ أباه زنكى؛ لما حاربه خليفة العراق^(٣)؛ كما أن أخا أيوب المسمى شيركوه، كان هو الآخر فى خدمة نور الدين^(٤). ومن المؤكد أن شعب أتابكية دمشق العربى كان تواقاً إلى توحيد قوى المسلمين، حتى أن إحدى نساء دمشق، كانت أول من أدلى الحبال لجنود نور الدين لتسلق أسوارها، وهذا يدل على أن دمشق كانت سباقة دائماً الى الوحدة. وبذلك تحققت على يد نور الدين وحدة المسلمين من حلب إلى دمشق إلى الموصل، التى توفى فيها أخوه الأكبر غازى، كما ذكرنا^(٥)، فتولى بعده قطب الدين أخوه الأصغر، الذى سار على السياسة عينها فى التعاون مع نور الدين، وظهرت له عملة من الفضة والنحاس؛ عُرِفَت بالقراطيس، مثلما ظهرت لأبيه^(٦) من قبل.

(١) وليم، ترجمة، ص ٣ ١٢٤٦ ابن واصل، ص ١ ١٢٦، ١٢٧.

(٢) الخطط، ص ٣ ٣٧٨؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ٦٢ وما بعدها.

(٣) ابن واصل، ص ١ ١٨؛ انظر. ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبي، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٨.

(٤) النجوم، ص ٦ ٥.

(٥) الكامل، ص ٩ ٢٤. تولى غازى فى ٥٤٤هـ / ١١٤٩م - ٥٥٠م.

(٦) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ٧٥.

وعلى كل حال بفضل هذه الوحدة المحدودة، التي أوجدها زنكى من قبل ونور من بعده؛ فإن طرفا الهلال أخذوا يحدقان في بطن إمارات الصليبيين ومملكتهم. والواقع أنه منذ ذلك الحين؛ فإن نور الدين شنَّ حرباً شعواء ضدهم؛ فآخذ أملاكاً من إمارة أنطاكية، واستولى على مدن من إمارة طرابلس. ولشدة حماس نور الدين في قتال الصليبيين، عُوِّف كأيّيه بالشهيد، لطلبه الشهادة في قتالهم، واعتبر من أشد أعدائهم، على حسب قول المؤرخ الصليبي وليام الصوري^(١) "Noradinus Creueus anemi aus Crestins"



ولما كان خبر استيلاء زنكى على الرها قد انتشر في أوروبا، واشتهر صيته دون بقية الأتابكة عند الصليبيين؛ فإن ملك بيزنطة - الروم - يوحنا الثانى كالوجوهانيز «Joan II Calojahannes»؛ قدَّر خطر هذا الزعيم السلجوقي على النصرانية كلها، فعاد إلى الاتحاد مع الفرنجة، ولاسيما أن أرملة أمير أنطاكية قد استعانت به؛ خوفاً على إمارتها. فخرج في جيوش كثيرة من اليونان والأرمن والفرنجة للاستيلاء على حلب وكانت من أملاك زنكى؛ الذى اضطر إلى طلب المدد والعون من بغداد؛ لاعتقاده أنه إذا ذهب حلب لم يبق بالشام إسلام، إلا أن السلطان السلجوقي أوالخليفة العباسى؛ لم يهتم إطلاقاً بطلب زنكى؛ ومع ذلك استطاع زنكى أن يرغم يوحنا هذا على التقهقر، واستولى على بعض الثغور بين الشام وأنطاكية؛ لتقوية مركزه^(٢).

وعلى كل حال؛ فقد دعت أوروبا، على أثر استيلاء زنكى على إمارة الرها، وانتصاره على ملك الروم، إلى قيام حملة صليبية جديدة، وهى الحملة الصليبية الثانية، التى جاءت إلى الشرق بعد اغتيال زنكى، الذى قتله أحد غلمانه كما ذكرنا. ولدينا وصف مسهب عنها من مؤرخين شرقيين^(٣)، ومن أودودى ديل "Odo de Deil"، المؤرخ الصليبي الذى رافقها إلى الشرق. فقد دعا إلى القيام بها،

(١) وليم، ترجمة، ٣ ص ٣٢٥.

Champador : Saladin, Paris, 1956, P. 66

نقلها عنه:

(٢) ابن واصل، ١ ص ٧٨ - ٨١.

(٣) أبو شامة، الروستين، ١ ص ٣٦ - ٣٧، ٥٢ - ٥٣؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩ -

٢٨.

البابا بوجينوس الثالث «Eugenius» III (١١٤٥ - ١١٥٣م)، كلا من ملك فرنسا لويس السابع «Louis VII»، وملك الألمان كونراد الثالث «Konrad III»^(١)، وكلف القديس برنارد «Bernard»، أن يدعو لها؛ حيث اعتبر في وقتها الروح والضوء لتحمسه الشديد في قتال المسلمين، وكان يمزق ثوبه ليصنع منه صليباً^(٢). ولم تكن هذه الحملة الصليبية الثانية. حملة فرسان مشهورين كالحملة السابقة، بقدر ما كانت حملة ملوك؛ حيث خرج ملوك أوروبا لأول مرة خارج بلادهم، واتحدت فرنسا وألمانيا معاً في حرب المسلمين، على الرغم من عداوتهما التقليدية. ولم يكن مقدراً في هذه الحملة أن تصحب الملكات أزواجهن الملوك، ولكن ملك فرنسا اصطحب معه زوجته إليانور «Eléanore»؛ لأنه لم يكن يثق فيها؛ حتى يتركها وحدها؛ وهي التي عرفت بمغامرتها، ولم يكن يعجبها أن تتزوج رجلاً متديناً مثل لويس.

وقد بدأت الحملة الصليبية بداية سيئة، بسبب العداوة المتأصلة بين الفرنسيين والألمان، ثم مالبت ملك القسطنطينية، مانويل الأول كومنينوس «Manuel, I Com-nenus» الذي تولى بعد يوحنا الثاني في عام ١١٤٣م، أن فعل هو الآخر مع الملكين مثلما فعل ألكسيوس مع كبار فرسان الحملة الأولى، فطلب منهما أن يحلفا له بيمين الولاء، فحلفاه ضد رغبتهما «Contre - Coeur»؛ مع أنه اقترح على ملك فرنسا أن يستولى على بيزنطة. إلا أن الملكين: الفرنسي والألماني، لم يتفقا على خطة عسكرية واحدة؛ فاتجه ملك الألمان بمفرده إلى درولييه «Dorylaeum» في ناحية الترك السلاجقة في أكتوبر ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م؛ حيث منى بهزيمة ساحقة في المكان ذاته الذي انتصر فيه صليبيو الحملة الأولى. ومع أن ملك فرنسا أسرع في إثر ملك الألمان لإنقاذه، واستقبله مفتوح الذراعين؛ فإن ملك الألمان لم يسر معه، ورجع إلى بيزنطة، وبرح منها إلى عكة.

(١) انظر. Castries: La Con quête de la Terre Sainte, 1973, P. 33.

(٢) عنه بتفصيل، انظر: Konrad III, 2Vols Leipzig, 1883. CF.: Bernhardi.

(٣) انظر. عبد الله الربيعي، الدوافع الدينية للحركة الصليبية، المورخ العربي، ٤، ١٩٩٦، ص ٧٩ وما بعدها.

أما ملك فرنسا^(١)، الذي أراد أن يتفادى السلاجقة، فقد لقي مفاجآت كثيرة في الطريق، وكاد يقع في الأسر، إذ عمد الترك السلاجقة إلى قطع خطوط تموينه، حتى لم يبق لدى الفرنسيين شيء من متاعهم، وأصبحوا يعيشون على ما كانت بيزنطة تمدهم به من ناحية البحر؛ بحيث قضى على جزء كبير من الجيش الفرنسي، واضطر الملك الفرنسي أن يذهب إلى أنطاكية عن طريق البحر. وهناك، في أنطاكية، حدثت فضيحة «Scandale»، في البيت الملكي الفرنسي؛ فقد أعلنت إليانور نفورها الشديد من لويس، أما الملك من ناحيته فلاحظ تقارباً بين إليانور وأمير أنطاكية الشاب ريموند «Raymond» أو «Raimond»؛ مما أثار غيرة الملك، وحققه على زوجته الخفيفة. وكان من رأى ريموند، أن يوجه الملك مجهوده لاستعادة الرها، التي قامت من أجلها الحملة الصليبية الثانية، وتبقى إليانور في أنطاكية. ولكن الملك الفرنسي الغيور، خاف منه على زوجته، وطرح مسألة الرها جانباً، وقرر أن يسير إلى بيت المقدس، ويقابل كونراد، ويهاجم أنابكية دمشق.

فلما هاجم الملكان دمشق ساعدا ولدا زكى: غارى ونور الدين أنابكية دمشق، التي بها معين الدين أنر، بالدفاع عنها ضد هذه الحملة الصليبية، التي حاصرتها في ٥٤٣هـ / ١١٤٨م. وكان لحسن حظ المسلمين أيضاً؛ أن ملك بيت المقدس بغديون الثالث، لم يكن مستعداً للتعاون مع الملكين الغربيين. وقد حارباه الأخوان متحدين، وأكروهما على التراجع^(٢). وهكذا اضطر الملكان إلى الرجوع إلى بلادهما، بعد أن أخفقا في حملتهما، وفقد ملك فرنسا ثقته بزوجته؛ حيث طلقها بعد ذلك؛ ولكنها سرعان ما تزوجت من غيره، وهو الكونت الفرنسي أنجو Anjou^(٣).

* * *

والخلاصة أن المسلمين في الشرق الأوسط - وهم العرب - وقد انضم الترك السلاجقة إليهم، لم يستسلموا؛ وإنما شنوها حرباً استنزافية قوية؛ مما أدى إلى اليقظة الإسلامية، ورجحان كفة المسلمين بعد ذلك.

(١) أنظر:

Michel le Syien: Chronique, 13, P. 276; Rey: Hist. des Princes d'Ationch. Paris, P. 467.

حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، ص ٥١ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ١١٢ وما بعدها؛ الكامل، ص ٩ - ٢٠ - ٢١؛ الأنابكية، ص ١٥٩.

وما بعدها.

(٣) وليم، ترجمة، ص ٣٠١.

الفصل الرابع

ظهور صلاح الدين، وتأسيس الدولة الأيوبية

يعتبر صلاح الدين بن أيوب، المؤسس الأول للدولة الأيوبية في مصر؛ حيث تتفق أغلب المصادر التاريخية على أن أصل أسرته من الكرد^(١)؛ ولذا أطلق على دولته فيما بعد دولة الأكراد^(٢). وقد تعنى كلمة كرد الذئب، وهى بذلك تدل على طبيعة بلاد الأكراد الجبلية، التى كانت - كما يظهر - مأوى للذئاب. وعلى العموم لانعرف من أين جاء الأكراد، ولعلمهم هجرة آرية قديمة؛ وإن كنا نعرف أنه لما جاء الإسلام اعتنقوه منذ وقت مبكر. وهناك ملاحظة من قبل المؤرخين أن الكرد خلّاق لا تحصى وأمم لا تحصر، ولولا أن سيف الفتنة بينهم يستحصدهم^(٣)، ولا يجعلهم يفيضون على البلاد؛ إذ رموا دائماً بشقاق الرأى، وتفرق الكلمة^(٤).

ومع ذلك، هناك رأى آخر ينسب أسرة صلاح الدين إلى أصل عربى؛ حيث كانت قبائل العرب تنزل عند الأكراد وتتزوج منهم، وهذه الأسرة بالتخصيص من نسل المروانيين، فرع بنى أمية؛ فصلاح الدين: هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى (أو شاذى) بن مروان الكردي^(٥). فلعل ربطها بمروان الكردي - كما يبدو - لا يقصد به اتصالها بجذ حقيقى عُرف بهذا الاسم؛ أكثر مما يقصد به إلى أنه من سلالة الخليفة مروان بن محمد آخر الأمويين، الذى كانت أمه كردية. فيقول المؤرخ المحقق ابن خلكان: إنه لا يعرف لهذه الأسرة جد بعد شادى، مع أنه اطلع على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك أفرادها^(٦). ويقول المقرئ أيضاً إن نسبتها إلى

(١) من بين عدة مصادر: شرف خان، شرفنامه (تاريخ الكرد)، تحقيق Zernorf، ١ ص ٥٥؛ انظر: Ency de l'Isl. (art Kurdes) t2, p. 1204.

(٢) ابن إياس، بدائع، ١ ص ٦٩.

(٣) أنظر. ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبي، ط ٢، بيروت [مهمشة] ص ٥١؛ Marin: Histoire, de Saladin, II, p. 87.

(٤) العمري، المصطلح الشريف، ص ٣٧.

(٥) وفيات الأعيان، ٣ ص ٤٧١؛ الخطط، ٣ ص ٣٧٨.

(٦) وفيات الأعيان، ٣ ص ٤٧٠ - ٤٧١.

أصل غير كردى، هو من أقوال بعض الفقهاء، الذين أرادوا الخطوة لديهم، لما صار الملك إليهم^(١).

كذلك اختلف فى المكان الذى أتت منه هذه الأسرة، فقيل الموصل أو سجستان، أو دوين (دبيل)، بلدة على حدود إقليم أذربيجان من جهة الشمال من ناحية أرمينية^(٢) فجدها شادى هاجر إلى بغداد، التى كان يسيطر عليها السلاجقة، وأنه تداخل مع أمرائهم ورجال دولتهم بقوة شخصيته؛ فمنحوه حكم قلعة تكريت على الضفة اليمنى من نهر دجلة شمال سامرا؛ حيث يبدو أن أغلب سكانها كانوا من الكرد^(٣). وبعد موت شادى، أصبح ابنه نجم الدين أيوب وريثه فيها، فعين عليها دداراً، أى حافظاً لقلعتها؛ إذ در بالفارسية تعنى القلعة، ودار حافظها^(٤). فكان يعاونه فى حكمها شيركوه - بمعنى أسد الجبل - الملقب أسد الدين، وهو أخوه الأصغر^(٥). فولد لأيوب فى تكريت هذه ابنة صلاح الدين يوسف؛ حيث ذكرت تواريخ كثيرة لمولده، اتفق المؤرخون منها على عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م^(٦).

ومع ذلك؛ لا يبدو أن إقامة هذه الأسرة فى تكريت قد طالت بعد ولادة صلاح الدين؛ إذ لما ضم أتابك الموصل وحلب، وهو عماد الدين زنكى - زنجى - وهو سلجوقى، بعلبك إلى أملاكه^(٧)، وهى قرية من دمشق من جهة الساحل، وكانت من أملاك أتابكية سلجوقية أخرى، هى أتابكية دمشق المنافسة له؛ فإنه سلمها إلى أيوب، وجعله أميراً عليها فى سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م^(٨). ولاشك أن صلاح الدين ترعرع فى هذه المدينة، وإن لم تكن لدينا تفاصيل عن طفولته أو فترة

(١) الخطط، ٢ ص ٣٧٨.

(٢) وفيات الأعيان، ١ ص ١٥٢. عن دوين: معجم البلدان، ٤ ص ١١٢؛ انظر.

Ency de l'IsI, (art Dwfn) ti, p. 1119.

(٣) نفسه، ١ ص ١٤٩ - ١٥٠. عن تكريت: معجم البلدان، ٢ ص ٢٩٩ - ٤٠١؛ انظر: Minorsky, Pre-history of Saladin S.C.H. Cambridge, 1953, pp. 107 - 129; Ency de l'IsI, (art Takrit) 14, pp. 663 - 664.

(٤) وردت فى سيرة صلاح الدين. انظر. وفيات، ١ ص ١٤٩ - ١٥٢؛ ٣ ص ٤٧٢.

(٥) عنه: نفسه، ١ ص ٤٠٥ - ٤٠٧؛ انظر. Ency de l'IsI, (art Shirkūh) 14, p. 395 - 397.

(٦) وفيات الأعيان، ٣ ص ٤٧٤.

(٧) عن ملوكها: نفسه، ١ ص ١٦٩؛ أبو الفداء، المختصر، ٣ ص ٨ وما بعدها.

(٨) الخطط، ٣ ص ٣٧٨؛ وفيات، ٣ ص ٤٧٤. عن بعلبك: معجم البلدان، ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها.

بلوغه. ومن المؤكد أن أباه أيوباً أحسن تربيته، فيصف المؤرخ ابن الأثير أيوباً بأنه كان له عقل ورأى وحسن سيرة^(١).

ولعل أيوباً وأخاه شيركوه كانا يشاطران عماد الدين زنكى فى حروبه ضد أتابكية دمشق^(٢) السلجوقية، التى أصبح يسيطر عليها معين الدين أنر فاستعان بصليبي بيت المقدس، وعقد معهم اتفاقية^(٣)، وكان يبذل غاية جهده ليكسب مودتهم مصطنعاً شتى الأساليب؛ ويتساءل ولينم الصورى^(٤)؛ إن كان صادراً عن نية صادقة، أو أنه أمر فرضته الضرورة، وإن كان على ما يبدو يريد السلام معهم. ولكن بعد موت عماد الدين زنكى؛ فإن أنر هاجم بعلبك التى كان فيها أيوب الذى سلمها له، وانتقل هو وأبناؤه معه إلى دمشق، وأصبح أحد قواد هذه الأتابكية^(٥). وعلى النقيض اتصل أخوه شيركوه بخدمة نور الدين صاحب حلب، بعد موت أبيه عماد زنكى، وصار مقدم عسكريه^(٦). ويظهر هذا التصرف من جانب الأخوين غامضاً، فربما كانت لهما أطماع خاصة فى السيطرة على الأتابكيتين؛ بأن ورعا شخصيهما بينهما، أو أنه على الأقل كان هناك تدبير سابق بين نور الدين وأيوب؛ للسيطرة على أتابكية دمشق، التى كان يطمع فيها أبوه عماد الدين، كما ذكرنا. وبالفعل تمكن نور الدين بمساعدة شيركوه من الاستيلاء على دمشق من مجير الدين، الذى حل مكان أنر فى دمشق بعد موته؛ إذ يذكر المقرئى أن أيوباً سلمها لشيركوه، بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق؛ لما حاصرها نور الدين فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م^(٧). فنقل نور الدين إليها مركز حكمه، فعين أيوباً حاكماً عليها، وشيركوه نائباً عنه، وصلاح الدين رئيساً لشرطتها «الشحنجية»^(٨). وكان قد بدأت تظهر على صلاح الدين أمارات الذكاء والشجاعة التى تعلمها من نور الدين. ومن المحقق أن أسرة صلاح الدين، قد تمكنت تماماً من دولة نور الدين، وأن صلاح الدين بدأ يدخل مسرح التاريخ هو وأسرته.

(١) الأتابكية، ص ٢١٣.

(٢) ولينم ترجمة، ص ١٧٥.

(٣) نفسه، ص ١٧٥ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٢٤٦.

(٥) مفرج، ص ١١٠؛ الكامل ٩٢ ص ١٦.

(٦) النجوم، ٦ ص ٥.

(٧) الخطط، ص ٣٧٨؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ٦٢ وما بعدها.

(٨) وفيات الأعيان، ص ٤٧٤؛ النجوم، ص ٦، ٨. الشحنجية وردت فى القاموس الفارسى؛ بمعنى مكتب

رئيس الشرطة المسمى شحنة. أنظر. نفسه، ص ٥٠١ وهامش رقم (٢).

ومن المؤكد أن أهداف هذه الأسيرة الأيوبية كانت تتوافق مع أفكار الأتابك السلجوقي نور الدين في وحدة مسلمي الشام والجزيرة، وعلى أمل أن تمتد إلى أكثر من ذلك في إقامة الوحدة الكبرى مع مصر؛ وذلك بسبب أن مصر غنية بالمال والرجال، وأنه لا يمكن طرد العدو إلا بقوة مصر ورجالها. ولانسي أن الخليفة العباسي السني كان يستحثه على ذلك؛ إذ كانت توجد في مصر خلافة أخرى شيعية معارضة للعباسيين. يضاف إلى ذلك أن نور الدين كان يشعر بطموح الفرنجة إلى الاستيلاء على مصر، وكانت مصر الفاطمية وقتذاك أشبه بالرجل المريض؛ إذ تنافس الوزراء العظام على حكمها دون الالتفات إلى أخطار الفرنجة.

وكان الأقدار قد دبرت الأمر له وللأسيرة الأيوبية معه. فكان هناك نزاع بين وزيرين مصريين: أحدهما اسمه ضرغام، والآخر اسمه شاور، فجاء هذا الأخير إلى نور الدين في ٥٥٨هـ / ١١٦٣م، ليستعين به ضد ضرغام، وأطمعه في الديار المصرية، ووعدته بحصة من خراجها مقدارها الثلث سنوياً، ويمنح جنده الإقطاعات والإقامة في مصر، ويكون متصرفاً تحت أمره ونهيه. فأسرع نور الدين متنهزاً الفرصة بإرسال شيركوه مع جند الشام^(١)، فأقام شيركوه شاور في الوزارة، الذي لقب بالملك المنصور^(٢)، وربما يكون شيركوه من أسرة بني أيوب، هو الذي حرض نور الدين على ذلك^(٣)؛ أو لعله فكر في تأسيس ملك له فيها، وأراد أن يكون عزيز مصر، أو على الأقل وزيراً فيه للفاطميين^(٤).

هذا الاتحاد بين الشام ومصر لاتغيب خطورته عن نظر الفرنجة؛ حتى أن المؤرخ ابن واصل يقول^(٥): «إنهم خافوا من اتحاد مصر والشام خوفاً شديداً وأيقنوا بالهلاك، وأن بلادهم تستأصل به. ولجئ بغدوين الثالث - ملك بيت المقدس - ليقطع كل أمل في ذلك، أسرع بالاستيلاء على عسقلان على الساحل، التي كانت تابعة للفاطميين، وآخر معقل لهم على الساحل الشامي، وفيها حامية مصرية،

(١) الكامل، ٩ ص ٨٤ - ٨٥؛ الأتابكية، ص ٢١٥، ٢١٦؛ مفرج، ص ١٣٧ ومابعدها.

(٢) صبح الأعشى، ١٠ ص ٣١٠ - ٣١٨.

(٣) وفيات الأعيان، ٣ ص ٤٧٦ س ١٠.

(٤) مفرج، ص ١٣٩.

(٥) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص ١٥٢، ١٥٣.

قاومتهم لمدة خمسين عاماً إلى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م^(١). كذلك جدد الفرقة الاتصال بالبيزنطيين طوال السنوات العشرين التالية، فتزوج بغدوين الثالث هذا من بيت كومنينوس؛ كما تزوج ملك بيزنطة مانويل كومنينوس بمارية ابنة أمير أنطاكية. لما جاء بعده عموري «Amauri»، المسمى أيضاً أملاريك «Amalricus»، - سماه العرب غالباً في كتبهم مري - وهو أخوه الأصغر، وكان عينه من قبل حاكماً على عسقلان قبل توليه الملك^(٢)، تزوج هو الآخر بابنة أخي مانويل كومنينوس^(٣)؛ مما قوى الصلة بين الروم والفرقة.

وفي أول الأمر، يعرض عموري على الوزير الفاطمي ضرغام^(٤) - Dargam - المساعدة ضد شاور، لكى يسبق مساعدة نور الدين لشاور. ولكن شاور الذى استدعى الترك السلاجقة؛ ليحتفظ بمنصب الوزارة، راح يعمل فى هذه المرة على الاتصال بالفرقة^(٥)، ويدعوهم إلى إخراج جند شيركوه؛ وكان شاور مثل أنر يستعين بالفرقة فى سبيل مصلحته الشخصية. فجاء عموري إلى مصر وحاصر جيش نور بقيادة شيركوه - «Syracons» - وانتهى الأمر بخروج جيش نور الدين والصليبيين من مصر^(٦).

ولكن نور الدين أرسل شيركوه مرة ثانية^(٧)؛ كما أن شاور أرسل ثانية إلى الفرقة يستنجد بهم فأرسل عموري رسله إلى مصر؛ ولدينا وصف لما شهدوه من بذخ القصر الفاطمي^(٨)، ثم أتى بنفسه إلى مصر. ونظراً للمقاومة التى وجدها

(١) توفي فى سنة ٥٤٧هـ / ١١٣٥م، أو فى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م انظر الكامل، ص ٨، ٢١٩، ص ٩، ص ٤٢ النجوم، ص ٢٩٩.

(٢) انظر. 3 - 942 p. R.H.C. Occ. II, 2ème Partie.

(٣) ولیم، ترجمة، ص ٣٧٣؛ وقبله.

(٤) انظر. 892 p. R.H.C. Occ. II, 2ème Partie.

(٥) انظر. Id.

(٦) مفرج، ص ١٤٠؛ الأتابكية، ص ٢١٧ - ٢١٨؛ الخطط، ص ٢، ١١٧٤ انظر. Schlumberger roi. Campagnes du Amaury. Paris: 1906, p. 63 - 80.

(٧) الكامل، ص ٩، ص ٩٤ - ٩٦ مفرج ص ١٤٨ وما بعدها؛ الخطط، ص ٢، ١٤٢ - ١٤٣، ١٤٧ وفيات ص ٤٠٥ وما بعدها، ص ٣، ٤٧٧؛ الأتابكية، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ١١٠ وما بعدها.

(٨) انظر: Schlumberger: Op. Cit. p. 116 - 127; R.H.C. Occ II, 2ème Partie.

913 - 910 p. المنجد، كتاب الرسل والملوك، ص ١٢٧ - ١٢٩.

عمورى من جيش شيركوه^(١)، ومعاونة المصريين له^(٢)، قرر ترك مصر على شرط أن تكون له حامية فى القاهرة - سموها Cahaire - وأن يدفع الفاطميون له بعض المال.

بعد ذلك، قرر عمورى أن يقوم بعمل حياسم فى مصر بالاتفاق مع البيزنطيين، ولايقنع بوجود حاميته الصغيرة فى القاهرة. ولكى يدبر عمورى حملته على مصر سعى إلى الاتفاق مع البيزنطيين. وقد ترك لنا المؤرخ الصليبي وليم الصورى صورة للاتفاقية التى وقعها بنفسه نيابة عن عمورى، فقد اتفق الطرفان على أن تكون الحملة برياسة عمورى، وأن يطيعه القائد البيزنطى فى كل مايأمره به^(٣). ومع أن عمورى نفسه كان يفضل انتظار وصول الجيش البيزنطى؛ إلا أن فرسان المملكة وذوى رأى فيها، أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم، ولتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين؛ إذ كان فى اعتقادهم أن فتحها يكون سريعاً؛ بسبب أنه كانت لهم أبواب القاهرة حامية. فأسرع عمورى على رأس الفرنجية بالدخول إلى الريف المصرى فى شرقى الدلتا^(٤)، وارتكب جيشه فى بلبيس فظائع كبيرة، ثم سار على الفسطاط فى جنوبى القاهرة، العاصمة الإسلامية القديمة، وكانت ازدهرت فى أيام الفاطميين على حسب وصف الرحالين. ويذكر المقرئى أن شاور الذى أدرك نيات الفرنجية فى احتلال مصر؛ فأحرقها^(٥)، واستخدم فى حريقها عشرين ألف قارورة نפט، وعشرة آلاف مشعل. وقد ظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوماً؛ حيث لاتزال آثارحريقها موجودة إلى وقتنا الحاضر، فى التلال المعروفة بالكوم أو الكيمان، فى حى مصر القديمة.

(١) أنظر. 3 - 142، Schlumberger: Op. Cit., p. 910 - 913; R.H.C. Occ tl, 2^e Partie.

جيش، نور الدين، ص ١١٥.

(٢) الروضتين، ص ١٦٨.

(٣) أنظر. R.H.C. Occ tl, 2^e Partie, p. 945 sqq.

(٤) الجرم، ص ٣٥٠، الكامل، ص ٩٩ ومابعدها؛ مفرح، ص ١٥٧ ومابعدها؛ الروضتين، ص ١٧٠.

Ency. del'Isl. (Art al - Sharkiya) 14, p. 345 - 6. أنظر.

(٥) الخطط، ص ٢، ١١٤٣ أنظر. Fouilles d'al - Foustât. Paris, 1921: Ali Bathgat.

وقد كان من الممكن أن ينتصر عمورى فى مصر ويستولى عليها؛ لولا تدخل نور الدين بإرساله شيركوه مرة ثالثة، ومعه ابننا أيوب: صلاح الدين، وأبو بكر العادل، وهذا الأخير سيكون هو الآخر سلطاناً على مصر، وكانت أول مرة يذهب فيها لمصر، على عكس صلاح الدين الذى ذهب إليها مرتين. كما أن نور الدين فكر هو الآخر أن يأتى إليها بنفسه لخطورة الموقف^(١). ويورد المؤرخون أن الخليفة العاضد الفاطمى هو الذى استنجد بنور الدين، وقال له: أدركنى واستنجد نساى من أيدى الفرنجة^(٢)، أو أن المصريين هم الذين استنجدوا بجيش الشام^(٣).

وقد استطاع جيش شيركوه تخليص القاهرة من خطر الفرنجة؛ لأن عمورى كان مضطراً فى هذه المرة إلى قتال عسكر مصر والشام معاً، بعكس المرات السابقة؛ مما جعله يرحل عن القاهرة. ويقول المؤرخ ابن واصل: لو استولى العدو - لعنه الله - على الديار المصرية؛ لاستولى على سائر الخطة الإسلامية^(٤). - يوهزيمة عمورى أصبحت مصر فى قبضة جيش نور الدين، وتولى شيركوه وزارة العاضد الفاطمى^(٥)، بعد قتل شاور^(٦) على يد صلاح الدين، بموافقة العاضد؛ لخيائته للمسلمين، وممالأته للأجانب، وذلك فى أثناء زيارة شاور لشيركوه، فقبض عليه صلاح الدين وكتفه وأخذه ليقتله؛ وإن كان من حيل شاور قبل أن يقتل، أنه دبر مؤامرة لقتل شيركوه وصلاح الدين، ولكنها لم تقم؛ لأنه قدّر حقيقة كره المصريين له لاستبداده بهم وحرقة الفسطاط، وفقد كثير منهم بيوتهم ومتاعهم؛ بحيث هجروها. وقد أصبح شيركوه بتوليته وزارة العاضد: السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أى أنه سيطر على كل شىء فى الخلافة الفاطمية؛ بما فيها الجيوش، والقضاة، والدعاة. فكان لقبه

(١) الأتابكية، ص ٢٥٤.

(٢) حسن الحاضرة، ص ١٨.

(٣) الكامل، ص ٩ ص ١٠٠ ص ١١٠.

(٤) مفرج الكروب، ص ١٦٠.

(٥) صبح، ص ٨٠ - ٩٠.

(٦) النجوم، ص ٥ ص ٣٥١، ٣٥٢: الكامل، ص ٩ ص ١٠١. يقال قتله جوريك النورى (ت ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م)، وهو تركى ذيل الروضتين، القاهرة ١٩٢٧، ص ١١.

المنصور، وهو لقب شاور السابق، وأن أصبح له لقب السلطان أيضًا، دون أن يتلقب به وزراء الفاطميين من قبل.

ولكن شيركوه توفى أو قتل بالسم، ممن لانعرف، ربما من العاضد أو صلاح الدين، ولم يمكث في الوزارة أكثر من شهرين. فتولاها بعده صلاح الدين - ابن أخ شيركوه - ولقب بالملك الناصر؛ وإن غلب عليه لقب السلطان أيضًا، دون أن يتلقب به في ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ٢٦ مارس ١١٦٩م. وقد أثير حول تولية صلاح الدين الوزارة أقوال كثيرة؛ منها أنه تولها بوصية سابقة من شيركوه، كما ورد في سجل توليته، الذي كتب فيه الخليفة العاضد بخط يده، مع أن الخلفاء الفاطميين لا يكتبون إلا نادرًا، ورد فيه: «هذا عهد لعهده لوزير بمثله»^(١). فقد اختاره العاضد لأنه جمع بين حكمة المشيب وومضاء الشباب، وخوله السلطات التي كان خولها لعمه شيركوه. فخرج سجله في قماش أبيض، وألبسه العاضد بنفسه أمام جمع عظيم من موظفي الدولة في يوم مشهود خلعة الوزارة، وجميعها لونها بيضاء^(٢)، شعار الخلافة الفاطمية الشيعية وتتكون من عمامة بطرز ذهب، وثوب بطرز ذهب، وجبة بطرز ذهب، وطيلسان أو طرحة بطرز ذهب، وعقد جوهر، وسيف محلى بجوهر، وفرس لم يكن بالديار المصرية أسبق منه، وتخت^(٣) ضخمة يوضع حول رقبة الفرس، وسرفسار^(٤) وهو من أطقم الخيل، وحجر^(٥) مشددة - إيشارب - فيها جوهر وهو لزينة الفرس؛ وأربع قوائم، وأربعة عقود من جوهر كلها زينة للفرس. وتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية، ولم يكن عمره يزيد على اثنتين وثلاثين سنة؛ فتحت صفحة جديدة في تاريخ

(١) صبح الأعشى، ١٠ ص ٣٠٨. نص السجل. نفسه، ١٠ ص ٩١ وما بعدها؛ الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١ ص ٥ ٤ وما بعدها.

(٢) الروضتين، ١ ص ١٧٣ ص ٤٣٩؛ حسن المحاضرة، ٢ ص ١٨. عن رى الوزراء، انظر. ماورد في كتابنا نظم الفاطميين، ١ ص ٨٩ وما بعدها.

(٣) انظر. Suppl, P 142.: Dozy. وهى من أطقم الخيل.

(٤) سرفسار كلمة فارسية. انظر. Ibid, 2, p. 2 60.

(٥) انظر. Ibid, I, p. 737. الحجر نفسه جوهرية

مستقبله الباهر؛ إذ إنه فى مصر ظهر لأول مرة ما كمن فى شخصيته من صفات السياسة والحكمة، كما أصبح أبرز فرد فى أسرته، وأبرز من أبيه أيوب؛ ولم يكن أقوى منه بين أمراء نور الدين.

حينئذ قرر عمورى من جديد، الاستعانة بالبيزنطيين بقصد احتلال الدلتا؛ وذلك بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى ثغر دمياط الهام على فرع النيل المسمى باسمه، بلغت مايزيد على ألف ومائتى مركب، وذلك فى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م^(١). ، على الرغم من غضب مانويل «Manuel» البيزنطى على عمورى «Amauri»؛ بسبب قيامه بالحملة السابقة وحده؛ ومع ذلك وافق على إرسال أسطول اليونان القوى إلى عسقلان، بقيادة أندرينكوس كوتستفانوس "Andronicus Contostephanus". وقد أورد لنا المؤرخ الصليبي وليام الضورى (١١٤٣ - ١١٢٨م)، صورة لهذه الاتفاقية، التى وقعها نيابة عن عمورى^(٢) فى هذه المرة أيضاً.

فلما وصلت الحملة إلى دمياط، بذل صلاح الدين، ومعه المصريون من جند الفاطميين، مجهوداً هائلاً؛ لتستمر مقاومة حاميتها^(٣)؛ كما أن نور الدين هاجم حصون الفرنجة^(٤)، وترتب على ذلك إخفاق الحملة فى اقتحام ثغر دمياط. وبعد خمس وخمسين يوماً عادت تيجر لقيال الفشل؛ كما أن بلاد الفرنجة فى الشام أصبحت خراباً يباباً من هجوم نور الدين. وقد شبهت هذه الحملة بالنعامة، التى ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين^(٥).

* *

وبعد هذا الانتصار ورغبة فى توحيد جبهة المسلمين فى المنطقة العربية، قرر صلاح الدين، بتحريض من نور ومخليفة العباسى، القضاء نهائياً على خلافة الفاطميين، أو لعله أراد أن يقوم بدور فى سياسة المسلمين؛ إذ لا يذكر المؤرخون له أطماع مبكرة. ونحن لانستبعد تولد الطموح عنده إلى السؤدد والرياسة؛ وذلك

(١) الخطط، ٢ ص ٣٤٦؛ انظر: Campagnes, p. 258 - 61: Schlumberger. عن دمياط، انظر. معجم

البلدان، ٤ ص ٨٥ - ٨٩.

(٢) انظر. R.H.C. Occ, t I, 2ème partie, p. 961, n (9).

(٣) الروضتين، ١ ص ١٨١.

(٤) الأتابكية، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٥) نفسه، ص ٢٦٠، الكامل ٩٢ ص ١٠٥.

بعد أن وضعته الأقدار في هذه الظروف . ويمكننا أن نحزم بأن صلاح الدين أصبح من أهدافه الكبيرة دفع خطر الصليبيين وإليه وإلى عمه يرجع الفضل في أن مصر بقيت للمسلمين .

ومع أن صلاح الدين، لم يستطع ذلك في أول الأمر، إلا أنه اتخذ التدابير التدريجية لبلوغ هذا الهدف . فعمل على محاربة الدعوة الفاطمية، وساعده في ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة . فعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وولى بدلهم قضاة على المذهب الشافعي؛ مع أن الأيوبيين أنفسهم كانوا أساساً أشعرية^(١) مثل والزنكيين؛ حيث اختلط مذهبهم بالفكر الشافعي، وكانت الأشعرية قد انتشرت في العراق على الخصوص، واعتنقها السلاجقة أيضاً، فشجع صلاح الدين المذهب الشافعي لتقاربه مع الأشعرية، وبخاصة أن الشافعية كانت مذهب غالبية المصريين قبل مجيء الفاطميين . فيذكر الرحالة محمد بن جبيرة الاهتمام بالمشهد الشافعي، والتأنيق في إعادة بنائه من جديد، ليكون مثل مشهد الحسين الفاطمي، وإن بقي المشهد الحسيني على مكانته، لحب المصريين لآل البيت النبوي وإن بنى صلاح الدين بإزائه مدرسة للمذهب السني .

كذلك شرد الدعاة للمذهب الشيعي، وألغى مجالسهم؛ حيث كانت الخلافة الفاطمية أقامت نظاماً دقيقاً لتحويل المصريين، وبخاصة موظفي الدولة، على مذهبها، وسموه الدعوة أو الدعوة الهادية، وإن سماه وليم الصوري المذهب المصري كما ذكرنا^(٢) . وفي نفس الوقت جعل هدفه عودة المصريين إلى المذهب السني، فأخذ في بناء المدارس لتدريسه^(٣) في جميع أنحاء مصر؛ حيث يقول القلقشندي: إن صلاح الدين، أول من أحدث المدارس بالفسطاط . وقد ذكر على مبارك في كتابه: خطط القاهرة عدد ست وتسعين مدرسة أنشئت في العصر الأيوبي، مع أنه قبلهم كانت المدارس تنشأ في خارج القاهرة، ولكنها في أيام صلاح الدين أصبحت تبنى فيها؛ وفي خلال أربعين سنة وجدت في القاهرة

(١) من أشهر فقهاء الأشعرية: في العراق: عبد الملك الجويني ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) والغزالي (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١م) والباقلاني (القرن الرابع الهجري / ١٢م) . السبكي، طبقات الشافعية، في عدة أجزاء .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) صبح الأعشى، ٣، ص ٦٢ - ٦٤، ٣٤٢ .

وحدها عشرون مدرسة^(١). فبنى صلاح الدين لنفسه مدرستين عند الجامع العتيق، في ٥٧٢هـ / ١١٧٦م؛ واحدة للمذهب الشافعي، والأخرى للمالكي، ثم بنيت بعد ست سنوات مدرسة ثالثة للمذهب الحنفي. فقد كان صلاح الدين نقي العقيدة السنية^(٢)، ويكره المتكلمين، بدليل أنه قتل المتكلم المشهور السهروردي^(٣)، كما كان يحب الاستماع إلى الحديث، ويميل هو وخلفه^(٤) للمتصوفة؛ وهو أول من بنى الخوانق والتكايا، وكان يستمتع بأحاديثهم؛ حتى أن الشيزري ألف له كتاباً بعنوان: المنهج السلوك في سياسة الملوك. ومع ذلك؛ فإن المدارس في عهده لم تكن للدين فقط، فيذكر الرحالة ابن جبير أنه كانت توجد بالإسكندرية مدارس لتعليم الطب، يفد إليها الطلاب من كل مكان، فيجدون المأوى والحمام والمطعم والمستشفى. وفي الوقت نفسه ألغى صلاح الدين الخطبة في يوم الجمعة في الجامع الأزهر، وهو من إنشاء الفاطميين لتعليم مذهبهم الشيعي، فتعطلت فيه لمدة القرن، وحرمه من موارده المالية، وأخرجه من دائرة الضوء، مع أنه كان أول وأهم مساجدهم^(٥)، ولم تعد فيه خطبة الجمعة إلا في أيام دولة سلاطين المماليك. كذلك بدد الكتب الفاطمية وأبادها، ورماها على جبل المقطم؛ بحيث أصبحت كيمائاً، وأحرق المكتبة الفاطمية وكانت أربعين حجرة.

ثم خطا خطوة أخرى ترمى إلى إضعاف نفوذ حاشية القصر، حتى أن الدولة الفاطمية بسبب نفوذها الكبير ونسبت إليهم، فعرفت بالدولة القصرية^(٦)، وبخاصة أنه ازداد نفوذها في وقت العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وأصبحت تتدخل في شئون السياسة أيضاً؛ حيث بلغ عددها ثمانية عشر ألفاً^(٧)، عرفوا بالاستاذين أي عبيد القصر، ويرأسهم الأساتذة المحنكون؛ لتمييزهم بزي الحنك، وهو أن يمر

(١) الخطط، بولاق، ٢ ص ٣٦٣ - ٣٦٨.

(٢) ابن شداد، النوادر، ص ٧.

(٣) نفسه، ص ١٠.

(٤) أشهر المتصوفة في زمن الأيوبيين هم: ابن الفارض، والكيصاني، وعبد الرحيم القنائي، وإبراهيم الدسوقي، والشاذلي، وأبو العباس المرسى وغيرهم. انظر: النجوم، ٦ ص، ٢٨٨ - ٢٢٩؛ الأدفوى، الطالع السعيد، ص ١٥٦ - ١٦٦.

(٥) انظر: Leonor Ferrande: Mamluke Politics and Education. Ann Islamo T.xxviii, 1987, P. 87s qq

(٦) القفطي، إنباء الرواة على أبناء النحاة، تحقيق أبو الفضل، القاهرة ١٩٥٠.

(٧) الخطط، ٢ ص ٣٦٩ أ.

طرف العمامة تحت الحنك. فاغتال كبيرهم مؤتمن الدولة، وكان خصيًّا أسود اللون؛ بحجة أنه تأمر على الإسلام، واستدعى الفرنجة كما فعل شاور من قبل، وعين صلاح الدين للقصر الفاطمي خصيًّا آخر أبيض اللون من أتباعه، ولعله تركى الأصل، وكان شيركوه أعتقه واسمه قراقوش^(١) - بهاء الدين - بمعنى الطائر الأسود؛ بحيث أصبحت لا تجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر من صلاح الدين^(٢)؛ وأصبح الخليفة العاضد معه كالمحجور عليه.

ثم اتخذ صلاح الدين خطوات حاسمة للإجهاد على قوة الخلافة الفاطمية الحربية، التى كانت ضعفت؛ بدليل تسابق الترك والصليبيين إلى الاستيلاء على مصر؛ حيث كان جيشها فى وقت صلاح الدين يستمد قوته من عنصرين أساسيين: المصريين وسودان مصر - النوبيين - ولم نعد نسمع فى تكوينه عن العناصر السابقة من المغاربة البربر والمشاركة الترك والديلم، أو حتى الأرمن الذين كثروا منذ بدر الجمالى الوزير الفاطمى القوى؛ فعلى حسب ملاحظة المقرئ^(٣)، فإنها جميعها تلاشت. فقد كان المصريون مهددين من جانب الفرنجة الصليبيين من ناحية، والسلاجقة الترك من ناحية أخرى؛ فاضطروا إلى القيام بالدفاع بأنفسهم عن بلادهم، وأصبحوا عماد الجند والقواد فى الجيش الفاطمى؛ بحيث نقرأ فى كتب المؤرخين عبارة: الأمراء المصريين، أى القواد منهم. فيرسل صلاح الدين لقتالهم؛ ولاسيما السودان منهم أخاه الأكبر توران شاه - بمعنى ملك الشرق - على رأس الترك السلاجقة؛ كما أجبر العاضد على تخذيلهم^(٤)؛ مما أدى إلى هزيمتهم، وإحراق معسكراتهم - حاراتهم - حول القاهرة، ثم استبد بالأمراء المصريين، وقبض عليهم فى ليلة واحدة^(٥)، مع أن عمه شيركوه قبله لم يغير عليهم شيئاً.

-
- (١) عنه: وفيات الأعيان، ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤؛ انظر ٧ - ٨، Ency de L. Isl, (art Karakúch) ٢، p. 786.
- (٢) شاهنشاه بن أيوب، منتخبات من كتب التاريخ لصاحب حماة، تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي، ص ٦٢، ملحق فى كتاب ابن شداد - بهاء الدين - سيرة صلاح الدين الأيوبي.
- (٣) الخطط، ٣ ص ٢١٦.
- (٤) نفسه، ٣ ص ٣١٧. عن توران شاه: وفيات الأعيان، ١ ص ١٧٥ - ١٧٧.
- (٥) نفسه، ٢ ص ١٧٥ س ٢١ - ٢٢، ٣ ص ٣٧٩ س ١١، الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٣١ ٢٤ تاريخ، المجلد السابع عشر.

ولما تم إضعاف جانب الخلافة الفاطمية وهدم دعوتها^(١)؛ عزل الخليفة العاضد، الذى مالبث أن توفى، وعمد إلى إلغائها فى أول يوم جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١٠ سبتمبر ١١٧١م. أما أولاد العاضد وأقرباؤه، وكانوا أكثر من مائة وثلاثين غير الأطفال؛ فإنهم اعتقلوا، وفرق بين الرجال والنساء لثلاثا يتناسلوا، واستمروا معتقلين طوال زمن الدولة الأيوبية^(٢). وقد أصبحت أسماء: الخليفة العباسى المستضى بأمر الله، ونور الدين، وصلاح الدين تذكر من على منابر مصر^(٣)؛ وذلك بعد أن كانت الخطبة العباسية قطعت من مصر منذ مائتى سنة؛ حتى ألف ابن الجوزى - أبو الفرج - (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، وهو عراقى متعصب، كتاباً سماه: النصر على مصر^(٤). وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلى نور الدين؛ كما أرسل صلاح الدين للمستضى بأمر الله بكتاب من إنشاء القاضى الفاضل^(٥)، للبشارة بها. ومن وقتها أصبح صلاح الدين يلقب بقسيم أمير المؤمنين^(٦)، أى أنه يشارك الخليفة فى لقبه الخلفى، بحكم أنه أصبح يحكم فى مصر باسمه.

وعلى العكس، كان لسقوط خلافة الفاطميين وقع أليم وأسى بين المصريين؛ حتى أن ابن تغرى بردى يقول: إن نفوس المصريين كادت تزهق^(٧)؛ لانتهاه دولة الفاطميين، التى جعلت مصر خلافة مستقلة تنافس خلافة العراق، ونهبت إلى مركز مصر الريادى فى دار الإسلام؛ حتى أن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها: دولة المصريين^(٨). فيقول الرحالة ابن جبیر، الذى زار مصر عدة مرات

(١) أنظر ما قبل فى ذلك: النجوم، ص ٢٣٤ - ٢٣٥؛

Ency de l'Isl, (art al - Adid) 2 éd, tII, P. 203 - 4.

ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ط ٣، ص ٣٩٤ وما بعدها.

(٢) الخطط، ٢ ص ٢١٦، ٣٤٩ - ٣٩٦.

(٣) النجوم، ص ٣٥٧.

(٤) حسن المحاضرة، ٢ ص ١٩. عنه، انظر.

Ency de l'Isl, (art bn al - Djawzi) T2, p. 394 - 5.

(٥) الحنبلى، شفاء القلوب فى بنى أيوب، ورقات ٢٠، ٢١.

(٦) نقش بتاريخ ٥٨٠هـ / ١١٨٤م. أنظر Rép, 9, 129.

(٧) النجوم، ص ٣٥٧.

(٨) الروضتين، ١ ص ٢٠، ٥٣.

فى أيام صلاح الدين أنه بإنهاء الخلافة الفاطمية تملك الغزّ - أى السلاجقة - ديار مصر^(١). لذلك قام المصريون ضد صلاح الدين فى القاهرة ومصر وحتى فى الصعيد بثورات عارمة^(٢)؛ بقصد التخلص من احتلال الترك لبلادهم؛ إلا أن صلاح الدين عمل على التقرب من المصريين بقيامه بإصلاحات داخلية، منها: تخفيف الضرائب، وبظهور همته القوية فى حرب الصليبيين، الذين هددوا مصر نفسها؛ مما جعلهم يقبلون الأمر الواقع. وبذلك جعل صلاح الدين المسلمين صفاً واحداً فى المذهب؛ واعتبره إنجازاً كبيراً فى سبيل العمل الواحد.



ولكن صلاح الدين وهو من بيت كردى أدرك أن ماناله من سؤدد فى مصر أغضب نور الدين، الذى بدأ يكشر له عن أنيابه. ولعل نور الدين بإرساله إلى مصر أيوباً وأخاه الأكبر توران شاه، كان بقصد إيجاد منافسين له فى مصر؛ بحيث قال أحدهم: لقد جرى ذكر فتح مصر فوالله ما ابتهج به نور الدين، وربما كان نور الدين طلب من العاضد الفاطمى الاستغناء عن شيركوه وإرساله إلى مصر^(٣). ولكن حقد نور الدين بلغ أقصاه، لما استحوذ صلاح الدين بعد وفاة عمه على وزارة العاضد؛ إذ تأكد له طموح الأيوبيين، وأنهم يعملون لأنفسهم؛ فكان كثيراً ما يقول متحسراً: «ملك ابن أيوب»^(٤). ومع وجود «الوحشة» بينه وبين نور الدين؛ إلا أن صلاح الدين كان مصمماً على الاحتفاظ بما وصل إليه من سؤدد فى مصر.

ولكن الأقدار كانت فى ركابه تمهّد له الطريق؛ فأزالت نور الدين فى الوقت المناسب؛ وإن قيل إن صلاح الدين تأثر لموته وخنقته العبرات؛ مما يدل على تقديره

(١) أنظر: Ency de l'Isl, (art Ibn Djubair) (2, 296).

(٢) سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، و ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، و ٥٧٢هـ / ١١٧٦م، و ٥٧٧هـ / ١١٨١م، و ٥٨٤هـ / ١١٨٨م.

بتفصيل: ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٩٨ وما بعدها.

(٣) الروضتين، ١ ص ١٧٢؛ أنظر: حبشى، نور الدين، ص ١٣١.

(٤) الروضتين، ١ ص ١٧٣.

لصفات نور الدين، على الرغم من عداوتهما الأخيرة^(١). وبموت نور الدين تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر؛ إلا أنه فكر أيضاً في السيطرة على البيت الزنكي في الشام وبلاد الجزيرة، أي على بلاد نور الدين؛ لأن صلاح الدين مثل نور الدين كان يستهدف من وراء ذلك تكوين جبهة إسلامية قوية في المنطقة العربية، أو على حد قوله^(٢): إن أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة، أي جمع الكلمة^(٣). وقد شجعه على ذلك أن نور الدين ترك طفلاً صغيراً خلفاً له، ولا يزيد عمره على إحدى عشرة سنة، وهو الملك الصالح إسماعيل^(٤)، وتحت ستار الدفاع عن حقوق ابن نور الدين وتربيته؛ أسرع بالمجيء إلى الشام، ودخل دمشق في ربيع الآخر من سنة ٥٧٠هـ / أكتوبر ١١٧٤م؛ كما استولى على مدن أخرى مجاورة لها، وحاصر حلب عدة مرات. وفي أثناء ذلك بهمه بعض الفداوية الإسماعيلية، وهم شيعة، وكان يرأسهم راشد الدين سنان، المسمى بشيخ الجبل، وكانت له قلاع وحصون في الشام، ويحارب الأيوبيين؛ حيث أطلق الصليبيون عليهم «Assacis»؛ لكثرة من قتلوه من أعدائهم، وتحول اللفظ إلى الكلمة الفرنسية «Assasins»، وكاد صلاح الدين نفسه يُقتل على أيديهم؛ لولا وجود صفائح الحديد حول عنقه^(٥)؛ مما دعاه إلى الهجوم على حصونهم وقلاعهم. وقد تزوج صلاح الدين في أثناء وجوده في دمشق من الخاتون عصمة الدين، أم الملك الصالح إسماعيل، وهي أرملة نور الدين، وكانت تعيش في دمشق بعد موت نور الدين، ويقال: إن صلاح الدين كان قد أحبها^(٦)، منذ أن كان في قصر نور الدين بدمشق، حينما كان شاباً وقتذاك.

-
- (١) الحنبلي، شفاء القلوب، ورقة ١١٦؛ انظر. ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ١١٠.
(٢) الروضتين، ٢ ص ٤٨ س ١٦، ١٧. النص: ولو أن أمور الحرب تصلحها الشراكة؛ لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا أساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لا تحتل في التدبير إلا الوحدة.
(٣) نفسه، ورقة ٢٣. ورد ذلك في كتاب أرسله صلاح الدين إلى الملك الصالح
(٤) سنا البرق الشامي، ص ٨١؛ الروضتين، ١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧؛ الكامل؛ الكامل ٩ ص ١٣٠ - ١٣١؛ السلوك، ١ / ٢ ص ٥٨؛ الأتابكية، ص ٣٢٠ - ٣٢١
Ency de l'Isl, (art al - Malik al - Sâlih) t4, p. 114 - 115.
(٥) الروضتين، ١ ص ٢٣٩؛ الكامل، ٩ ص ١٣٣؛ انظر:
Ency del'Isl, (art Ismailiya) t2, p. 586.
(٦) الروضتين، ١ ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ انظر:
Gaston: La Légende de Saladin. J. des Savants. Paris, p. 285.

إلا أن سعد الدين كمشتكين - بمعنى الأمير الفضى - وهو أحد قواده؛ خطف الملك الصالح، وذهب به إلى حلب؛ ليحكم باسمه فيها. وقد كتب الخليفة المستضىء العباسى تقليدًا بالسلطنة لصالح الدين على مصر والشام^(١)؛ مستثنياً حلب، لتبقى في يد الصالح إسماعيل؛ بسبب ما قام به أبوه نور الدين في خدمة الإسلام، ووصف الخليفة صلاح الدين بأنه سند الخلافة وهادم الشيعة بمصر واليمن، وأرسل إليه خلعا وأعلامًا سوداء، شعار الخلافة العباسية؛ كما أكد له لقبه الناصر، الذى كان قد ناله من الخليفة الفاطمى العاضد، بينما لم يمنحه نور الدين غير لقب «الإسفهلار» بمعنى القائد. فكان هذا التقليد أول مظهر شرعى لسيادة صلاح الدين في مصر والشام.

ولكن الملك الصالح إسماعيل غضب على وصيه كمشتكين وقتله في ٥٧٣هـ / ١١٧٧م، لاستبداده به؛ مما جعل صلاح الدين يتوقف عن مهاجمة حلب، ربما طمعًا في السيطرة عليها بالحسن؛ وليبين للمسلمين وفاءه لنور الدين، والاحترام لتقليد الخليفة العباسى. ولكن لما توفى الصالح إسماعيل في عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م، وكان أوصى بتولية حلب لعز الدين مسعود، وهو من البيت الزنكى، الذى كان يحكم في بلاد الجزيرة؛ إلا أن هذا الأخير تنازل عنها لأخيه سيف الدين عماد الدين، وكان هذا الأخير على علاقة طيبة بصلاح الدين؛ بحيث لما ذهب صلاح الدين لحصارها في ٥٨٩هـ / ١١٩٣م؛ سلمها له^(٢). وبأخذ حلب؛ قال صلاح الدين: الآن قد تبينت أننى أملك البلاد، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت^(٣). وبذلك يكون صلاح الدين قد حقق هدفًا آخر بيسط سلطانه على جميع بقاع الشام أيضًا.

وبعدها وجه صلاح الدين همه إلى الاستيلاء على بلاد الجزيرة وقصبتها الموصل؛ فحاصرها عدة مرات، ويذكر المؤرخ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م)، استماتة أهلها في مقاومته^(٤). ولكن صاحب الموصل، وهو عز الدين

(١) الروضتين، ١ ص ٢٤٠ حسن المحاضرة، ٢ ص ١٩ وما بعدها.

(٢) الكامل، ٩ ص ١٦٢، ١٦٣.

(٣) الروضتين، ٢ ص ٤٥.

(٤) الكامل، ٩ ص ١٦٧ - ١٦٩.

مسعود - إذ كانت من أملاكه أيضاً - تحت إلحاح أهلها، صالح صلاح الدين؛ مما جعله يرسل إليه مندوبه المؤرخ ابن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)، الذى بدلا من تأييده لموقف أميره، انضم لصلاح الدين، وبقي فى خدمته، وهو الذى رسم لنا لوحة سيرته بقلم المؤرخ الأديب فى كتابه: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»؛ وعلى أية حال، تمت المصالحة فى ٥٨١هـ / ١١٨٥م^(١). وبعدها سعى صلاح الدين إلى امتلاك بقية بلاد البيت الزنكى؛ فكان كلما مات واحد منهم ضم أملاكه إليه، وساعده على ذلك تفرقهم، والخلاف فيما بينهم، ووجود كثير من الأكراد من بنى جنسه فى هذه النواحي.



والثابت أن صلاح الدين قضى على نفوذ الأتابكية السلجوقية، ومن قبل قضى على الخلافة الفاطمية، وهو الذى لم يكن يدور بخلده مطلقا - لما جاء إلى مصر - أن يرث أملاك الدولتين، ويكون بزعامته دولة موحدة من البلاد الثلاثة: مصر، والشام، وبلاد الجزيرة؛ فضلاً عن أنه سعى إلى أن يرتبط بعلاقات طيبة بسلاجقة آسية الصغرى^(٢)، التى تقع فى طريق الفرنجية البرية إلى الشرق الإسلامى.

(١) نفسه، ٩ ص ٢١٨ س ١٥٠ - ١٦٠.

(٢) نفسه، ٩ ص ٢٢٥ س ٩؛ انظر. ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ١٢٢.

الفصل الخامس

انتصار صلاح الدين فى حطين، ودور العساكر المصرية البارز

فى استرداد بيت المقدس

لما اطمأن صلاح الدين إلى تضامن المسلمين فى المنطقه العربية عمل على بث روح النضال بينهم ضد الصليبيين. وبالفعل نشط الكتاب فى وقته فى تأليف كتب يغلب عليها طابع النصائح للحكام والرعية؛ حيث إن الناس على دين ملوكهم، حتى يرتفعوا إلى مستوى المسئولية والوعى والجدية، بسبب ظروف الحروب الصليبية؛ وإن كانت النصائح للحكام يكون أغلبها بالتلميح، حتى لا تكلف أحياناً كاتبها حياته^(١). وفى الواقع إن صلاح الدين مثل غيره من الحكام المسلمين كانوا يشجعون على ظهور مثل هذه التأليف^(٢)؛ لإذكاء الروح المعنوية عند الناس. كذلك ظهرت الملاحم البطولية، مثل: سيرة عنترة بن شداد، الشاعر والفارس، الذى سعى إلى وحدة العرب، والسيرة الهلالية، وهى سيرة شجعان وفرسان، استوعبت قيم العرب من الحق والخير والمروءة والجمال؛ حيث ظهرت فى أواخر العصر الفاطمى من القرن الخامس الهجرى، الذى بدأت فيه الحملات الصليبية على الشرق. ويؤكد الرحالة الأندلسى ابن جبير^(٣)؛ الذى زار الشرق الإسلامى فى وقت صلاح الدين أن الشعب المصرى كان على وعى تام بمسئوليته فى هذه الظروف الحرجة من الحروب الصليبية، حتى أن الناس فى الإسكندرية كانوا يعملون بالليل مثلما يعملون بالنهار، وأن الطلاب كانوا يفدون إليها من كل مكان؛ فيجدون المأوى والحمام والمطعم، كما أنها امتلأت بالمتطوعة والمجاهدين.

(١) مثل ابن المقفع، الذى قتل بسبب جرأته فى نصائحه لهارون الرشيد، فى رسالة الصحابة.
(٢) مثل عبد الرحمن الشيزى (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) فى كتابه: المنهج السلوك فى سياسة الملوك، ط القاهرة ١٣٢٦هـ، الذى ألفه لصلاح الدين، وفيه مزج بين السياسة الشرعية والأحكام السلطانية، والقنطى - أبو الحسن - (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م)، فى كتابه: تهذيب الداعى فى إصلاح الرعية والراعى؛ وقد ذكره حاجى خليفة، كشف الظنون، ص ٥١٤، ٥١٥ وغيرهما.
(٣) أنظر. رحلة ابن جبير.

وكان صلاح الدين يتمتع بشخصية قوية؛ فهو مسلم متحمس لدينه، ومحارب بسليقته، ولقد هجر في مجد الجهاد أهله وأولاده ووطنه وراحته؛ ليقنع بالعيش في ظل خيمة في واحة الوغى. ويتجلى حماس صلاح الدين لحرب الصليبيين من قوله في إحدى مكاتباته للخليفة^(١): إنه يود أن تعود الكنائس مساجد، والمذابح معابد للمسلمين، والصليب المرفوع حطبا في المواقد، والناقوس الصاهل أخرس؛ حتى وصفه معاصرنا تشرشل «Churchill» في كلامه عن سير الأبطال؛ بأنه كان أدهى رجال عصره، وأن اسمه يدل على الزعامة الرشيدة.

وفي الواقع؛ فإن صلاح الدين منذ أن توفى نور الدين، لم يألوا جهدا في حرب الصليبيين، بشكل لم يسمع به من قبل، ولا سيما أن الفرنجة كانوا يريدون أن يستفيدوا من الاضطراب الذي ساد بين المسلمين بوفاة نور الدين، عدوهم اللدود السابق. فهاجم صلاح الدين حصون الصليبيين المتفرقة في الشام حصنا فحصنا، وكانت طريقته المبادأة في الحرب بالهجوم الخاطف، والقيام بحرب العصابات. وقد جمع لذلك جنودا كثيرة من الكرد والأتراك، والأعاريب^(٢)، وبخاصة من المصريين وسودان مصر^(٣)؛ حيث اعتبرت مصر وعاء بشريا لإمداد جيشه؛ فيقول النص التاريخي: إنه لما وصل العسكر المصرى غرقه على المعارك^(٤). ولما ضم صلاح الدين الشام وبلاد الجزيرة إلى ملكه، أخذ من أهلها أعدادا كبيرة أيضا؛ بحيث بلغ عدد قادة جيشه وفرسانه في عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م: عدد ١١١ أميراً و ٦,٩٧٦ فارساً كامل التجهيز (طواشي)، و ١,١٥٣ فرساناً آخرين (قراغلام)^(٥)؛ وهم في مرتبة تالية للفرسان الأول.

(١) الروضتين، ٢ ص ٤٩ ربما يقصد المساجد التي حولها الصليبيون إلى كنائس.

(٢) الخطط، ١ ص ١٥٢ س ٢٥

(٣) نفسه، ١ ص ١٣٩.

(٤) عماد الدين الأصفهاني، الفتح القسى، مصر ١٣٢١هـ، ص ١٦٣ انظر مساجد، صلاح الدين، ص ١٣٠.

(٥) الخطط، ٢ ص ٣١١، أورد هذا العدد ط. 320 304 pp. 1951.

مما أدى إلى انكشاف إستراتيجى فى الجيش الفرنجى . وقد قاتل المسلمون وهم يصيحون صيحة رجل واحد: الله أكبر؛ فانتصروا . وحين حمل العسكر المسلم على خيمة الملك الفرنجى جى «Guy»، ملك فلسطين الصليبي، وتمكنوا من إسقاطها؛ أسرع الفرنجة الذين اجتمعوا من كل مكان لنصرة ملكهم بالتسليم . وليس أدل على أهمية هذا الانتصار من قول المؤرخ ابن الاثير عن ذلك: فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحدًا، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدًا .

ومما لاشك فيه أنه لم يحدث أن شفى المسلمون غليلهم من الفرنجة منذ مجيئهم إلى الشام مثل هذه المرة؛ بحيث سموا موقعة حطين: بموقعة حطين المباركة^(١) . ويقول السياسى الإنجليزى المعروف السابق الذكر تشرشل «Churchill»، فى مذكراته عن عظماء التاريخ؛ ممن اشتركوا فى الحروب الصليبية، إن سبب نصر المسلمين فى حطين راجع إلى كثرتهم العددية . ولكننا نظن أن نصرهم راجع بالأولى إلى تنظيم قواهم على يد صلاح الدين، ووحدة هدفهم بالعمل على استنقاذ أرضهم؛ على عكس الصليبيين، الذين أصبحوا عناصر يسودها الاختلاف والتنافس فيما بينها . هذا فضلاً عن التكتيك الحربى الرائع الذى استخدمه صلاح الدين بفضل معرفته للأرض التى يحارب عليها، حتى أن الفرنجة قد بلغ منهم العطش حدًا لم يستطيعوا معه الحركة، فاستسلموا وعلى رأسهم ملكهم وأمرائهم .

وبعد هذا الظفر العظيم، جلس صلاح الدين لعرض الأسرى الكثيرين، وهم يتهادون فى القيود أمامه كالسكارى بسبب العطش، وكان العسكرى المسلم يربط بالحبل الواحد ثلاثين أو أربعين أسيرًا منهم^(٢) . ولما أحضر ملك الفرنجة أمامه أجلسه عن يمينه، وهذا من روعه، وأعلمه، عن طريق الترجمان، أن من عادة الملوك ألا يقتل الملك ملكًا مثله، وقدم إليه ماء مثلجًا؛ حيث كان الثلج متداولًا من قبل عند الفاطميين، يأخذونه معهم فى قيظ مكّة، وفى الحروب . ثم أخذ فى تأنيب أمير الكرك لسخريته من نبي المسلمين، وقال له: «هاأنا انتصرت لمحمد» .

(١) النجوم، ٦ ص ٣١ س ٧ .

(٢) الفتح القسى، ص ١٩ - ٢٠ الروضتين، ٢ ص ٧٩ وما بعدها؛ R.H.C. Occ. t2, p. 66 Sq. .

ولما كان صلاح الدين قد نذر دم هذا الأمير من قبل، إن وقع فى يده؛ بسبب أنه أرسل رجالاً لدخول مدينة الرسول وإخراج جسده الشريف منها؛ حتى أن صلاح الدين أرسل قوة وراءهم وأسروهم^(١)؛ بقيادة^(٢) أخيه العادل سيف الدين. ولذلك رفض أن يسقيه الماء، وضربه بالسيف على كتفه وقطع رأسه، وأطعم جثته الكلاب^(٣). كذلك ضرب أعناق الرهبان الفرسان من طائفتى الداوية والإسبتارية، ولم يبقهم فى الأسر؛ لأنهم كانوا يمثلون التعصب المسيحى؛ وكان معظمهم من رجال الدين المحاربين؛ وقال أبو شامة عنهم^(٤): «إن ماجرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعادة، ولا يخدمان من فى الأسر».

ومن ثم كانت هذه الواقعة العظيمة - وقعة حطين - مقدمة لانتصارات حرية هائلة هامة على فرنجة الشام^(٥)، بسبب أنهم فقدوا فيها معظم رؤسائهم، إما قتلى أو أسرى. فقد كانت هذه الانتصارات عليهم سبباً فى فتح بلاد الساحل، ويُقصد بها البلاد الواقعة على ساحل الشام، مثل: عكة وغزة وحيفا وصيدا وبيروت وعسقلان. كذلك فتحت بعض الأماكن المجاورة لبيت المقدس، مثل: طبرية وبيت لحم والرملة ونابلس، وفى هذه الأخيرة قاتل العسكر الإسلامى فرقة من اليهود كانت تدافع عنها مع النصارى، فقتلوه عن بكرة أبيهم^(٦).

* *

بعد ذلك، قويت همة صلاح الدين لاسترداد القدس أو بيت المقدس قصبة فلسطين^(٧)، التى ترتبط أشد الارتباط بالإسلام؛ بسبب ما قيل من أن النبی إبراهيم أقام فى القدس المسجد الأقصى، مثلما أقام فى مكة المسجد الحرام، وهى الكعبة المشرفة فى مكة أو ما سُمى أيضاً بالبيت العتيق أى الذى لا يملكه أحد، بناء من حجارة صماء ذات لون أزرق؛ ليكون هو الآخر مقراً لعبادة الآله الواحد، أو ماعرف بدين الحنيفية أو الحنيفية السمحة، التى جاء الإسلام ليحييها. ثم إن

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٩ - ٣٠.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ ص ١٢٧.

(٣) الكامل، ٩ ص ١٧٤، R.H.C. Occ (2, p. 34.

(٤) الروضتين، ٢ ص ٧٩.

(٥) الكامل، ٩ ص ١٧٩ وما بعدها.

(٦) رحلة ابن حبير، ص ٨٨.

(٧) عنها معجم البلدان، ٨ ص ١١ وما بعدها.

Ency del'Isi, (art al - Kuds) (2, p. 1139 sqq.

القدس، هي أول قبلة للمسلمين قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة. ويسبب وجود الصخرة المقدسة فيها، وهي الأخرى حجر لونه أزرَق^(١)، لم يطأها أحد برجله غير قدم إسماعيل بن إبراهيم، الذى ينسب إليه عرب الحجاز؛ فعرفوا أيضاً بنى إسماعيل؛ وبإسماعيل انتقلت النبوة من بنى إسرائيل إلى العرب، حيث كان الإسرائيليون من نسل سارة، بينما عرب الحجاز هم من نسل هاجر أم إسماعيل، وهي جارية مصرية كانت لإبراهيم؛ وأصبحت الصخرة الزرقاء فى قداستها أشبه بالحجر الأسود فى مكة؛ فكانت مسرى لنبي الإسلام^(٢). ولذلك اعتبرت القدس فى نظر المسلمين ثالث الحرمين فى المكانة بعد مكة والمدينة، فكان المسلمون إذا جاء موسم الحج يذهبون إليها؛ إذا لم يستطيعوا الذهاب إلى مكة، ويضجون هناك، وهو ما عُرِف عندهم بالتقديس. ولعل هذا التقليد قد وجد منذ الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، الذى حج إلى القدس فى خلافته أكثر من عشرين ألف شخص.

ومع ذلك، فلا يبدو أنه كان يوجد أى بناء فى هذه البقعة المقدسة للمسلمين قبل خلافة الأمويين، الذين ينسب المؤرخون إليهم وحدهم البناء فيها. فقد نُسب إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أنه أقام المسجد على الصخرة فى عام ٧٢هـ / ٦٩١م^(٣)؛ الذى عرف بمسجد قبة الصخرة، التى مستها قدم النبی ليلة الإسراء مثلما مستها قدم إسماعيل أبى العرب من قبل، وإن قالت الروايات: إنه بنى على أساس المسجد الذى بناه عمر بن الخطاب عليها، على طريقة البدواة، عند مجيئه إلى بيت المقدس، ولذلك عُرِف خطأ باسم مسجد عمر^(٤). ونحن لا نستطيع أن نقبل الرواية القائلة، بأن عبد الملك قصد من بناء مسجد قبة الصخرة، جعل الناس تحج إليها، أو أنه منع الناس من الحج إلى مكة من أجل فتنة ابن الزبير^(٥)، الذى كان ينافسه على منصب الخلافة؛ وليس لدينا أية إشارة فى ذلك فى سيرة عبد الملك. وعلى النقيض يذكر الجغرافى المقدسى، أن سبب بناء

(١) سفرنامه، ص ٢٩. وقيل بيضاء اللون. الفتح القسى، ص ٤٦ س ١٩.

(٢) القرآن ١٧: ١.

(٣) Van Berchem: Corpus, t. 44, ème partie, p. 230 sqq; أنظر.

انظر. ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ط ٧، ص ١٨٩.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢؛ انظر.

Ency de l'Isl, (art Kubbat al - Sakhra) (2, p. 11255qq.

(٥) المقدسى، أحسن التقاسيم، فى (B.G.A.)، ص ٥٩.

عبد الملك لمسجده على قمة الصخرة هو ألا يترك المسلمين يبهرون ببناء كنيسة القيامة^(١). ولقد كان مسجد قمة الصخرة فريداً في بنائه لم يقلده المسلمون في مساجدهم الأخرى؛ فهو أشبه ببناء مثنى الأضلاع تعلوه قمة عالية مزخرفة بالفسيفساء بدقة متناهية. أما المسجد الأقصى، الذي أخذ اسمه من آية في القرآن الخاصة بالإسراء^(٢)، فينسب بناؤه الى الوليد بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧٠٥ - ٧١٧ م)، في ساحة مسجد قمة الصخرة، وهو بناء ضخيم يشتمل على أروقة، ومزوق هو الآخر بالفسيفساء، فعرِف لفخامته ببلاط الوليد^(٣)، وقد غير الصليبيون كثيراً في بنائه حينما احتلوا بيت المقدس؛ بحيث لم يعد يعرف أصله.

ولكى تتحقق هذه المعجزة باسترداد القدس؛ فإن صلاح جعل مصر قاعدة للنضال ضد الصليبيين، وبالتالي جعل أهلها وهم أكثر شعوب العرب عدداً ركيزة لجيشه في مقاتلتهم. حقاً إن صلاح الدين في أول الأمر اعتمد في توطيد حكمه في مصر أو حتى في الشام أو بلاد الجزيرة على بنى جنسه من الأكراد؛ إلا أن هؤلاء كانوا أشبه بالطوائف الخاصة، ولذا عرفوا بالخاصكية، أو خواص السلطان، أو باسمه: الصلاحية^(٤)، أو بلقبه: الناصرية؛ أو حتى جند الحلقة المنصورة السلطانية^(٥)؛ لأنهم كانوا يحيطون به في أثناء القتال كالحلقة. ومن قبل صلاح الدين كان للفاطميين أيضاً طوائف خاصة؛ تنسب للخلفاء أو لأولياء العهد أو لرجال القصر الكبار، وخصوصاً للوزراء العظام، فنذكر من هذه طوائفهم: الأمرية، والحافظية، والعهدية، واليانسية، والوزيرية، والجوشية، والأفضلية وغيرها^(٦). وبعد صلاح الدين؛ فإن سلاطين المماليك اتبعوا نفس النظام في اتخاذ الجيوش الخاصة، وأشهرها: المماليك البحرية والمماليك البرجية نسبة الى أماكن سكناهم في مصر، فالأولى سكنت في قلعة الروضة على النيل، أو ماكان يسمى

(١) سعيه بن بطريق. ص ٣٠٠ - ٣٠١.

(٢) القرآن ١٧ : ١.

Ency de l'Isrl, (art al Masjid al - Aksa) t3, p. 442.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢ - ١٥.

(٤) ابن واصل، مفرح، ص ٣٢٥.

(٥) ابن شداد، النوادر، ص ١٤؛ أبو شامة، الروضتين، ص ١٥٨؛ ١٦١؛ انظر. Elbeheiry :

Les Institutions de L'Egypte au Temps des Ayyûbides (Thèse). Paris, . p. 3., 5.

(٦) أنظر. ماجد، نظم الفاطميين، ط ٣، ص ١٩٨ - ١٩٩ وهوامش.

سكناهم في مصر، فالأولى سكنت في قلعة الروضة على النيل، أو ما كان يسمى أيضاً ببحر النيل، والثانية بسبب سكناهم في بروج القلعة على جبل المقطم، التي بنيت أيام صلاح الدين وتم بناؤها في عهد حفيده الكامل، وأصبحت مقراً لحكم الماليك يعد الأيوبيين^(١). فهذه الطوائف الخاصة هي بالأولى لتأييد الحكم، ولم تتعد بآية حال من الأحوال في عددها الآلاف.

أما بالنسبة للمعارك الكبرى، أو مغارك المصير؛ فإن صلاح الدين كان مثل الفاطميين من قبل، والماليك من بعدهم، يتخذ من المصريين ركيزة صلبة لجيشه، الذي يصل بإعداداته إلى مئات الألوف. فكان لا يقوم بحملاته الكبيرة على الصليبيين إلا عندما يصله العسكر المصري بالذات؛ حيث أقبل المصريون على الجهاد معه^(٢)، وكما تقول النصوص التاريخية بوضوح تام عن معاركه مع الصليبيين، إنه كان يقاتلهم بعسكر مصر التي جاءت: «بأهلها السمر»^(٣). وفي مكان آخر: «فلما وصل العساكر المستدعى من الديار المصرية»^(٤)؛ فرقهم في الميدان، فقويت بهم قلوب الأمة المحمدية^(٥)؛ ولاريب، فالمصريون في رباط إلى يوم الدين على حسب قول نبي الإسلام. ومع ذلك؛ فيجب أن نقول: إنه كان يوجد في جيش صلاح الدين غير عسكر المصريين عسكر من بلاد الفرات والشام؛ بحيث كان يطلق عليهم جميعاً: العساكر الإسلامية. وليس معنى ذلك أن الطوائف الخاصة لم تحارب مع العساكر الإسلامية، وإنما يكون اشتراكها على الخصوص بحراسة السلطان؛ إذ يكونون حيث يكون السلطان، والقيادة أيضاً.

ولكنه اختار العساكر المصريين من دون بقية العساكر الإسلامية الأخرى؛ ليذهب على رأسهم لاسترداد القدس، وقد قسمه أطلاقاً - مفردها طلب^(٦)، والطلب عدده ٥٠٠ رجالة، وألف فارس، وينقسم إلى كتائب، وجماعات، وسرايا، وتقسيمات غيرها - وذلك راجع لكفاءة العساكر المصرية التي كانت

(١) أنظر: ماجد، نظم الماليك، ط ٢، ص ١٠.

(٢) عماد الدين، الفتح القسي، ص ١٠ س ٢. أو قوله عسكر مصر. نفسه، ص ١٠ (في آخر الصفحة).

(٣) نفسه، ص ١٦٤ س ١٢. ويقول ابن الأثير: المصريين أنظر. الكامل، ص ٢٠٨ س ١٢.

(٤) نفسه، ص ١٠ س ١٢. الأجناد المصريين. الخطط، ص ١٤٠ س ١١؛ الكامل، ص ٩ ص ١٣٩.

(٥) نفسه، ص ٨٠ س ١١ - ١٤.

(٦) أنظر. Elbeheiry: Op. Cit, p. 92 sqq.

ظهرت منهم فى المعارك السابقة، ولأن المصريين بالذات كانوا هم الذين تقاتلوا فى الدفاع عن القدس؛ لما استولى عليها الفرنجة فى عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م. وقد بدأ يظهر دور العساكر المصرية بشكل بارز؛ منذ أن اتخذ خلفاء الفاطميين مصر قاعدة لخلافتهم الواسعة؛ إذ اعتبروا مصر الغنية بمالها ورجالها قاعدة أصيلة فى الدفاع عن الكيانين العربى والإسلامى، وبذلك نبه الفاطميون إلى دور مصر والمصريين الرائد.

وبالفعل عندما كانت تقوم المعارك الكبرى للإسلام فى أيامهم؛ فإن معظم جيشهم كان من المصريين، فقد وجدوا فيهم نبعاً لا ينضب من الرجال؛ فمصر كانت دائماً أكثر البلاد الإسلامية عدداً. ففى أيامهم كما تقول النصوص التاريخية، كان المصريون يعاونون للحرب بما سُمى: «النفير» أو «النفير العام»^(١) بالسجلات والكتب^(٢) فى المصريين «الناس»، فيأتى المصريون من جميع أرجاء مصر من أسوان إلى الإسكندرية^(٣). وبذلك ظهر لأول مرة فى مصر التجنيد الإجبارى «La Levée en Masse». وفى آخر أيام الفاطميين أصبح المصريون يكونون غالبية جيشهم الثابت، سواء من الجنود أم الأمراء أى القواد^(٤)؛ بحيث نسمع كثيراً عن جنود وأمراء المصريين، فقد كان المصريون مهددين من جانب الصليبيين من أهل أوروبا من ناحية، والسلاجقة الترك من ناحية أخرى؛ كما ذكرنا^(٥).

كذلك لم تكن مصر تزود جيش صلاح الدين فى حربه مع الصليبيين بعساكر من أهلها فقط، وإنما بعساكر من السودان أيضاً، الذين سكنوها، وكثروا فيها؛ إذ يقول النص التاريخى: جاءته بأهلها من السمر المصريين، وسودان مصر^(٦). حقاً إن استخدام العسكر من السودان؛ قد ظهر منذ وقت مبكر فى مصر الإسلامية، وفى أيام الفاطميين على الخصوص؛ حيث بلغوا فى جيشهم أكثر

(١) الفتح القسى، ص ٣٩ س ٢٠، ٢١.

(٢) النجوم، ٤ ص ١٢١ س ٥. مثلاً حينما غزا باسيل الثانى الشام فى عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م.

(٣) يحيى الأنطاكى، تاريخ، تحقيق شيخو، ص ٢٥٤ وما بعدها، ص ٢٦٨.

(٤) الخطوط، ٣ ص ٢ س ١١٦ وقبله.

(٥) انظر. قبله.

(٦) الفتح القسى، ص ١٦٣ س ١٥.

من مائة ألف؛ حتى أن الخليفة الفاطمي عرف باسمهم: «صاحب أسودان»، مثلما كان يُعرف «بالخليفة المصري». فوجدت لهم معسكرات كبيرة في القاهرة يذكرها المؤرخون في كتبهم الخطط؛ ولا سيما المقریزی. فكانوا أيضاً في وقت صلاح الدين في جنده، وشاركوا أخوانهم المصريين في الدفاع عن الإسلام ضد الفرنجة.

وحتى قبط مصر، وهم يكوّنون قسماً هاماً من شعبها، أصبحوا أيضاً عوناً لصلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين؛ فنصوص معاصرة كثيرة تبين أنهم كانوا مع العساكر الإسلامية في الشام، ويقومون بأعمال شتى، وعلى الخصوص أعمال الكتابة في الدواوين. وقد كان الصليبيون يعتبرون القبط مثل المسلمين من الكفار؛ إذ تقول الرواية القبطية وقتئذ: «وصرنا معشر النصارى البعاقبة، القبط، لانصل إلى الحج إليها - أى إلى بيت المقدس - ولا نتمكن من الدنو من ذلك؛ لأجل ما هو معروف من بغضهم لنا، وسوء اعتقادهم فينا، وتكفيرهم إيانا»^(١). بل إن صور صلاح الدين، التى بين أيدينا، هى من عمل القبط وحدهم؛ إذ كانوا يضعون صورته بجانب الآنية المقدسة فى الكنائس؛ تقديرًا لجهاده ضد الفرنجة^(٢). فقد أدرك صلاح الدين أن القبط هم من أهل مصر، ولا يستغنى عنهم فى إدارة الدواوين، وفى عهده استمر إسلام القبط بكثرة، ومنهم الكاتب المعروف ابن عماتى مؤلف: قوانين الدواوين.

وبالإضافة إلى أن المصريين هم ركيزة جيش صلاح الدين البرى، فإنهم على حسب النصوص التاريخية التى بين أيدينا، كانوا أيضاً عماد الأسطول البحرى، ويدربون على القتال البحرى والبرى، ويسمون لذلك: بحرئى وبرئى، كما ذكرنا. فكانت أشهر أساطيل المسلمين فى عصر صلاح الدين هى أساطيل الإسكندرية ودمياط، وإن عرفت جميعها باسم: الأسطول المصرى أو الأسطول المنصور، أو حتى بحرية مصر^(٣). وقبل صلاح الدين، كانت الخدمة فى الأسطول غير

(١) ابن المقفع، سير الآباء البطارقة، ٢ / ٣ ص ٤٩.

(٢) أنظر كتابنا: الناصر صلاح الدين الأيوبي. أنظر. Zaki Pacha: Coupe Magique dédié à Salah ad - Dîn, 1916, p. 241 - 287.

(٣) الفتح القسى، ص ٦٣ س ٥.

إجبارية، إلا أنه فى عهده صدر أمر بأخذ الرجال للخدمة فيه^(١). فكان الناس فى مصر يقدرّون جهاد المقاتلة فيه، ويتبركون بدعائهم، ويسمونهم: المجاهدون فى سبيل الله، والغزاة فى أعداء الله^(٢). وقد أنشئ للأسطول المصرى فى عهد صلاح الدين ديوان خاص به؛ عرف بديوان الأسطول؛ ليقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها، ودفع نفقة العاملين فيها. وقد كان الاهتمام بالأسطول سبباً فى العناية بأحراش مصر لتوفير الأخشاب اللازمة فى بنائه، وبخاصة أخشاب شجرة السنط القوية، بحيث ظهر لها ديوان ساحل السنط؛ ولأهمية السنط فى وقت الأيوبيين فى مصر، عملوا على انتشار زراعتها، فكانت تحصى، وحرم على الأهالى قطعها، وأصبحت ملكاً للدولة^(٣)، وكان نقل خشبها إلى ترسانات صناعة السفن - الصناعة - يحتاج إلى تنظيم دقيق^(٤). فكان إنشاء هذه الأساطيل فى دور الصناعة فى مصر، يقوم به القبط على الخصوص، الذين اشتهروا منذ القدم فى هذه الصناعة؛ فهم الذين بنو للمسلمين الأساطيل العربية فى أيام الفتوحات الإسلامية الأولى، ويظهر ذلك من وثائق البردى العربى فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى^(٥).

فكان أشهر المراكب الحربية فى عهد صلاح الدين مثلما كانت فى أيام الفاطميين: الشوانى جمع شينى أو شونة^(٦) التى بلغ عددها ستين شينياً، وهى - كما ذكرنا من قبل - مراكب طوال تجدف بثلاثة وأربعين ومائة مجدأفا، وتحتوى على أهراء لخزن القمح، وصهاريج لخزن الماء الحلو، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، والحراريق جمع حراقة، وهى مراكب مزودة بالنفط، الذى يرمى بالآلات

(١) العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٢١ / ٣ ورقه ٥٩٦ انظر. سعداوى، التاريخ الحربى، ص ١٠٩؛ Ehrenkrutz: The place of Saladin in naval of Mediterranean Sea, in the Middle Ages J.S.O.As. Vol 75, 1955, pp.110 sqq.

(٢) الروضتين، ٢ ص ١٣ - ١٤.

(٣) الثابلسى، لمع، ص ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩ انظر. أحمد فؤاد، رسالة (بإشرافى)، ٥٦٢.

(٤) ابن ممتا، قوانين، ص ١٣٤٨ صبح الأعشى، ٣ ص ٤٧٩.

(٥) أنظر. ماجد، دور المصريين فى البحرية الإسلامية فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى، ندوة الاتحاد المؤرخين العرب، نوفمبر ١٩٩٣، ص ٢٧١ وما بعدها.

(٦) الروضتين، ٢ ص ١١. عن أنواع المراكب بتفصيل: درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف ١٩٧٩.

القذف من المنجنيقات، أو بالسهم، وفي القوارير؛ سفن العدو. والبُطس جمع بطسة، وهى تشتمل على عدة طبقات، وعلى قلوب كثيرة، تقدّر بأكثر من أربعين قلعة، وتستخدم فى حمل الأرواد والذخيرة، وعلى الأخص الرجال؛ فكانت إحدى البطس تحمل خمسمائة وألف شخص.

ولم يقف مجهود أهل مصر فى الجهاد مع صلاح الدين عند ذلك؛ إنما اشتمل أيضاً على صناعة السلاح، التى برعوا فيها. ولدينا كتاب عن ذلك لمؤلف اسمه الحسن الأبرقى الإسكندراني^(١)، الذى كان يمارس مهنته فى صنع الأسلحة فى أواخر أيام الفاطميين، وألف لصلاح الدين فى الفن الحربى وأنواع السلاح، بعنوان: رسالة السلاح. فمن البراعات المصرية فى صنع السلاح، نذكر منها آلة حديدية تسمى مثلة، لها أحجام مختلفة، لنشرها على الأرض كاللغام فى وقتنا؛ لتعوق تقدم العدو وبخاصة فرسانه. كذلك برعوا فى استعمال النفط أو النفوط، وعرفوا منه النفط الأسود أو الزيت، الذى كان يوجد على ساحل البحر الأحمر (القلزم) فى سيناء، ويسيل من أعلى جبل، ويجمع فى خزائن^(٢). فكان صلاح الدين يستخدم هذا النوع من النفط الملتهب بكثرة^(٣)؛ حيث يقذفونه فى قارورات، ويلقونه بالقوس والسهم والزراقات والمنجنيق. من ناحية أخرى كان إنشاء التحصينات العديدة وبناء القلاع يتم بيد المصريين فى مصر والشام أو فى أى مكان آخر.



ومثلما كان المصريون هم الركيزة الأولى فى جيش صلاح الدين فى معارك المصير ضد الصليبيين، وبكل عناصرهم، فإنهم وضعوا لهذه المعارك كل إمكاناتهم الاقتصادية أيضاً، بسبب مطالب النفقات الكبيرة على هذه الحروب؛ حيث كان يتوافر دائماً لمصر موارد مالية عديدة منذ تاريخها القديم. فعملت الدولة الأيوبية على تنظيم دواوينها المالية تنظيمًا دقيقًا^(٤)؛ إذ لايجوز أن يكون الواقع الاقتصادى يقوم على تنظيم مالى متخلف.

(١) حققه Cahen وترجمه، بعنوان: Un traité d'armurerie. B.E.O, tXII 1947 - 8, p.103 - 104.

(٢) صبح الأعشى، ٣ ص ٢٨٨.

(٣) الخطط، ٢ ص ٣١١.

Ency of Isl, (art Diwán) 2 ed, t2, p329 - 330.

(٤) أنظر بتفصيل:

وقد جعل الإشراف على شئون المال لصاحب ديوان المال، الذى هو فى الوقت ذاته صاحب ديوان النظر؛ ليعنى أنه الخبير الأول فى شئون المال والاقتصاد فى الدولة الأيوبية والإشراف العام عليها؛ حيث يتكلم عنه بتفصيل دقيق عثمان النابلسى فى كتابه: *لمع القوانين*^(١). فكان هذا الموظف المالى الكبير فى دولة الأيوبيين دائم البحث عن الأكفاء العارفين بشئون المال بين الكتاب المتخصصين فيه، مثل المستوفى الذى يعتبر نائبه، وشاهد بيت المال، والمراجعين، والخازن، وغيرهم. فكان عمل هذا الديوان الأساسى للإشراف على ديوانين مالىين هما: ديوان الأعمال، ويتعلق عمله بشئون المال فى الأقاليم، وبخاصة شئون الإقطاع الحربى أو الجيشى^(٢)؛ لفرضه فى الدولة الأيوبية؛ بحيث أصبحت له جرائد الإقطاعات، مع أن الإقطاع لم يتخذ مثل هذه الأهمية فى الدولة الفاطمية، وأخذ مظهراً مستقلاً فى سائر جهات مصر^(٣)، وحل محل ديوانى الصعيد وأسفل الأرض فى العصر الفاطمى؛ فكان يقوم بجباية المال فى الأقاليم، مثل: ضريبة الخراج، وهى ضريبة الأرض، والهلالى وهى ضريبة الإنتاج، وغيرهما. أما الديوان الآخر الذى أشرف عليه صاحب ديوان المال أيضاً، فهو ديوان الباب، ويتعلق عمله بشئون المال فى العاصمة؛ حيث ظهرت له دواوين فرعية، مثل: ديوان خاص بمال بالزكاة أو الزكوات^(٤)، وديوان الجوالى أو ضريبة الجزية فى العصر الإسلامى الأول، وكان لها مشرف لجبايتها هو جهبذ الجوالى^(٥)؛ وهى ثلاث طبقات: الفقير والمريض دينار واحد، والمتوسط ديناران، والغنى أربعة دنانير، وتثبت بالبلوغ، وتنتهى بالموت، وتؤخذ بالشهور الهلالية. حقاً إن ديوان المال وجد من عهد عمر بن الخطاب؛ ليشراف على احتياطى الذهب؛ إلا أنه فى العصر الأيوبي أصبح له الإشراف على الديوانين السابقين؛ بحيث اعتبرا ديوانيين جديدين، ظهرا لأول مرة فى العصر الأيوبي. إضافة إلى أن ديوان المال. أشرف على ديوان ثالث هو ديوان الأهراء^(٦)؛ لتوفير المؤن للبلاد، والحبوب والمعلوفات للجيش، وعرفت لذلك بالأهراء المباركة.

ولكى تقوم الدواوين المالىة بدور فعال، يتناسب مع ظروف الحرب واحتياجاتها المالية؛ أقيم الروك الصلاحى فى مصر عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م؛ وكفل

(١) النابلسى، *لمع القوانين*، ص ١٤-١٥.

(٢) السبكى، *معيد النعم ومبيد النقم*، تحقيق النجار وآخرون، القاهرة ١٩٤٥، ص ٢٩-٣٠، انظر Cahen: *Evolution de l'Iqtc, du IX au XIII Siècle*, in *Annales Islamo*, VII, 1953, p25-52.

(٣) ابن عماتى، *قوانين الدواوين* تحقيق، سوريا، ص ٣٤٧ وما بعدها.

(٤) *لمع*، ص ١٤-١٥؛ *المنتقى*، ص ٤٧.

(٥) *المخزومى*، *المنتقى*، ص ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩.

(٦) *قوانين الدواوين* الدواوين، ص ٣٥٠.

الإشراف عليه لقراقوش بن أيك^(١)؛ بقصيد حصر الأراضى الزراعية فى النواحي الإدارية؛ حيث بلغت مساحتها ثلاثين ألف ألف (٣٠ مليون) فدان، واعتبر خامس روك لأراضى مصر فى العصر الإسلامى؛ وظهرت بخصوصه تعابير اصطلاحية متعددة لنوعيه أراضيه، منها: أرض «باق»؛ لتعنى أرضاً خصبة لزراعة القمح على الخصوص، وأرض «تحضير»، وهى قابلة للزراعة، وأرض «خرس» وتحتاج إلى استصلاح، وأرض غالب؛ ليس من السهل زراعتها، وأرض «مستبحر»، أى فيها ساء كثير، وأرض «رى» أى أنها تروى، وأرض «شراقى» أى غير مروية، وأرض «عين» أى أن خراجها يدفع نقدًا، وأرض «حب» أى أنها تدفع الحبوب فى خراجها.

كذلك وجد فى العصر الأيوبي ديوان هام عرف باسم: ديوان الشغور أو ديوان المتجر السلطاني؛ ليقوم بالمشتريات العسكرية لحساب الدولة؛ من خلال ثغور مصر، مثل: الإسكندرية، ودمياط، وتيس - حماها الله^(٢) - حيث كانت مصر تقوم بتجارة العبور - الترانزيت - مع جمهوريات المدن الإيطالية، مثل: بيزة، وجنوة، ونابلى، والبندقية، وأقريطش، وبيزنطة؛ حيث كانت تعتقد معها اتفاقيات، ولاسيما فى وقت الهدنات مع الصليبيين. ولدينا خطاب من صلاح الدين بتاريخ ٥٧٢هـ / ١١٧٧م؛ موجهًا إلى تجار الخمس أى غير المسلمين من بيزة، يطمئنهم فيه بالأمان، ويمنيهم بالريح الوفير^(٣). فكان المستورد من: الخشب، والحديد والقار، وحوائج العطور، والذهب، والفضة، والحرير الخام، والبز على اختلاف أنواعه، أما مصر فكانت تصدر لهذه الجمهوريات وبيزنطة وغيرها؛ مورد مصر الثابت من الشبة^(٤)؛ طوال العصور الوسطى.

ولدينا وصف لدار سك العملة بشجر الإسكندرية^(٥)؛ فكانت ترد إليها السبائك والدنانير المختلفة، والمكسور، والمصاغ؛ فيوقد عليها فى الأتون، وتنقى قضبانًا، وتحمل لتصبح العيار، فيقطع، ويحرر الوزن، ويكون المعيار الأصل القاهرى بالميزان، ثم يختم بختم السكة السلطانية، وتصير العملة جائز، أى عملة جيدة.

(١) الخطط، ١ ص ١٣٨-١٤١، ١٥٣-١٥٤، ١٥٦.

(٢) Cahen: Douanes et Commerce: dans les ports Méditerranéens de l'Egpte. تمصيل: Médiévale d'après Le Minhadj D'al - Makhzumi. JISHo Vol 7, p. 218-313.

(٣) انظر الوثيقة الرابعة، وهى مترجمة فى ملاحق رسالة أحمد فؤاد، من رسالته للماجستير التى قدمها عن نظم الأيوبيين، وكانت بإشرافى، وانظر. Cahen: Les Marchands Etrangers au Caire, sous Les. Fatimides et Les Ayyoubides. Colloque au caire, 1972, p. 97-102.

(٤) ابن ممتى، قوانين، ص ٣٥٠.

(٥) المخزومى، المتقى، ص ٣٠-٣١.

والخلاصة أن شئون الاقتصاد أصبحت موضع اهتمام كبير من قبل الدولة الأيوبية؛ لتساعد على تحقيق الأهداف الكبرى في تحرير الأرض العربية والدفاع عنها ضد غزاتها من الفرنجة.

* *

ومع أنه في موقعة حطين كان أسر ملك بيت المقدس؛ وعدد كبير من أمراء الفرنجة؛ إلا أن البطرك أو البطريك الأعظم^(١)، كان قد هرب إلى بيت المقدس، وأصبح مركزه فيها أقوى من ملك، وكان فيها حيثش من الفرنج ستون ألف مقاتل^(٢)، ومنهم فرسان الداوية والإستبارية والبارونية والفريرية^(٣). ولما جاء صلاح الدين القدس بعسكر من السمر المصريين وسودان مصر؛ أخذ يفكر هو والقادة المصريين، في كيفية الاستيلاء عليها، واستمر طوافه هو وقواده بأسوارها خمسة أيام، لينظر من أين يأتيها لخصائنها ومناعتها؛ إذ كانت تقع على قمة جبل صهيون، وأن الأرض المحيطة بها غير مستوية، ووديان عميقة، وأرض جرداء خالية تمامًا من الماء، واعتمادها على مياه الأمطار والينابيع البعيدة. فنصب عليها المنجنيقات الكثيرة من ناحية الشمال، وتحت ستار رميها الشديد، تمكن الجند المصريين من الوصول للخندق، وثقب السور، ودخول القدس.

عندئذ طلب البطريرك الأمان له ولفرنجة القدس، فرفض صلاح الدين لرغبته في فتحها عنوة بحد السيف؛ بقصد الانتقام لما فعله الفرنجة من القتل والسلب، لما ملكوها. ولكن لما هدد البطريرك بقتل أسرى المسلمين لديه؛ وبقتاله قتالا شديداً حتى الموت، قبل منه الأمان بناء على مشورة قواده. وقد اشترط صلاح الدين على الفرنجة أن يرحلوا من البلدة في خلال أربعين يوماً، وأن يتركوا خيلهم وأسلحتهم، وأن يدفع كل رجل فدية عشرة دنانير «خمسة جنيهاً»، وكل امرأة خمسة دنانير، وكل صغير دنانيرين. ولا نجد في الأمان شروطاً لليهود، ربما لأن الفرنجة لم يكونوا يسمحون لهم بالبقاء معهم بالقدس، أو تقليداً لما حدث في أيام عمر بن الخطاب، الذي منح الأمان للنصارى دون اليهود، ومع ذلك لم يمنع صلاح الدين اليهود من العودة إلى القدس. وبعد فتحها، أظهر صلاح الدين تسامحاً نادراً نحو أسراه من المسيحيين؛ فاطلق من كان من نصيبه منهم دون فداء، وتنازل أيضاً عن نصيبه في الغنائم لفقراء المسيحيين؛ بحيث اعتبر صلاح الدين أرحم فاتح من المسلمين.

(١) الفتح القسى، ص ٣٧ س ١٣.

(٢) نفسه، ص ٤٠ س ٢٤، ٢٥.

(٣) نفسه، ص ٤١ س ١٤.

وقد كان تسليم القدس في ليلة الإسراء من يوم الجمعة ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ ديسمبر ١١٨٧؛ بعد أن بقي في أيدي الفرنجة إحدى وتسعين سنة؛ حيث عرف فتحها بالفتح الأكبر. ولم يرض صلاح الدين أن يدخلها إلا ومعه مندوبون من أطراف البلاد الإسلامية؛ كما لم يتخلف شخص ذو حيية من المثل معه، وبخاصة من علماء مصر ومتصوفيه، الذين كان صلاح الدين يميل إليهم؛ ويذهب إلى الإسكندرية لسماع الحديث على أكبر علمائهم، أمثال: أبي الحافظ السلفي، وأبي الطاهر بن عوف وغيرهما؛ حيث طوف الأول وراء جمع الحديث ثم استقر في الإسكندرية في أيام الفاطميين، وأقام له وقتذاك الوزير ابن السلار مدرسة متخصصة لدراسة الحديث في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م، صارت كعبة في مصر لطلب الحديث. فدخل صلاح الدين القدس ومعه رهاء عشرة آلاف عمامة؛ وجلس للتهئة وحوله الشعراء، وأكثرهم كانوا من المصريين - كما يقول النص التاريخي - ينشدون له قصائد المديح، سميت بالقدسيات؛ نسبة إلى يوم استرداد القدس من الصليبيين. وفي أثناء تواجده في القدس أقام مدرسة للفقهاء الشافعية على مذهب المصريين^(١)؛ كما رتب فيها الدواوين، وأقام في كل منها عدداً من النواب المصريين^(٢).

وبتسليم بيت المقدس أعاد صلاح الدين للمساجد طابعها الإسلامي بعد أن حولها الصليبيون إلى كنائس، ولدينا نقوش من عهده تدل على تجديد^(٣). فهو الذي أمر بإظهار الصخرة المقدسة، التي كان الفرنجة قد فرشوا الرخام فوقها لحفظها؛ بسبب أنه كان يقطع منها قطعاً صغيرة للبركة أو لبيعها، فلما ظهرت قام بغسلها وهو يركي، وأمر بخلع الصليب الكبير، وكان يسمى صليب الصلوات، الذي أقيم على قبتها، وهو من النحاس، ومحلّى بماء الذهب، ووضع مكانه هلالاً بين حماس المسلمين وفرحهم^(٤). كذلك أعاد صلاح المسجد الأقصى إلى حالته الأولى^(٥)، ولدينا نقش بذلك من عام ٥٨٣هـ / ١٠٩٣م^(٦)، وبعد أن كان الفرنجة حولوه إلى كنيسة، فأمر بهدم ما أضيف إليه؛ وأزال التماثيل والصور منه، ووضع فيه القناديل، وفرشه بالبسط؛ وأقيمت فيه صلاة الجمعة في اليوم التالي لدخول

(١) نفسه، ص ٥٣ س ٢١.

(٢) نفسه، ص ٤٤ س ٣ - ٤.

(٣) السلوك، ١ / ١ ص ١٠١ - ١٠٢.

(٤) أنظر. Répertoire, 9, P. 159 - 160.

(٥) عن التفاصيل. الكامل، ص ٩ - ١٨٤ - ١٨٥، الفتح القسي، ص ٤٨، ٥٠ - ٥٣، أنظر. Ency de l'Isl, (art al - Kuds) ١2, p. 1165 - 6

(٦) أنظر. Répertoire, 9, p. 129 - 160.

صلاح الدين، فكان الخطيب يعدد مآثر البطل الفاتح ويدعو له^(١)، والمصلون يؤمنون على دعائه. وقد أشير على صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة انتقاماً لما فعله الفرنجة بمساجد، فلم يوافق؛ لأن عمر بن الخطاب كان أبقاها حينما تسلم القدس، إلا أن صلاح الدين أمر بغلقها وكسر أجراسها وإزالة صلبانها، ثم فتحها بعد مدة، وقرر على أن يرد إليها من الفريضة مبلغاً من المال فكان تصرف صلاح الدين السمع نحو كنيسة القيامة المقدسة، يخالف تصرف الفرنجة المشين نحو مسجدي قبة الصخرة والأقصى.

ومع فرح المسلمين الزائد باسترداد بيت المقدس؛ فإنه على النقيض لا يبدو أن خليفة المسلمين بالعراق، وهو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد قد سر بفتحها، ربما حسداً لصلاح الدين، ويظهر حقه المكبوت بإرساله كتاباً شديداً لصلاح الدين، وردت فيه هذه العبارة: «يفتخر علينا بالقدس»^(٢). وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أقام لنفسه تنظيمًا شعبيًا من الفتيان، ولبس له سراويل الفتوة، وظهرت به دعوة سماها دعوة الفتوة الناصرية، اعتبرت في أصلها دعوة سياسية، أثارت هي الأخرى حماس المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الإسلام، حتى أن الأيوبيين أنفسهم انضموا إليها^(٣). ويبدو الحقد المكبوت في العراق أيضاً في اصطدام حجاج العراق بحجاج مصر في عرفات؛ حتى أنهم قتلوا من هؤلاء جماعة؛ بحجة أنهم يحملون طبولاً^(٤). فكان هذا الحقد العراقي المكبوت ضد صلاح الدين أو المصريين؛ بسبب استرداد بيت المقدس من الصليبيين على يد السمر المصريين.



وبذلك تحققت معجزة استرداد بيت المقدس من الصليبيين على يد عسكر مصر وحدهم من دون عسكر المسلمين جميعاً؛ بحيث قال عماد الدين الكاتب، وهو شاهد عيان لاستعادتها: «ولتفخر مصر وعكسرها على باقى سائر الأمصار»^(٥)، وذلك بعد أن كاد الياس يعم المسلمين جميعاً من عودتها إليهم؛ بسبب أن المسلمين كانوا قد وهنوا، واعتبر استردادها هجرة ثانية^(٥)، أى هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، وأن فتحها هو فتح الشام الثانى. ولكي يؤمن صلاح الدين انتصاره الباهر فيها؛ فإنه جىء لها من مصر بخزانة سلاح لم ير مثلاً، وكانت من كل نوع كالجبال^(٦).

(١) عن نص الخطبة، انظر. الحنبلى، ورفقات ٣٧، ٣٨.

(٢) الفتح القسى، ص ٣٩ س ٢٠ - ٢١.

(٣) ابن شاهنشاه، (٦١١هـ / ١٢٢١م)، مضمار الحقائق، القاهرة ١٩٦٨ ص ٨٦، ١٧٧؛ ابن العماد، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى حواد، بغداد ١٩٥٨.

(٤) الفتح القسى ص ٣٩

(٥) نفسه، ص ٥٥

(٦) نفسه، ص ٧٨

الفصل السادس

رد الفعل الفرنجى، والهدنة مع الصليبيين

كان سقوط بيت المقدس سبباً فى أن جعل أوروبا تتحرك سريعاً لاستنقاذه؛ ولاسيما أن البطريرك الذى كان ببيت المقدس، وتركه صلاح الدين يرحل عنها بالأمان، دخل بلاد الفرنجة بأوروبا «أفرنجة» يطوفها جميعها، ومعه صورة لرجل عربى يضرب المسيح، ليحثهم على الأخذ بثأر بيت المقدس من المسلمين^(١)؛ كما ظهرت مرثيات ملحمية عن سقوطها، بعضها يتكون من آلاف الأبيات^(٢). فعمل البابا كلمنت الثالث «Clement III» (١٠٨٠ - ١١٥٠م)، هو الآخر بالتبشير بحرب صليبية جديدة، وهى التى عُرفت بالحملة الصليبية الثالثة؛ واشتركت أوروبا فيها بجميع بلادها وإمكاناتها، وحتى بنسائها اللاتى جندن فى زى الرجال؛ كما اشترك فيها أكبر ملوكه، ومنهم: ملك ألمانيا فردريك برباروسا «Fredrik Barbrosa»، وملك فرنسا فيليب أغسطس «Philippe Augustus» وملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد «Richard Lion Heart»، حيث يقول ابن الأثير عن الألمان إنهم نوع من الفرنجة شديدي البأس^(٣)، وأن عدد مقاتليهم بلغ ألف ألف (مليون).

وفى الوقت ذاته، أصبحت أساطيل مصر، أو مايعرف بأسطول أو أساطيل الإسكندرية؛ تقوم بتنصيب فعال فى قتال الفرنجة، الذين كانت مراكبهم متواصلة كثيرة على الساحل الشامى. فحينما اختار الفرنجة عكة أو عكاء «Akko»، جعلوها الهدف الأول فى سبيل استعادة بيت المقدس، وحاصروها من البر والبحر، استدعى صلاح الدين من مصر خمسين شينياً من المراكب الحربية الكبيرة، والمزودة بالمنجنقات القذافة^(٤)، وعلى ظهرها عشرة آلاف بحار مصرى^(٥)، فكان وجود

(١) الكامل، ٩ ص ٢٠١.

(٢) مثل مرثية البطريرك جريجورى الابن (١١٨٩م)، وهو أرمنى، وتتكون من ٢٣٩٤ بيتاً. انظر R.H.C. Arm I, p.269 - 271.

(٣) الكامل، ٩ ص ٢٠٧، ٨ ص ٢٢. انظر. ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٧٣.

(٤) الفتح القسى، ص ١٦٦.

(٥) نفسه، ص ١٦٨.

هذه المراكب الحربية المصرية فى عكته، داعياً إلى تقوية حاميتها ضد المحاصرين، ولاسيما أن بحارتها كانوا مدرّبين على القتال البحرى والبرى، ويسمونهم بحرّى وبرّى. وفى مرة استولى الأسطول المصرى على خمسة مراكب إنجليزية كبيرة وطراد^(١)؛ وهذا الأخير نوع من المراكب التى تحمل الخيل للفرسان.

ولعل أهم عمل قام به الأسطول المصرى - كما كان يسمى - إقامته البديل لحامية عكة^(٢)، وفى فصل الشتاء لما سحب الفرنج مراكبهم المحاصرة من أمام عكة لهياج البحر، استغل الأسطول المصرى الفرصة ونقل إليها زهاء عشرين ألفاً من رجال البر والبحر. ويبدو أن أغلب من دخلها من الجند المصريين، بدليل وجود كتاب القبط معهم. وقال المؤرخ ابن الأثير^(٣) - المعاصر لهذه الحملة - إنه كان همّ الفرنجة محاربة المصريين وكسر شوكتهم؛ بحيث إن المصريين وحدهم خرجوا لهم وقتلوا منهم فى إحدى الوقائع البحرية عشرة آلاف قتيل^(٤).

وقد استمرت حامية عكة تقاوم هذا الغزو الصليبي من البر والبحر لمدة ثلاث سنوات، من ٥٨٥ - ٥٨٧ هـ / ١١٨٩ - ١١٩١ م؛ بسبب أن المصريين كانوا قد أعادوا تحصيناتها، وأشرف عليها بهاء الدين قراقوش، مهندس صلاح الدين، الذى حصن القاهرة، وبنى قلعتها، فجاء إليها ومعه عمال ومهندسون من أهل مصر؛ كما أحضر أدوات وآلات كثيرة من مصر^(٥). كذلك توافد على عكة المجاهدون من أنحاء بلاد المسلمين، بمن فيهم المغاربة، وفرسان البحر الأندلسيون^(٦)؛ فكانوا يقصدون الإسكندرية أولاً، قبل أن يحملهم الأسطول المصرى إلى عكة؛ بحيث أصبحت الإسكندرية وطنًا ثانيًا لهم؛ مما دعا صلاح الدين إلى إنشاء دار دائمة لهم فيها ومارستان، وحتى مدرسة^(٧)، أما فى القاهرة، فكان سكنهم فى مسجد ابن طولون؛ كما ذكر الرحالة الأندلسى ابن جبير^(٨).

(١) نفسه، ص ٢٤٠.

(٢) نفسه، ص ٢٢٧ وما بعدها؛ الكامل، ٩ ص ٢٠٧.

(٣) الكامل، ٩ ص ٢٠٢ وما بعدها.

(٤) الفتح القسى، ص ٢٠١ ص ١، ١٩٩ وما بعدها.

(٥) نفسه، ص ٩١، ٩٠.

(٦) أنظر على أحمد، دور الأندلسيين والمغاربة فى الحروب الصليبية على مسرح الشام ومصر، المؤرخ العربى، ١٩٩٦، ٤ ص ٢٠٩ وما بعدها.

(٧) النويرى، الإمام، نسخة مخطوطة بدار الكتب، برقم ١١٤١، ورقة ١١٦ ب أنظر. سالم، من جديد حول التأثيرات الأندلسية، فصل من مجلة المعهد المصرى بمديرد، المجلد ٢١، ١٩٨١، ٢ ص ١٤.

(٨) أنظر. رحلة ابن جبير.

ولكن عكة أصبحت وشيكة السقوط فى أيدي الفرنجة؛ بسبب أن المصريين وحدهم أصبحوا المدافعين عنها، ومقاومتهم فيها اعتبرت صفحة ناصعة من الأمجاد المصرية فى التاريخ مثلما حدث فى عسقلان وغيرها من المدن الساحلية الأخرى؛ بينما خليفة العراق لم يرض المشاركة بأى جهد، ولو بدعائه للمقاتلين فيها^(١)، وأن سلطان العجم بإيران^(٢)، وأمراء الترك بأسية الصغرى لم يلبوا النداء الذى وجهه إليهم صلاح الدين، وحتى أهل شمال أفريقيا بزعامة الموحدين؛ وهى دولة بربرية، لم يكتفوا بموقفهم السلبي، وإنما فكروا فى انتهاز الفرصة للاستيلاء على مصر، وجعل الشرق الإسلامى يخضع لهم، وبخاصة أنه كان يوجد عداء سابق مع صلاح الدين الذين، أرسل مملوكه قراقوش التقوى المطغرى، وهو من الأكراد، فى حملة لمساعدة بقايا دولة المرابطين فى ٥٦٨هـ / ١١٧٢م^(٣)، التى أسقطتها دولة الموحدين وحلت محلها. فاستولى قراقوش التقوى على برقة وطرابلس بمساعدة العرب فيهما؛ ولما نزل إفريقية - تونس - ودخل القيروان؛ انضم إليه عربها من بنى سليم. فكانت دولة الموحدين، تحرض بربر جبل نفوسة ضد الحملة المصرية العربية؛ إلا أن قراقوش التقوى كان يرحل من مكان إلى آخر، ويعمل على مساعدة المرابطين، حتى لا تسقط دولتهم فى أيدي الموحدين. كذلك قيل إن السبب فى إرسال قراقوش التقوى إلى المغرب، خوفاً من أن يعمل الموحدون على سبيل الانتقام؛ بإعادة الخلافة الفاطمية التى قضى صلاح الدين عليها، أو حتى لتكون برقة وطرابلس ملجأ لصلاح الدين؛ إذا ما عزله نور الدين بعد أن أظهر عداوته له. وعلى كل حال تحسنت العلاقات بين صلاح الدين والموحدين، حينما أرسل رسولا من قبله إلى أبى يعقوب بن المنصور، حفيد عبد المؤمن، مؤسس دولة الموحدين، يطلب منه أن يعمل أسطوله على قطع خطوط تموين العدو الصليبي، من ناحيته.

ولدينا وصف تفصيلي للقتال فى عكة، وهى وشيكة السقوط، بعد أن تهدمت أسوارها، تحت رمى منجنيقات الفرنجة الكثيرة، فكانت كلما فتحت ثغرة فيها سواها المقاتلة بأشلاء موتاهم. ولكن لما تهدمت أسوارها، ودمرت

(١) الفتح القسى، ص ١٧٩.

(٢) نفسه، ص ١٧٣ - ١٧٥.

(٣) شاهنشاه بن أيوب وصاحب حمادة، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى، ١٩٦٨، ص ٣٤ وما بعدها.

أبراجها، وانحدر الفرنجة بجموع كثيرة داخل البلدة، ونشروا فيها راياتهم التي تحمل الصليب مرسوماً عليها، ومع ذلك استمر القتال في الشوارع من بيت إلى بيت، حتى على الأسطح^(١)، وأخيراً سلمت عكة في يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة، سنة ٥٨٧هـ / يوليو ١١٩١م.

وقد أسرع صلاح الدين بعد هذه الهزيمة إلى بيت المقدس خوفاً عليها؛ لتقوية حصونها حتى كان يحمل على كتفه الأحجار مثل بقية العمال؛ مما دعا الآخرين بمن فيهم؛ عماد الدين الأصفهاني والقاضي الفاضل، وهما من كتّابه المشهورين، الاقتداء به في حمل الأحجار^(٢)؛ كما حشد فيها عسكرياً استقدمهم من مصر بالذات. فيقول النص التاريخي كان السلطان وهو في الشام يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله^(٣)، ويدعوهم لنجدة أهل القدس على الكفر وأهله. فلبى العسكر المصري نداءه، وضرب خيامه على بليس مدة، حتى اجتمع الرفاق. ويبدو أن ملك الإنجليز «ريتشارد Richard»، الذي اشتهر بلقب قلب الأسد «Lion Heart»؛ لشجاعته وقوة قلبه - يسميه العرب ليجرت ملك الأنكتير - وكان أكبر ملوك أوربا، قد فكر قبل أن يتجه إلى بيت المقدس أن يسعى إلى الاستيلاء على مصر، أو على الأقل أن يقطع الطريق بين مصر وصلاح الدين في الشام الموقف الإمدادات من مصر.



ولعل جميع الأطراف قد بدأت تتعب من هذه الحرب المدمرة، إذ إن الحروب الصليبية كانت من أكبر صراعات البشر، فالصليبيون لم يستطيعوا أن يستردوا بيت المقدس على الرغم من وصولهم قريبا عدة مرات، واستيلائهم على بعض المدن الشامية من جديد، ووصولهم إلى ساحل مصر، أما المصريون فهم أيضاً كانوا قد تعبوا من الجهد المتواصل في الهجوم والدفاع، حيث كانوا ركيزة عسكره الإسلامي. حيث بدأ الطرفان في التفكير في السلم؛ طالما أن الحرب لم تستطع أن تحسم النزاع بينهما؛ بحيث رحب الطرفان بالمصالحة؛ حتى أنه لم يحدث أن رحب المسلمون ولا سيما المصريون؛ بصلح مثله منذ صلح الحديبية، الذي أقامه نبي الإسلام مع الكفار.

(١) الفتح القى، ص ٢٦٣.

(٢) أوردها Lewis في كتابه: Islam, I, p. 68.

(٣) نفسه، ص ٣٠٦.

ومن قبل ظهرت الاتجاهات السلامية فى أثناء حصار عكة، لما مرض ريتشارد ملك الإنجليز، وكان فى حاجة إلى الدجاج والفواكه والثلج، فأرسل إليه صلاح الدين ما يريده منها، ومكّن رسله من زيارة الأسواق الإسلامية^(١)، وبعد نصر الفرنجة فى عكة، اقترح ريتشارد على صلاح الدين رد القدس إلى الفرنجة. ويبدو أنه فى أثناء هذه المفاوضات اتصلت صداقته بالعدل، أخى صلاح الدين، وأصبح يعرف لهم بلقبه «Saphadin»^(٢)، أى سيف الدين؛ حتى أنه لما طلب مرة أن يسعه غناء المسلمين، أحضر له مغنية تضرب بالعود، فغنت له، فاستحسن ذلك، وعرض ريتشارد على العدل أن يزوجه من أخته جان «Jean»، ويقيم هو وزوجته فى القدس، وبذلك ينتهى النزاع، وقد قبل صلاح الدين ذلك، إلا أن ريتشارد تحت تحريض رجال الدين لديه اعتذر.

وأخيراً، وقعت المصالحة بين صلاح الدين وريتشارد، ووافق عليها جميع المسيحيين، وتكون مدتها ثلاث سنين، وثمانية أشهر؛ على أن تكون هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر، وذلك فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ / سبتمبر ١١٩٢م^(٣). وقد نص الصلح على أن يحتفظ كل فريق بما فى يده؛ على أن توجد بينهما منطقة منزوعة السلاح «No Man's Land»، وأن يسمح للحجاج النصارى بالوصول إلى بيت المقدس.

فكان إقرار الصلح بداية الصلات والمودة بين الفريقين؛ فاختلط العسكر، واختلطت التجارة^(٤)، وتعامل الصليبيون بالدنانير الأيوبية لنقائها وارتفاع وزنها، وأطلقوا عليها اسم: «Besant Saracenet»، أى العربية؛ وإن أضافوا إليها عقيدة التثليث بدلا من عقيدة التوحيد الإسلامية^(٥). وقد أمر صلاح الدين بالمناداة فى المسلمين أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من الفرنجة أن يدخل بلادنا فليفعل^(٦).

(١) نفسه، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٢) انظر: Ency de l'Isl., (art al - Adil) t. p. 197 - 8.

(٣) الفتح القسى، ص ٢٨٤ - ٢٨٥، الكامل، ٩ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) الفتح القسى، ص ٣١٥ وما بعدها.

(٥) انظر: Lavoix: Monnaies à Légendes Arabes, trappées en Syrie par les Croisés. Paris.

Balog: Monnaies à légendes Arabes de L., Orient Latin.

Nums. 6 ème Série, TI, 1958, P. 137.

(٦) السلوك ١ / ١ ص ١١١ انظر. ماجد، العلاقات، ص ١٨٤.

(٧) نفسه، ١ / ١ ص ١١؛ انظر. نفسه.

فكانت هذه أول مرة تنتهى حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق بين النصارى والمسلمين، وتجمعهما على التعايش معاً، وقبول الأمر الواقع «Modus Vivendi». كذلك وصل الحجاج إلى القدس، وزاروا كنيسة القيامة المقدسة. ولما مرض ملك إنجلترا؛ فإن صلاح الدين عاده، بينما لما رحل ريتشارد إلى إنجلترا حاربه أخوه. وقد اعتبر ريتشارد فى نظر المسيحيين من الملوك الصالحين؛ مع أنه قبل مجيئه إلى الشرق، كان يضطهد اليهود فى إنجلترا، ويصادر أموالهم معتلاً فى ذلك بأنهم من الكفار، وفى الوقت نفسه، يتتفع بمالهم فى حرب المسلمين.

ولا شك أن صلاح الدين كان محارباً شديداً؛ إلا أنه جنح إلى السلم، لما جنح الأعداء إليه أيضاً؛ إذ كان من هؤلاء القادة العسكريين والمفكرين، الذين لا يرون أن الحرب هى الحل، وإن قامت؛ فلإنها يجب أن تنتهى إلى السلم. ودليل ذلك أنه كان يواسى فى موت ملوك بيت المقدس فى المناسبات، حتى أن القلقشندى^(١) أورد نص رسالة كان صلاح الدين أرسلها إلى بلدوين الرابع، فى ٥٨٠هـ / ١١٨٥م، لما خلف عمورى على عرش بيت المقدس، فارسل إليه يعزيه، فى وفاة والده، ويهنئه فى الوقت ذاته بالجلوس مكانه، وكانت هذه المواساة من إنشاء القاضي الفاضل أكبر كتابه، مع أنه وقعت حروب شديدة بين عمورى وصلاح الدين، لما تطلع عمورى إلى الاستيلاء على مصر. فورد فى نص رسالة صلاح الدين: أنه يتأسف لفقده - عمورى - ويعرض عليه صداقته. وهذه الرسالة لم يذكرها وليم الصورى مؤرخ الصليبيين؛ كما أن بلدوين هو الآخر شنها حرباً شعواء ضد صلاح الدين بعد ذلك.

هذا القائد العظيم، المتحمس للإسلام، ولوحدة العرب فى الشرق الإسلامى، والذى اتخذ النسر رمزاً له؛ ليدل على تحفزه للانقضاض على أعداء الإسلام، لم يلبث وقتاً بعد ذلك، حتى وافته المنية فى ليلة الأربعاء ١٧ من صفر سنة ٥٨٩هـ / ٤ مارس ١١٩٣م^(٢). فدفن فى مقبرة خاصة فى شمال دمشق.

(١) صبح الاعشى، ٧ص ١١٥، ١١٦. انظر مقالة عادل حمزة، رسالة صلاح الدين إلى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٤، ١٩٩٦، ص ٢٤٩ وما بعدها.

(٢) السلوك، ٢ / ١ص ١١٢ - ١١٣؛ وفيات الأعيان، ٣ص ٨ أوما بعدها؛ العماد، شذرات الذهب ١٣٥٠هـ، ٥ص ٢٩٨ - ٢٩٩؛ R.H.C. occ. ١2, P. 217.

فكان موته يوماً مشهوداً؛ لم يصب الإسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين، حتى أن الرحالة عبد اللطيف البغدادي^(١)، الذي عاصره وقابله في القدس بعد استردادها، يكتسب أنه لم ير في حياته من بكى عليه الناس من المسلمين وغيرهم مثله، ويقول: كان ملكاً عظيماً يملأ العين روعة، والقلوب محبة، وأن أصحابه يتشبهون به، ويتسابقون إلى المعروف مثله. كذلك رأت الفرنجة في صلاح الدين خصالاً رائعة، حتى أن الشاعر الإيطالي دانتي «Danti» ميّزه في أعتاب الجحيم المسمى: اللمبو، «Limbo»، مع حكام العالم الكبار وأبطاله.

(١) أوردها ابن أبي أصيبعة، الإنباء، ٢ ص ٢٠٦.

الفصل السابع

الأيوبيون والحركة الصليبية بعد موت صلاح الدين

تتميز الحركة الصليبية بعد وفاة صلاح الدين؛ بأنه لم يعد قصدها بيت المقدس كما كانت الحال من قبل، وإنما الاستيلاء على مصر. فقد أدرك الصليبيون أنه لا مجال لتنفيذ خططهم بالبقاء في أرض العرب، ودق أسفينهم في نظامهم الإقليمي؛ إلا بالاستيلاء على مصر، رأس الجسد العربى وقلبه، فوضعوا نصب أعينهم غزوها في حملات كبرى ومكثفة وشرسة ومتوالية، استمرت إلى وقت سقوط الدولة الأيوبية، وليس كما كانت الحال من قبل في حملات طارئة.

وقد أدرك صلاح الدين وخلفه من ملوك الأيوبيين طمع الصليبيين في مصر؛ فحاصنوها تحصينا قويا؛ حيث كفل ذلك إلى الأمير قراقوش - بهاء الدين - عبقرية عصره في البناء^(١). فبنيت في القاهرة المحروسة قلعة كبرى باهرة على جبل المقطم؛ عرفت بقلعة الجبل؛ وحفرت فيها بئر عميقة هي بئر يوسف؛ لتوفير المياه لسكانها، وأشرف على المشروع كما يبين النقش ولّى عهده الملك العادل سيف الدين بكر محمد^(٢)؛ حيث تم بناؤها في عهد السلطان الكامل محمد حفيد صلاح الدين، ومن وقتها أصبحت قلعة الجبل قاعدة للحكم الأيوبي في مصر، ومن بعده الحكم المملوكى. ولدنا حجر الأساس لبناء القلعة مؤرخاً بسنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، عند أقدم أبوابها وهو الباب المدرج^(٣). كذلك أصبحت قلعة الجبل بالديار المصرية في القاهرة مركزاً هاماً للبريد، الذى نظم تنظيمًا دقيقًا لظروف الحرب من خيل وهجن وبغال وحمام زاجل^(٤). إضافة إلى إنها أحيطت بأسوار من الحجر، بدلاً من السور القديم الذى كان قد بناه جوهر الصقلى من الطوب «اللبن»، وحصن بالأبراج والأبواب المصفحة؛ كما أقيمت الجسور على نهر النيل لتسهيل تنقلات الجند، وبنيت قلعة أخرى عليه في المقس.

(١) الخطط، ٢ ص ٢٠٥، ٣ ص ٣٣٠، وماعدها؛ انظر. Casanova: Histoire et description de la Citadelle du Caire. M.M.A.F. tvi, p. 535 sqq.

قيل: إنه بناها حوقاً على نفسه من نور الدين. الخطط، ٣ ص ٣٣٠.

Ré pertoire, 2, p. 123 - 124.

Corpus, p. 81, n049.: Van Barchem

(٢) أنظر.

(٣) أنظر.

(٤) صبح الأعشى، ١٤ ص ٣٩٠.

أضف إلى ذلك أن الأيوبيين عملوا على تنظيم الدفاع عن ثغور مصر البحرية. فبنيت قلعة صلاح الدين على البحر الأحمر (القلزم) في سيناء^(١)، ولا تزال توجد بأطلالها للآن. وفي الإسكندرية وهي المدينة العظيمة، التي وصفها الجغرافيون المسلمون بالسعة والجلالة^(٢)، وأنها مدينة ذات قوة وبأس، فقد حصنت تحصينا قوياً، وبها المنارة إحدى عجائب الدنيا، وكانت بنيت على فوهة مينائها الأعظم، وفيها مواقيد تعلوها النيران، وتظهر في مراياها صور المراكب كبيرة الحجم. ويصف الرحالة الهروي شوارعها القديمة، التي تقع تحت مستوى الأرض، وهي من العصور اليونانية والرومانية، حيث توجد في ثلاث طبقات، وأن من كان يتمشى فيها وكأنه يتمشى في الشوارع التي في مستوى الأرض^(٣). فأحييت بالأسوار والخنادق، وألقيت في مينائها عواميد رومانية^(٤) لتسهيل الملاحة فيه. والواقع أن الإسكندرية حصنت من أيام حكم ابن طولون بسور ضخمة في عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م، وأنها كانت تطورت عمرانياً في عهد الفاطميين؛ فاكتملت بالمنشآت. ولكن صلاح الدين هو الذي طوق مناطقها الجديدة، التي خرجت عن الأسوار الطولونية بسور آخر^(٥)، ربما في وقت وزارته للخليفة الفاطمي العاضد، ولكن بعد توليه حكم مصر؛ فإنه جدد أسوارها في عام ٥٧٧هـ / ١١٨٢م^(٦)، وجعلها مزدوجة، لينفتح في سورها الأمامي باب واحد، وقد ذهب بنفسه لمشاهدته، وخيم عنده.

وفي مدخل ميناء دمياط، بنى برج السلسلة^(٧)، الذي تشد بينه وبين برج آخر مقابل له سلسلة عظيمة القدر وثقيلة من الحديد؛ لمنع المراكب المعادية من دخول الميناء؛ حيث بلغت تكاليف بناء البرج وأحد الجسور ما يزيد على سبعين ألف دينار^(٨)، وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت. فهذا الثغر الهام - دمياط^(٩) - ويقع في

Répertoire, 9, p. 158.

(١) السلوك، ١ / ١ ص ٥١٧.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ص ٩٧.

(٣) الهروي، زيارات؛ انظر

(٤) ابن جبير، رحله، ص ٨ - ٩.

(٥) الروصتين، ص ٢٤٨.

(٦) مفرج، ص ١١٢.

(٧) الخطط، ١ ص ٣٤٧، ١٦؛ انظر. الشيال، محمل تاريخ دمياط، القاهرة ١٩٤٩، ص ٧

(٨) أورد ذلك الشيال، في كتابه: الأيوبيون والمماليك، ص ١٠٥.

(٩) عنها: معجم البلدان، ٤ ص ٨٥ وما بعدها؛ انظر. Ency of (art Damyat) 2ed, t11, P. 202.

زاوية البحر المتوسط والنيل، ويفصله شريط من الأرض عن بحيرة المنزلة؛ احتفظ بسور شديد التحصين؛ وقيل إن الملك العزيز بن صلاح الدين؛ فكر في هدم أحد الأهرامات ونقل أحجارها إليه لتقويته؛ وإن لم تقل المصادر التاريخية إنه فعل ذلك.

فهذا الشجر الديمياطى، اعتبر أهم ثغور مصر بعد الإسكندرية فى الحركة التجارية، وميزته فى أنه لا تهب عليه نوات شديدة مثل نوات الإسكندرية، ولاتنال منه الأمواج العالية والمد والجزر. وقد اشتهر على الخصوص بتجارة الترانزيت فى التوابل، أو ماسماه العرب تجارة العبور بين الشرق والغرب. فقد كان فرع النيل الواصل إلى دمياط، وقد أخذ الأهمية محل الفرع البلوزى الذى ينتهى عند بلوزيم «Plusium» القديمة - وهى بلوطة - أو قرب الفرما - وهى بورسعيد - التى اعتبرت مدخل مصر من ناحية آسيا؛ حين كان الفرع البلوزى أخذًا فى الاضمحلال.

كذلك تأكدت أهمية دمياط فى وجود صناعات كبرى، منها على الأخص صناعة بناء السفن الحربية الكبرى، مثل: المسطحات، والشلنديات، والشوانى^(١). فكان الأسطول الذى يخرج من دمياط للجهاد، يكون له فى بلاد العدو صيت ورهبة^(٢)؛ كما أصبحت دمياط مرسى للمراكب العظام، الواردة من الشام والمغرب؛ وكان يوجد بين كل ألف مركب فى مينائها ما هو ملك للتجار المصريين الكبار. إضافة إلى أن دمياط اشتهرت وقتذاك بصناعة المنسوجات فى المناسج الحكومية «الطراز»^(٣). وغير الحكومية، وتميزت أقمشتها بصباغتها المتقنة، وبالزخرفة والرسومات، ومنها: المقصب الأبيض والملون، والثياب الشرب الرقيقة، والمخمل، والوشى، والبوقلمون، وهو قماش ملون^(٤)، وغيرها. فكان انتعاش دمياط الاقتصادى التجارى والصناعى؛ سببا آخر فى انتعاش المدن الأخرى المحيطة بها مثل: تنيس؛ على الخصوص.

(١) الخطط، ٣ ص ٣١٣ من ٧ - ٨. عن هذه المراكب، انظر: النخلى، السفن، ماجد، النظم؛ وانظر. Dozy: Suppl. I, p.652, 782, 812.

(٢) الخطط، ١ ص ٣١٤ من ١٥ - ١٦.

(٣) نفسه، ١ ص ٣٤١ - ٣٤٣، ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٠ - ٢٢١.

Ency de l'Isi, (art Tiráz) t4, p. 825 sqq.

(٤) سفرنامه، ص ٣٨؛ انظر: Dozy: Suppl. I, P. 740, 460, 693.

(٥) عنها: معجم البلدان، ٢ ص ٤١٩ وما بعدها. مثل: شطا، وديق: الخطط، ١ ص ٨٤.

فكان هدف الصليبيين بعد موت صلاح الدين ثغر دمياط هذا، من دون ثغورها الأخرى؛ باعتباره مفتاح الاستيلاء على مصر؛ حيث ذاعت نبوءة بينهم مؤداها أن أخذه يكون على أيديهم^(١). حقاً إن الهدنة التي عقدت مع صلاح الدين في ٢١ من شعبان سنة ٥٨٨هـ / سبتمبر ١١٩٢م، وكانت مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر، قد انتهت في سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م، إلا أنها جددت لسنة واحدة أخرى في عهد ابنه الملك العزيز عثمان، وبعدها لم تجدد؛ مما أدى إلى دخول ملوك الأيوبيين في مصر في صراع جديد مع الصليبيين؛ بسبب أن الحملات الصليبية الجديدة كان قصدها مصر؛ فغزوها عدة مرات في حملات متعددة مكثفة ومتابعة.



فقامت الحملة الصليبية الرابعة، التي أورد أخبارها مؤرخون مسلمون^(٢) ومؤرخون أوروبيون معاصرون^(٣)، وكان جل المشتركين فيها من البنادقة؛ بزعامة الدوق هنري دونادولو «Henri Donadolo» (١١٠٧ - ١٢٠٥م)؛ بهدف غزو مصر. ومع ذلك فإن الحملة لم تصل إليها؛ لأنها لما وصلت إلى القسطنطينية عاصمة بيزنطة احتلتها، واكتفت في حركتها الصليبية بذلك؛ وسر البابا في روما، إنوسنت الثالث Innocent III (١٢٠٤م)؛ بخضوع كنيسة القسطنطينية له.

وفي الواقع، فإن البندقية وقتذاك ظهرت فيها اتجاهات الاقتصاد السياسي الحر، بحيث أصبحت على رأس الرأسمالية الأوروبية الناشئة، وفضلت المكاسب المادية على الحرب، وكانت لها امتيازات «Privilegium» متعددة في دول كثيرة بما فيها بيزنطة بالذات^(٤) في عهد الإمبراطور أليكسيوس «Alexius»، وفي مملكة بيت المقدس «Jerosolimitanum» في عهد ملكها بلدوين «Baldwinum»^(٥)، وفي مملكة أرمينية «Regem Armenorum» في وقت ملكها هاتون «Heton»، وفي مملكة النورمان بصقلية. في عهد غليام «Guilielmi»، وفردريك الثاني «Fredrico Secundo»، اللذان منحاهما لدوق البندقية «Ducis Venecie»، المسمى يعقوب «Jacobi Theupulo»^(٦). والواقع أنه وجد اعتقاد في البندقية أن من يسيطر على القسطنطينية يتحكم في المال.

(١) أنظر: Meyer: Prise de Damiette. Paris, 1877, 510 Sqq.

(٢) من كتبهم: مفرج الكروب، ٣ ص ٢٧٠ وما بعدها؛ الخطط، ١ ص ٣٤٨ وما بعدها، صبح الأعشى، ٥ ص ٤٠١ - ٤٠٢، العبر، ٥ ص ٢٠٩ - ٢١٠؛ أنظر: ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ط. بيروت، ١٨٧ وما بعدها.

(٣) مثل: الفرنسي روبرت كلاري «Clari»، واليوناني نيسيتاس «Nicetas».

Libri Albus, p. 17.

Ibid, p. 228

; Ibid, LxI p, 286, Libri Blancos, L.vIII, P. 267.

(٤) أرشيف البندقية:

(٥) أنظر.

(٦) أنظر.

وكان العادل [الأول]، سلطان مصر والشام الأيوبي، وهو أخو صلاح الدين؛ يدرك أهمية التجارة فى سياسة جمهورية البندقية؛ وبخاصة أنه كان عقد معها اتفاقية تجارية فى ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م؛ حيث كان يوجد فى مصر عدد كبير من التجار البنادقة^(١)؛ فأسرع بعقد هدنة معها فى ٦٠٧هـ / ١٢١٠م، كنوع من الإغراء المادى حتى لا تتحول الحملة الصليبية إلى مصر، ولا سيما أن العادل كان هو الذى تفاوض مع الصليبيين من قبل، وعقدت على يده أول هدنة بين ملوك أوروبا وصلاح الدين.

* *

ومع ذلك، فإن أوروبا لم تقبل ذلك، وقامت حملة جديدة من آلاف الأطفال فى ٦٠٩هـ / ١٢١٢م؛ لإثارة نخوة الرجال، وركبوا المراكب فى البحر، ولكن غرق معظمهم أو اختطفهم القراصنة. وقد مهدت هذه الحملة للحملة الصليبية الخامسة، التى دعا لها البابا هونوريوس الثالث «Honorius III» (١٢١٦ - ١٢٢٧م)^(٢)، وكان جل المشتركين فيها من الفرنسيين والطيالان؛ بزعامة حنا دى بريين "Jean de Brienne" (١١٤٨ - ١٢٣٧م)، الذى تزوج من ماريا "Maria" ابنة عمورى الثانى "Amauri II"، لى من السلالة الملكية اللاتينية فى عكة^(٤)، وكانت أهم معاقل الصليبيين فى الشرق، منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس؛ وأصبحت لها قداسة بيت المقدس نفسه، فعرفت لهم باسم "Saint - Jean d'Acre"؛ لأن فرسان سان جون "St John"، الذين كانوا فى بيت المقدس وبنوا فيها كنيسة كبيرة. فأصبح لحنا دى بريين بالزواج من ماريا حق المحاربة من أجل عرش بيت المقدس انتقلوا إليه، وكان شيخاً قد ناهز الستين.

وصلت الحملة الى شواطئ دمياط فى ٢٩ من صفر سنة ٦١٥هـ / ٣١ مايو ١٢١٨م، ونزلت فى البر الغربى تجاهه فى مكان اسمه جيزة دمياط، وحصنوا أنفسهم فيه، وهو فى الناحية اليمنى من النيل وخلفهم البحر؛ إذ لم يكن من السهل اقتحام الميناء لوجود برج السلسلة الغليظ. وكان السلطان العادل وقتئذ فى دمشق، وابنه الأكبر الأمير الكامل نائباً عنه فى مصر. فأراد العادل أن يغرى

(١) أنظر. البار، الأيوبيون فى مصر، ص ١١٣

(٢) أنظر. Murr: The Last Crusade, London. بتفصيل وهوامش. ماجد، العلاقات، ص ١٩٠.

(٣) أنظر. Ency Italiana, xv, p. 843 sqq. بتفصيل. ماجد، العلاقات، ص ١٨٩ وما بعدها.

(٤) أنظر. Ency of Isl, (art Akka) 2 ed, tI, p.340

صليبي الحملة بأن يرد لهم بيت المقدس، وماكان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل، وتسليمهم صليب الصلبوت المقدس، الذي كان مرفوعاً على كنيسة القيامة في وقتهم؛ على أن يتركوا دمياط. ولكن حنا دى برين رفض هذا العرض السخى بتحريض من البابا، وقام بهجوم ناجح في آخر يوليو تمكن به من الاستيلاء على حصن البرج في ٢٥ أغسطس، بعد مقاومة استمرت أربعة أشهر. وكان العادل طلب من الصوفي الأندلسي الكبير الشيخ أبى العباس المرسى^(١) - الذي عرف بالراس - بالدعاء له وبالنصرة على العدو، وهو الذي دفن بالإسكندرية، وأصبح من معالمها. ولما سمع العادل بسقوط البرج توفى في جمادى الآخرة في سنة ٦١٥ هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨ م.

وقد حاصر حنا المدينة من كل ناحية، وأخذ في ضربها بالعرادات - وهي منجنيقات قوية - صبت عليها النار والحجارة، وكان الصليبيون يرمون إلى المحاصرين برءوس قتلاهم من أعلى أسوار المدينة. وعلى الرغم من قلة الأقوات، وانتشار الأوبئة بين المحاصرين، فإن المدينة استمرت تقاوم الغزاة حوالى السنة وستة أشهر إلى أن سقطت في أيديهم في شعبان ٦١٦ هـ / نوفمبر ١٢١٩ م؛ فقتل الصليبيون كل من وجدوه من أهلها؛ كما فعلوا في بيت المقدس من قبل، وفجروا في نساتها في الجامع.

عندئذ أعلن الملك الكامل محمد^(٢)، الذي تسلطن في مصر بعد أبيه العادل [الأول] النفير العامة^(٣)، وهي التعبئة العامة للمصريين، الذين جاءوه من كل مكان، من القاهرة ومصر وسائر النواحي بين أسوان والقاهرة. فعسكر الجميع في قرية جنوب دمياط، ستموها المنصورة؛ لما يتفاهل بها من الانتصار عدوهم، واستعدوا لحرب طويلة الأمد، فبنيت فيها الدور والأسواق، كما وصلت للملك الكامل نجدة من ملوك الأيوبيين في بلاد الشام والجزيرة، حيث يذكر المقرئ أن المصريين كانوا يقاتلون بشجاعة أكثر من العساكر الكردية.

(١) تعلم المرسى على ستمائه شيخ. انظر. صفى الدين بن أبى المنصور (٥٩٥ - ٦٨٢ هـ / ١١٩٨ - ١٢٨٣ م) وهو مصري، تحقيق Denis Gril، في منشورات المعهد الفرنسى بالقاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠.
(٢) بتفصيل: Gotschalk: Al - Melik al - Kāmil. Wiesbaden, 1958; Ency of Isl, (art: al,Kāmil) 2ed, t III, p. 520 - 21.

(٣) الخطط، ١ ص ٣٥١ س ٢٤ - ٢٦.

فلما أراد الصليبيون السير إلى القاهرة؛ بعد أن وصلتهم الإمدادات، فإن المصريين قطعوا السدود، وأغرقوا الأرض أمام رحفهم؛ بحيث وجد الصليبيون أنفسهم محاصرين بالماء، والمصريون حولهم من كل جانب. فعمد الصليبيون إلى الخروج من هذا المأزق، وقد انتشرت بينهم الأوبئة، فتقهقروا إلى دمياط، بعد أن خربوا المعسكر الذى أقاموه، وطلبوا وقف القتال والصلح. فوافق الملك الكامل على ذلك؛ ولأنه قامت ضده مؤامرة من قبل أحد قواده الكبار، وهو أحمد ابن المشطوب^(١)، وكان أبوه دافع عن عكة فى أيام جده صلاح الدين. فعقدت الهدنة بين حنا دى بريين والكامل لمدة ثمانى سنين، فى ٧ من رجب سنة ٦١٨ هـ / أغسطس ١٢٢١م^(٢)؛ وأخذت رهائن من قادة الصليبيين إلى أن تم جلاؤهم عن دمياط فى ١٩ من رجب من العام نفسه / ٨ سبتمبر ١٢٢١م.

وقد أظهر الملك الكامل تسامحاً إسلامياً مع أعدائه؛ حينما سمح للكهان الإيطالى المشهور فرانثيسيسكو داسيسى "Francisco Dássi" ^(٣) - فرانسوا - مؤسس طائفة الفرنشيسكان "Franciscans"، أو الأخوة الفقراء؛ وكان يشارك فى حملة دى بريين؛ بالمجئء إلى القاهرة والوعظ فيها، وزيارة بيت المقدس؛ إذ لم يكن مثل بقية الصليبيين يحقد على المسلمين، ويطلق عليهم أخوته.

وقد استمع الملك الكامل لموعظة فرانثيسيسكو بشغف، وكان مثل بقية ملوك الأيوبيين منذ صلاح الدين يميل إلى المتصوفة؛ حيث وجد فى عهده أشهر المتصوفة، وبخاصة: ابن الفارض (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م)، الذى تزهد وعاش فى خرابات الفسطاط، وكان الكامل يزوره^(٤) فيها، والشاذلى الذى كان جاء بصحبة المرسى أبى العباس وزار السلطان الكامل فى القلعة. فحاول الكامل أن يغرى فرانثيسكو بالمال والهدايا ولكنه رفضهما، ورد على الكامل بقوله: إذا تنصر - أى الكامل - هو وشعبه؛ فلأجل حبه - أى حب المسيح - يبقى فى مصر، وعرض عليه أن يقوم أمامه بالمباهلة - وتشبه البشعة - بأن يدخل فى نار مشتعلة؛ فإذا خرج منها سليماً،

(١) انظر: Meyer: Op. Cit, p. 517.

(٢) الخطط، ص ٣٥٣ س ١٣.

(٣) انظر: Giulio Bussietti.

Mohammed et Saint François. Ottawa, 1959, p. 37 sqq:

(٤) النجوم، ٦ ص ٢٨٨ - ٢٩٠، وقبله.

تحول الكامل وشعبه إلى المسيحية؛ أما إذا احترق فإن ذلك بسبب خطاياهم، ولكن الكامل رافة به رفض العرض، الذى كان يعرف نتيجه. وبعدها انسحب حثاً وعسكره إلى عكة التى جاء منها، دون أن يحققوا هدفهم فى الاستيلاء على مصر. وبعد انسحابهم إلى عكة، وصلت لهم نجدة فى ألف مركب، فلما علمت بعقد الهدنة مع الكامل رحلت، ولولا حدوث الصلح لكان حدث مالم يكن فى الحسبان؛ بسبب وصول هذه الإمدادات الجديدة، على حسب ملاحظة المؤرخين المسلمين.

* *

والظاهر أن الفشل الذى لاحق الحملة الصليبية الخامسة أوجد تغييراً مؤقتاً فى اتجاه الحملة الصليبية السادسة، التى نزلت فى عكة من أهم قواعد الفرنجة فى فلسطين؛ بزعامة فردريك الثانى "Frederick II" - فردريش - ، وكان وريثاً لعرش ألمانيا^(١)، ولعرش النورمان فى صقلية، التى كانت من قبل فى يد الأغالبة ومن بعدهم فى يد الفاطميين، ثم استولى عليها النورمان، ولزواجه من إيزابيلا^(٢) "Isabella"؛ ابنة جان دى برين، ملك الدولة اللاتينية فى عكة وقبرس؛ مما جعل لفردريك الحق فى المطالبة ببيت المقدس، وقد عُرف فردريك للعرب بملك الألمان، الملقب بالانبرور^(٣) - أى الإمبراطور - أو بملك الفرنج الألمانية.

ولدينا وصف لحملة فردريك الثانى، من مؤرخ المانى معاصر^(٤)، وهو كانتور فيتر Cantorwitz، بالإضافة إلى ماورد عنها فى كتب المؤرخين المسلمين. وفى الواقع لم يكن قصد فردريك الثانى حرب المسلمين، وإنما التفاوض معهم. فلعل ظهور هذه الروح الجديدة عند الفرنج راجع بالأولى إلى شخصيته؛ نتيجة لإقامته فى صقلية، مكتفى الحضارة العربية فى أوروبا. فكان يوجد فى بلاط النورمان فى صقلية، نخبة من علماء المسلمين الكبار كالجغرافى المشهور الإدريسي، الذى رسم ثمانى وثمانين خريطة، وفى بعضها رسم ثمانى وثمانين خريطة، وفى بعضها رسم أجزاء من أوروبا. أما عن فردريك الثانى، فكان قد تعلم العربية؛ حتى

Bichringer: Kaiser Friedrich II. Berlin, 1912;
Atiya: The Crusade, In the Later
Middle Ages, p. 88 - 89.

(١) أنظر .
ماجد، العلاقات، ص ١٩٣ وما بعدها؛

(٢) تزوجت من ثلاثة أرواح.
(٣) الكامل، ٩ ص ٣٧٦، ٣٧٨.

أنه تراسل مع الفيلسوف العربى ابن سبعين؛ وتوجد لدينا مراسلاتهما، كما كان معجباً غاية الإعجاب بالفيلسوف ابن رشد، الذى اشتهر فى وقته فى العالم المتنور؛ إذ كان يؤمن بوحدة الوجود والعقائد؛ حتى أن النحات الإيطالى العروف ميكلا نجو (١٤٧٥ - ١٥٦٤م) رسمه فى لوحته المسماة مدرسة أثينا، ووضعه فيها مع زرادشت نبى الفرس، وعرف للأوربيين باسم "Averroës"؛ فقد تأثر فردريك بأفكاره الرشيدية فى كتابه: فصل المقال بين الحكمة والشرية من الاتصال، حيث ذاعت لابن رشد بين الأوربيين شروحه الفلسفية فى ترجمات لاتينية وعبرية، بقرار سياسى منه، حيث كان فردريك نفسه يقف فى مواجهة النظام الإقطاعى المتحالف مع الكنيسة. ولا غرو فقد أصبح القرآن المجيد معروفاً للأوربيين منذ أن ترجم إلى اللاتينية فى عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ؛ وإن ظلت ترجمته حبيسة خمسة قرون، إلى أن ترجم من جديد فى عام ١٥٤٣م (٩٥٠هـ).

وبالفعل دخل فردريك الثانى فى مفاوضات مع الملك الكامل، عن طريق الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وهو من الأسرة الأيوبية، وأخً للكامل بالرضاعة. فعقدت بينهما هدنة مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يوماً فى ربيع الآخر ٦٢٦هـ / ١١ فبراير ١٢٢٩م، وبمقتضاها يأخذ الفرنجة القدس، دون قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ولا تكون لهم حامية فيها، كما يأخذون بيت لحم المجاور للقدس، وطريقاً للحجاج النصارى يصل بين القدس وبين عكة على الساحل؛ كما يأخذون بعض مدن أخرى من الساحل، كان صلاح الدين استولى عليها منهم.

ولعل الملك الكامل قد قبل الهدنة لأنه أراد أن يحبب المسلمين فى مصر أو فى فلسطين فى السلام، على أساس أن الحرب ليست هدفاً؛ كما أنه قد يكون قبلها بسبب أنه دخل فى منازعات أسرية، شأن ملوك الأسرة الأيوبية فى التنازع فيما بينهم؛ حيث استمر التنازع من أول قيام دولتهم إلى وقت سقوطها. كذلك قد يرجع سعى الكامل للمصالحة مع فردريك، لأنه كان هو الآخر مثل فردريك رجلاً مثقفاً، ويحس بإحساس العصر، وأن هويته قد أصبحت مصرية وحضارية، حتى أنه رغب فى أن يؤلف له كتاب عن الأهرامات والصنم المسمى أبى الهول؛ فآلفه له جمال الدين الإدريسى فى حوالى ٦٢٣هـ / ١٢٢٧م بعنوان: أنوار علو الإحرام فى الكشف عن أسرار الأهرام^(١).

(١) توجد نسخة منه فى B.N، برقم 2274.

يضاف إلى ذلك أن أوروبا نفسها، وفرنسا بالذات، وكانت أكثر الدول الأوروبية حماساً للحروب الصليبية، قد بدأت هي الأخرى تعيد حساباتها لهذه الحروب المدمرة، التي لا تليق بإنسانية الإنسان؛ بحيث ظهرت في جنوبها جماعات عرفت بالـ"البيجوا" "Albigensis" أو الكاثاري "Cathares"، بمعنى الأطهار، وكانوا ضد هذه الحروب، ووهبوا أنفسهم لله، حتى أن البابا أنسونت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) حاربهم بحماس مثلما كان يحض على حرب المسلمين، بحرب صليبية حقيقية وهزمهم في معركة تُولوز وكرّسون في عام ١٢١٣م، وقتل منهم عشرين ألفاً. فلعل عقيدة هذه الجماعات، التي كرهت العنف في حرب المسلمين قد تأثرت بروح الإسلام، حتى أنها خرجت على عقيدتها الكاثوليكية، وكانت لا ترى أن المسيح هو الله، وتسخر من الصليب، وقالوا إن البابوات حلفاء الأباطرة، وأنهم زمرة شياطين، وليسوا خلفاء لبطرس الرسولي.

فهذه الهدنة جعلت فردريك الثاني والكامل مثاليين يحتذيان وقتذاك في تنظيم علاقات جديدة بين الشرق والغرب. ومع أن الفيلسوف الألماني نيتشه وصف فردريك بأنه أول زعيم أوربي يستحق الإعجاب؛ ودانتى قبله وصفه بالرجل العالم، أما المعجبون بأفكاره السلامية فسموه أعجوبة الدنيا "Stupar Mundi"، إلا أن البابا جريجورى التاسع Gregory (١٢٢٧ - ١٢٤١م)، الذى تولى البابوية بعد هونوريوس الثالث Honorius (١٢١٦ - ١٢٢٧م)، لم يرض عن أفكاره، فحرمه وسماه تابع محمد^(١)، كما أن شعبى الكامل وفردريك رميا هما بالكفر.

* *

ولكن أغلب أهل أوروبا كانوا على خلاف فردريك الثاني، يمتنون المسلمين مقتاً شديداً؛ ويقدرّون أن شوكة الإسلام لا تكسر إلا باحتلال مصر. وعلى الرغم من أن معاهدة فردريك مع الكامل جعلت أوروبا تملك بيت المقدس لمدة خمس عشرة سنة (١٢٢٩ - ١٢٤٤م)؛ فقد قامت بالحملة الصليبية السابعة، وكان معظمها من الفرنسيين، وتزعمها ملك فرنسا لوى^(٢) "Roy Louis"، الذى سماه العرب لويس بن لويس، أوريد أفرانس، أى ملك فرنسا "Roi de France"، وكانت بصحبته الملكة زوجته مارجريت "Marguerite"، وأخوته الثلاثة، وعدد

Balzon: The Popes and The Hohenstaufen. London, 1888.

(١) انظر.

(٢) صبح الأعشى، ٨ ص ٣٤

كبير من الأمراء والنبلاء الفرنسيين، حيث كان مؤرخو مصر يعتبرون فرنسا هي أصل مملكة الفرنجة في أوروبا، والمحرك الأول للحروب الصليبية؛ بحيث أطلق المؤرخون العرب لفظة: الفرنجة، على عموم أهل أوروبا. وقد قام البابا أنسونت الرابع "Innocent IV" بالدعوة لها في مجمع عقد في مدينة ليون سنة ١٢٤٥م (٦٤٣هـ). وكان من المفروض أن يشترك فيها فردريك الثاني أيضاً؛ إلا أنه اعتذر المرة تلو المرة^(١)، وقيل إنه هو الذى أخبر السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، عن طريق رسول من قبله بعزم ملك فرنسا على المسير إلى مصر وأخذها، وربما فعل ذلك أيضاً لحبه للسلم؛ كما ذكرنا.

ولدينا وصف مسهب عن الحملة الصليبية السابعة؛ فيما كتبه عدد لا بأس به من المؤرخين المعاصرين، وخصوصاً من قبل مؤرخ فرنسى وهو الفارس جوفانفيل^(٢) "Joinville"، الذى صحب الحملة وأرخ لها. فقد ترك ملك فرنسا شئون دولته في يد أمه بلانش القشتالية "Blanche de Castille"، فى ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) وذهب على رأس حملته الكبيرة الى الشرق مارا بقبرس، التى كانت تحكمها أسرة فرنسية وقتذاك؛ حيث شتى هناك. وقد لاحظ المؤرخ ابن فضل الله العمرى، أن عساكر الملك الفرنسى فى البر أطول منها فى البحر، وأنه ليس له أسطول أو مراكب، فحملتهم سفن الجونيين والبزيين من جمهوريات مدن إيطاليا^(٣)؛ فأجرت له جنوة عشر سفن بين كبيرة وصغيرة^(٤)، وبالمقابل عقدت معه اتفاقية تجارية بذلك. على كل حال أبحر لويس فى ١٧٠٠ مركب؛ وإن غرق أغلبها ولم يصل منها إلى دمياط إلا ٧٠٠ مركب فقط. وقبل أن يهاجم دمياط، كتب إلى السلطان الأيوبي فى مصر يقول^(٥): إنه يسوق المسلمين فى الأندلس سوق البقر، ويقتل

(١) الخطط، اص ٣٥٣.

(٢) Joinville: Histoire de Saint Louis. Texte Original du xiv^e siècle, accompagné, (٢) انظر. d, une traduction en Français moderne, par Wailly. Paris, 1874.

وتحقيق من Amari، فى Roma. و ترجمة وتعليق من حسن حبشى بعنوان: جوفانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، القاهرة ١٩٦٨. و عن الحملة؛ انظر. مصادر أخرى، مثل: ابن واصل، وابن العبري، والمقرئى، وابن خلدون، وابن فضل الله، وأيضاً، انظر جوزيف نسيم، لويس التاسع فى الشرق الأوسط، وزيادة: حملة لويس التاسع على مصر.

(٣) أنظر. جوزيف، علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية؛ بحث مستخرج ١٩٧١، ص ٧٣ وهامش ٥١.

Les Archives de L' Orient Latin. Paris, 1884, 232 - 6.

(٤) انظر.

(٥) صبح الأعشى، ٨ ص ٣٦ - ٣٨؛ السلوك، ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

الرجال، ويرمل النساء، ويستأسر البنات والصبيان، وإن عدد عساكره كعدد الحصى، ويدعوه إلى الخضوع له، على أن يبقى للمسلمين على مساجدهم في القدس، ويقبل منه دفع الجزية. ومع أن عرضه لقي قبولا من القبط في مصر؛ إلا أن المسلمين رفضوه، ورد عليه السلطان مهدياً إياه بالفناء، وواصفاً إياه بالغرور، ومذكراً إياه بهزائم الفرنسيين السابقة. ولكن الملك الفرنسي كان مصمماً على غزو مصر، وأخذ يحرض ملوك أسبانيا النصرانية بالاشتراك معه في حملته عليها.

وقد استطاعت الحملة الفرنسية الدخول إلى دمياط بعد استيلائها على حصن البرج الحصين في ٧ بقين من صفر ٦٤٧هـ / ٥ يونية ١٢٤٩م، وكانت فيها حامية أغلبها من عرب قبيلة كنانة، وفي القيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ، الذي اشترك من قبل في صد حملة جنّا دي برين الصليبية السابقة. وعلى الرغم من أن المدينة كانت مشحونة بالأرواد والأقوات والذخائر والأسلحة العظيمة والأموال؛ خوفاً عليها من أن يصيبها ما أصابها في أيام الكامل؛ إلا أن معظم حاميتها العرب هربت جبنًا، ولم تقم بأية مقاومة تذكر. ويُذكر أن الملك لويس لما دخل دمياط حول مسجدتها إلى كتدرائية سماها نوتردام - Notre - Dame؛ على اسم كنيسة نوتردام في باريس.

في الوقت نفسه، دُعي المصريون بالنفير العام؛ حيث يقول النص التاريخي إنه خرج عالم عظيم من البلاد لجهاد الفرنج؛ فجاءوها من كل مكان نحو المنصورة، وكانت معسكراً لهم منذ حملة جنّا دي برين السابقة، وهرب أهل دمياط إليها ومعهم العسكر الفارون، وكان قد جدد سورها وحصنها بالأبراج، وحفرت فيها الخنادق، وجددت مبانيها بما فيها قصر السلطان. فلما حضر السلطان نجم الدين من دمشق محمولا على محفة لمرضه، وكانت تؤله قرحة في مابضه وهو باطن ركبته؛ تعوقه عن ركوب فرسه، وحصل له منها ناصور وقرحة في الصدر^(١) أيضاً، وكان طيبه الصيدلاني المشهور ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) وغيره؛ فكانوا يعالجونه بالأعشاب. فعاقب السلطان رؤساء عسكر حامية دمياط، وشتق من قوادهم ما يزيد على خمسين أميراً؛ بفتوى من الفقهاء^(٢)، وويخ قائد الحامية فخر الدين؛ وهو من الأسرة الأيوبية.

(١) الخطط، ١ ص ٣٥٥ س ٢١؛ السلوك، ١ / ٢ ص ٣٣٦.

(٢) النجوم، ٦ ص ٢٢٠؛ انظر. البار، مصر في عهد الأيوبيين، ١٩٦١، ص ١٤٢.

وما لبث أن مات السلطان فى قصره بالمنصورة، وهو يترقب هجومهم، فى منتصف شعبان سنة ٥٦٤٧هـ / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م. فحمل جسده بعد تحنيطه فى مركب إلى القلعة بالروضة، ودفن فى قبر خاص بنى بجوار مدرسته فى القاهرة؛ بنته له زوجته شجر الدر أو شجرة الدر حيث استخدمت الفسيفساء لأول مرة فى رينة قبة^(١) المحراب فى المسجد. وقد كانت شجرة الدر؛ امرأة ثقة، يشاورها السلطان فى كل أموره، بما فيها العمل السياسى، ويتركها لتحكم باسمه فى القاهرة فى أثناء غيابه. فأحضرت وهى بالمنصورة الأمراء المماليك، الذين أصبحوا قواد الجيش الأيوبي فى أغلبهم، من معسكرهم فى الجبهة، وجعلتهم يحلفون على أن يكون توران شاه ولى العهد سلطاناً بعد نجم الدين، وأن يكون الأمير فخر الدين قائد الجيش أتباعاً فى تدبير شئون المملكة إلى أن يحضر توران شاه من بلاد الجزيرة، وكان أبوه تركه ليحكم فيها، فقالوا لها: سمعاً وطاعة^(٢)، ظناً منهم أنها أوامر السلطان نفسه. كذلك تكتمت موت السلطان، خوفاً من أن الفرنجة يطمعون فى البلاد، وذلك بالاتفاق مع فخر الدين قائد الجيش؛ فكان إذا سأل سائل عن السلطان ردت بأنه مريض، ما يصل إليه أحد^(٣). ويبدو أن السلطان نفسه، كان قد أحس بقرب منيته؛ فوقع على عشرة آلاف علامة^(٤)، ليستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته، فاستمرت المراسيم تخرج حاملة علامة السلطان.

ولما علم الصليبيون بموت السلطان؛ عقدوا مجلساً من البارونات للاستفادة من هذه الظروف المواتية، فاقترح بعضهم بمهاجمة الإسكندرية، والاستيلاء على شواطئ مصر كلها. ولكن أخو الملك وهو الكونت روبير أرتوا، Robert, Comte d'Artois، وكان متحمساً فى قتال المصريين، فلمنه حرض بالهجوم على مدينة المنصورة، والانتشار فى الدلتا والسير على القاهرة، أما المصريون الذين جعلوا خط دفاعهم الأول فى أشموم طنّاح^(٥)، وهى قرب دمياط؛ فإنهم قطعوا السدود؛ بحيث وجد الفرنسيون أنفسهم محاصرين بالماء. وقد لاحظ المؤرخ ابن إياس أن المصريين كانوا يقاتلون أكثر مما كان يقاتل جيش السلطان^(٦). ولا شك أن الفلاحين المصريين يكونون دائماً جنداً مجيدين؛ إذا ما درّبوا على القتال؛ حيث وصف

(١) أنظر: Doris Abousif: The Qubba, Ann Lslamo Txix, 1985.

(٢) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٢٣.

(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٦؛ الخطط، ١ ص ٣٥٨.

(٤) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٣٩. قيل كانت بخط خادمه المسمى سهيل، ولا يشك من رآها أنها ختم

السلطان. نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٤.

(٥) عنها: معجم البلدان، ١ ص ٢٦٠ - ٢٦١.

(٦) بدائع، ١ ص ٨٤؛ ٨٦.

الرسول المصريين بأنهم خير أجناد الأرض. فكانوا يتحاليون فى خطف الفرنج؛ حتى أن شخصاً أخذ بطيخة، وأدخل رأسه فيها؛ وغطس فى الماء الى أن قرب من الفرنج؛ فظنه واحد منهم أنها بطيخة، فنزل ليأخذها فاختطف^(١)، أما العوام فكانوا يقاتلونهم بأى شىء، ويمطرونهم بوابل من الحجارة والطوب. كذلك كان المصريون يحرقون معابرهم، التى أقيمت على الترع والقنوات، بل صنعوا مراكب لتدمير مراكب الفرنجة؛ فكانت مراكب المصريين تحمل على الجمال. ولما وصلت مراكب فيها ذخيرة للفرنجة؛ تمكنت شوانى المصريين من أخذ اثنين وثلاثين مركباً، منها تسع شوانى^(٢). كذلك كان يذهب الى الجبهة بعض رجال الدين من العلماء والمتصوفة من القاهرة للشد من أزر مقاومة المصريين، ويسرون بين الجند المسلمين ويشجعونهم بالوعظ فيهم، ومن بينهم الفقيه المشهور عز الدين بن عبد السلام^(٣)، المعروف بصراحته المطلقة مع الحكام ولا يتردد فى نقدهم، والصوفى الكبير أحمد الشاذلى.

ولما قتل قائد الجيش فخر الدين بن شيخ الشيوخ فى أثناء قتاله للفرنجة؛ فإن شجرة الدر كلفت القيادة فى الجيش الى أبرز ممالك السلطان وهو بيبرس^(٤)، الذى اسمه يعنى الفهد، وكان قد اشتهر بالجرأة فى القتال والذكاء. وفى الوقت ذاته أرسلت شجرة الدر من يستدعى توران شاه، ابن الملك الصالح، وولى عهده من بلاد الجزيرة. ولما وصل توران شاه إلى مصر بعد رحلة طويلة، بدأت من حصن كيفا - بلدة فى بلاد الجزيرة على نهر دجلة - مارا بدمشق وغزة، حتى وصل إلى ميدان المعركة مباشرة، دون أن يمر بالقاهرة، فأبدى اقتراحات جديدة فى حرب الصليبيين، وقام على رأس المصريين بهجوم مفاجئ بدأ من فارسكور، وتقع بين دمياط والمنصورة على الشط الأيمن للنهر، فى المحرم ٦٤٨هـ / أبريل م ١٢٥٠؛ مما أدى إلى هزيمة الفرنسيين هزيمة ساحقة، اشتهرت بموقعة الإبادة، حيث كان معظم القتلى فيها من الفرنسيين.

ويبدو أن المصريين استخدموا النار الإغريقية بشكل مكثف لم يُعرف له مثيل؛ حتى أن المؤرخ الفرنسى جوانفيل «Joinville»؛ الذى صاحب الحملة، يذكر أن الكرات النارية تساقطت عليهم؛ ولم يكن لهم عهد بمثلها من قبل^(١).

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤٨.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٥٤، ٣٥١.

(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٥٤.

(٤) صبح الأعشى، ٢ ص ١٤٥، ٥ ص ٤٥٨؛ السلوك، ١ / ٢ ص ٤٣٦؛ انظر. جمال سرور، بيبرس، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٩. Ency of Isl., (art Baybars) 2cd, tl,p 1124 sqq.

وفى رأينا أن البارود الذى استخدم فى موقعة عين جالوت، وأدى إلى سحق المغول، كان السبب فى هزيمة الفرنسيين أيضاً فى فارسكور؛ إذ كان المصريون على معرفة تامة به، وبآلاته من القنبلة والمدفع والمدفع أو المكحل أو المكحلة والبندقية؛ حيث تذكر النصوص التاريخية^(٢)؛ أنه كانت توجد للمدافع مسابك فى القاهرة بجوار القلعة. كذلك اشتهر ببيرس قائد الجيش بالترييض برمى البندق، ولعل تسميته بالبندقدارى بسبب ذلك؛ أى أنه كان يجيد استخدام البندقية كما يذكر ابن إياس أن من كان يرمى بالبارود هم أولاد الناس أى من المصريين؛ وذلك لأن المماليك كانوا من الفرسان؛ ولا يستعملون إلا السيف أو مافى نوعه رمزاً للرجولة.

ولما هرب الفرنسيون إلى المنصورة، دارت فيها حرب الشوارع بالسلاح الأبيض. فكان تدفقهم إليها أن أوقع خسائر فادحة بهم؛ فقتل من الصليبيين عدد كبير، إذ قتل عشرة آلاف فى قول المقل، وثلاثين ألفاً فى قول المكث^(٣)، من بينهم فرسان كبار، مثل الكونت أرتوا أخى الملك، الذى قتله الأمير ببيرس بيده؛ كما أن الأديب سعيد العريان^(٤) يذكر فى كتابه عن شجرة الدر: لا يزال الفلاحون إلى الآن يعثرون على أشلاء القتلى الفرنسيين؛ وهى جماجم، حين يحفرون الأرض؛ بينما يذكر المؤرخون المسلمون أنه لم يستشهد فى قتال الفرنسيين من المصريين غير نحو مائة رجل فقط^(٥).

(١) أنظر. Joinville: Op. Cit. p. 46, 52; Reinaud: Feu Grégeois Paris 1845, p. 53 sqq.
(٢) تخصص حسن الرماح المعروف بالأحدب (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥م)، فى التأليف الحربى فى كتابه: الفروسية والمناصب الحربية، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N) فى Paris برقم 2825، ويوجد منه ميكروفيلم بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، برقم ٣٨ فروسية، كما ظهر له تحقيق من عيد ضيف العبادى، فى بغداد ١٩٨٤. كذلك أكد العميد محمود نديم فهمي؛ فى كتابه: الفن الحربى فى عصر المماليك؛ القاهرة ١٩٨٣؛ على استخدام البارود فى فارسكور، وهى رسالته للماجستير (بإشرافى). ولدينا أيضاً كتاب لابن البقال البغدادي (ت ٥٨٥ هـ / ١١٩٤م)، بعنوان: المقترح فى المصطلح، فى تعلم رمى البندق، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية ببغداد (B.N). برقم ٤٥٣٩. وانظر. Ayalon: Gunpowder and Firearms, in, the Mamluke Kingdom. London, 1926, p. 12 - 13.

وماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، (بتفصيل) ص ١٧٥ وما بعدها.

(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٥٥، ٣٥٦؛ صبح الأعشى، ٨ ص ٣٨٠.

(٤) أنظر. سعيد العريان، شجرة الدر، ص ١٢٥.

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٥٦ س ١، ٢.

كذلك أسر عدد كبير من الفرسان الفرنسيين ورجالتهم، بلغ أكثر من مائة ألف، بمن فيهم الملك الفرنسي نفسه؛ حيث تمكن ممالك السلطان، الذين أطلق عليهم جوانفيل «Halequa»^(١)؛ لأن أساس عملهم كما ذكرنا الإحاطة كالحلقة بالسلطان لحمايته. فقد أسر الملك الفرنسي في إحدى طرقات المنصورة، وأسر معه أخواه كونت أنجو «Anjou» - سماء العرب الكند - والكونت ألفونس «Alphonse»^(٢)، وعشرات من النبلاء والبارونات، والفرسان الفرنسيين، حيث كان لويس يحرص على تربية خلصانة تربية نصرانية^(٣). فحمل الملك في قيد من الحديد، وأخذ معطفه - عقارة - وهو قرمزي اللون، وبفرو سنجاب، وبه مشابك، وسيفه، وسيف أخيه أرتو «Artoi»، الذي قتله بيبرس بيده كما ذكرنا. فسلم الملك للطواشي صبيح المعظمى وحبس في دار فخر الدين بن لقمان^(٤)، صاحب ديوان الإنشاء، وسارت البشائر إلى كل مكان، بهذا الانتصار العظيم على أجنحة الحمام^(٥)؛ حيث لدينا منها نص، أورده المؤرخ سبط بن الجورى، وقصائد عديدة منها قصيدة للشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح^(٦)؛ ألقيت بين يدي شجرة الدر، التى لم تبرح مكانها قبل انتهاء المعركة، ورد فيها:

وكل أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير أو جريح
ألهمك الله إلى مثلها لعل عيسى منكم يستريح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشي صبيح

(١) أنظر . Wiet: Grandeur p. 252; Joinville, p. Lxix.

(٢) أنظر . Joinville, p. 50، السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤٨.

(٣) جوا نقيلا، ترجمة حبشى، ص ٢٩٥.

(٤) أنظر . Hassan Abdel Wahab: La maison de Lokman. C.H.E Voll, 1949, pp. 529 - 539.

(٥) العبر، ص ٣٦٠.

(٦) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٣ - ٤.

وقد تمكن توران شاه من أن يعقد مع لويس اتفاقية؛ حيث جرت مفاوضات ومحاورات ومراجعات وذلك فى مايو ١٢٥٠م. فمن نصوصها أن يتعهد توران شاه من جانبه؛ بأن يطلق الأسرى النصارى فى مصر والشام، وحتى هؤلاء الذين أسروا من أيام العادل [الأول] والكامل والصالح، وكانت عدتهم بين: ١١، ١٢ ألف أسير^(١)، أفلعوا معه إلى جهة عكة. أما الملك لويس فتعهد من جانبه بأن يدفع فدية قدرها ثمانمائة ألف قطعة ذهب - دينار - بالعملة البيزية^(٢) - Besant Sar - racenat، عليها نقش الصليب وعبارات التلث؛ يدفع نصفها مباشرة، والنصف الآخر عند رحيله من عكة، جمعتها له زوجته مارجريت، التى كانت بقيت فى دمياط؛ ويسلم الأسرى المسلمين فى حوزته، الذين وقعوا فى أسر المسلمين، بمن فيهم أسرى المسلمين فى الشام، ويسلم مدينة دمياط، أما ما يوجد فيها من يامتعة الفرنسيين؛ فترسل لهم فى وقت لاحق. كذلك أراد توران شاه أن يستفيد من نصره، بأن يخلى الفرنجة معاقليهم فى الأراضى المقدسة، أو تلك التى تتبع فرسان الداوية والإسبتارية، ولكن لويس تعلل بأنه ليس من حقه أن يتنازل عن بلاد ليست ملكا له؛ إذ وصف لويس بأنه محاور فطن للخباية. ومع ذلك فلعل شجرة الدر كانت شاركت توران برأيها فى عقد هذه الاتفاقية، عن طريق مندوبها الأمير حسام الدين محمد^(٣)، الذى كان نائباً لنجم الدين من قبل.

ومع ذلك لم يرجع ملك فرنسا إلى بلاده، وإنما التجأ إلى عكة، ومن هناك كتب إلى الشعب الفرنسى يخبره بحقيقة ما حدث^(٤)، ويدعوه إلى المجيء للحرب المسلمين؛ حيث بقى فى عكة ثلاث سنين^(٥)، وكان ينوى فى القيام بحملة صليبية جديدة على مصر، وأشار عليه كبار قواده بقصد تونس فى شمال أفريقيا لضعفها، وكان يحكمها الحفصيون، الذين حكموها بعد الموحدين^(٦)؛ ولكن تونس هى

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٦٢ س ٩، ١٠. عنها أيضاً: النجوم (ط. القاهرة) ٦ ص ٣٢٨ - ٣٣٠، ٣٦٤ -

٣٧٠. انظر. باركر، الحروب الصليبية ترجمة، ص ١٥٦.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٦٣ وهامش (١)؛ النجوم، ٦ ص ٣٧٤.

(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٢ - ٣.

(٤) نص الخطاب يوجد مترجماً عند Michaud، فى... Hist des Croisades, IV, 619 - 631.

انظر. ماجد، العلاقات، ص ١٩٨.

(٥) المفضل (P.O)، ص ٤٦٣، ٤٦٤.

(٦) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٥٥ س ٥ - ٧.

الأخرى؛ لقنته درسًا قاسيًا. وعلى كل حال، منذ ذلك الوقت ظهرت أطماع الفرنسيين في دول شمال أفريقيا العربية، وأصبحوا يترصدون بها؛ للانقضاض عليها.



وبذلك قُضى على أكبر حملات الصليبيين على مصر؛ إلا أنها فشلت مثل غيرها من حملاتهم السابقة عليها؛ مما جعلهم يكفون عن إرسال حملات أخرى عليها أو على فلسطين. فقد فهم الفرنجة أن القوة الرابضة في مصر؛ ستكون دائمًا حائلًا لأطماعهم في الشرق الإسلامي، وإن كانت مصر هي التي ستقوم برد الفعل بعد ذلك، ~~التي ستقوم برد الفعل~~ أخيرًا معاقلهم في عكة؛ وإن تأخر ذلك وقتًا؛ لسبب ظروف مصر الداخلية ~~بأنها كانت~~ بالحكم من ملوك الأيوبيين إلى سلاطين المماليك، الذين تبدأ بهم حقبة جديدة في تاريخ مصر الإسلامية. ومن المؤكد أن التحولات الكبرى "Tournat de l'Histoire"؛ في تاريخ مصر الإسلامية؛ جاءت دائمًا نتيجة من نتائج الحملات الصليبية على مصر، مثلما كان قيام دولة الأيوبيين في مصر نتيجة للحملات الصليبية أيضًا.

الفصل الثامن

سقوط الدولة الأيوبية في مصر في يد المماليك

نعرف أن صلاح الدين الأيوبي، قد تمكن من تكوين جبهة إسلامية واسعة، امتدت من طرابلس غرباً، حتى الفرات ودجلة شرقاً فضلاً عن امتدادها إلى الحجاز واليمن في الجنوب؛ مما اعتبر إنجازاً هاماً في المنطقة العربية. ولكن هذه الجبهة الموحدة القوية، سرعان ما تفككت بعد موته؛ إذ ترك صلاح الدين سبعة عشر ولداً^(١)، غير الأخوة وأولاد العم، فوقع بينهم الخلاف، ووثب بعضهم على بعض، ولم يقطع لحدهم عما في يدهم. فكونوا علك وإمارات حشاشنة، كل واحدة منها اعتبرت نفسها مستقلة عن الأخرى، وكل واحد من حكامها جعل له أتباعاً^(٢)، أى وصياً على أبنائه، وذلك على الطريقة السلجوقية السائدة في عصرهم، فكان الأتابكة بدورهم يسعون إلى التنافس. واستمر هذا الطابع^(٣) في المنازعات والمشاحنات والدسائس بين أفراد الأسرة الأيوبية طوال الفترة التي حكموا فيها مصر، وبلاد الشام، وبلاد الجزيرة. ومع ذلك؛ كان أقوى أفراد البيت الأيوبي من يتولى منهم الحكم في مصر، وحيث يتلقب بالسلطان، وقد نجح عدة مرات في أن يجعلهم يعترفون بنفوذه عليهم؛ لأنه كبير البيت الأيوبي.

فبعد موت صلاح الدين في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ / ٤ مارس سنة ١١٩٣م، انقسمت دولته بين أبنائه وأفراد أسرته، وكان قد وزعها فيما بينهم. فكانت مصر من نصيب العزيز عثمان، وشمل حكمه معظم جنوب فلسطين، ودمشق من نصيب الأفضل علي، وشاركه في حكمها مع حماة وحمص بعض الأمراء الأيوبيين، وحلب من نصيب الظاهر غازي، وبلاد الجزيرة في يد العادل أبي بكر أخى صلاح الدين، وإن ضمت حلب إليه أكثر من مرة؛ كما رجع إليها الظاهر

(١) الفتح القسى، ص ٣٢٦. يقول ابن تغرى بردى: إنهم سنة عشر ذكراً، وابنة واحدة. البنجوم، ص ٦٢.

(٢) أنظر. قبله.

(٣) عن منازعاتهم، انظر كتاب: التاريخ المنصورى لابن نظيف، تحقيق أبو العبد دودو، دمشق ١٩٨٢.

غازى من جديد، واليمن فى يد طغتكين - طغديكين - الذى ورث أباه توران شاه فى حكمها، وهو أخو صلاح الدين.

ولكن العادل أيا بكر محمد، من دونهم جميعاً كان يرمى إلى إعادة الدولة الأيوبية الموحدة التى أسسها صلاح الدين، ولاسيما أنه أصبح كبير البيت الأيوبى؛ فتدخل بينهم، وساعده على ذلك، أنه كان وصياً على الأفضل فى دمشق، وأتابكاً للعزیز فى مصر، فلما توفى العزیز فى رحلة صيد إلى الفيوم، أصبح وصياً على ابنه المنصور، وكان صبيّاً؛ فعزله وأعلن السلطنة لنفسه فى الشام ومصر معاً فى ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م. ومع ذلك؛ فإن الوحدة الأيوبية التى أقامها العادل، كانت وحدة هشة، ولم تصل إلى الوحدة الشاملة بين أفراد البيت الواحد، التى أقامها صلاح الدين قبله.

كذلك بعد موت العادل أبى بكر فى ٧ من جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨م، حدث ما حدث بعد موت صلاح الدين؛ إذ ورع مملكته بين أبنائه على أنهم نوابه^(١). ففى دمشق المعظم عيسى، وفى مصر الكامل محمد نصر الدين، وفى ديار بكر ببلاد الجزيرة الأشرف موسى. ولكن الكامل كان مثل أبيه وعمه سعى إلى إقامة الدولة الأيوبية الموحدة؛ فعمد إلى توحيد مصر مع سورية وبلاد الجزيرة، واستولى على مدن أخوته وأقربائه، وساءت علاقته معهم وبخاصة مع أخيه المعظم عيسى فى دمشق.

ولما توفى الكامل محمد فى ٢١ من رجب سنة ٦٣٥هـ / ٦ مارس ١٢٣٨م، وكان جعل العادل سيف الدين [الثانى] فى سوريا ومصر^(٢)، مع أنه الابن الأصغر، فنارعه النفوذ أخوه الأكبر نجم الدين أيوب^(٣)، الذى لقّب بالملك الصالح، وكان فائداً لأبيه فى حصن كيفا ببلاد الجزيرة، وبخاصة أنه كان فى أول أمره فى ولاية عهده، وربما كان ينوى الخروج على أبيه بسبب ذلك. حقاً كان الموقف صعباً بالنسبة لنجم الدين لتحقيق طموحاته فى السلطنة فى مصر، وهو فى بلاد الجزيرة، إلا أنه لم يكن يقل عن غيره من الأيوبيين فى تأمره ومشاحناته. فاعتمد فى أول أمره على جند مرتزقة أتوا من خوارزم، بعد أن انحلت دولتهم

(١) أوردها المقريزى فى السلوك، ١ / ٢ ص ٣٧٠.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٦٧.

Ency de l'Isl, (art al - Malik as - Sâlih) (4, p. 112 sqq.

(٣) عنه بتفصيل:

على يد المغول، وهزيمة ملكهم جلال الدين خوارزم شاه، وتفرقهم في جيوش الملوك الأيوبيين المتنافسين؛ بحيث أصبحوا يتحكمون في بلادهم^(١)؛ كما تحكموا أيضاً في بلاد سلاجقة آسية الصغرى، وإن تخلص من هؤلاء بإبعادهم إلى ديار مصر ببلاد الجزيرة؛ ليشاركوا الأيوبيين فيها. فكان الملك الرحيم صاحب الموصل هو أشد أعدائه في بلاد الجزيرة، حتى بلغت كراهيته له أنه أراد أن يقبض عليه، ويحمله في قفص^(٢)، ويسلمه إلى الخليفة في بغداد. ولكن نجم الدين الذي سوى أموره في بلاد الجزيرة بالجند الخوارزميين، وبعد ذلك قرر تركها إلى دمشق؛ بعد أن ترك ابنه توران شاه مكانه في حصن كيفا في بلاد الجزيرة، ومعه صاحب زهير الشاعر المصري في عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م^(٣)، متهزأ وجود نزاع بين العادل الصغير [الثاني] في مصر ونوابه في الشام؛ حيث كان نجم الدين يحرض الذي هؤلاء ضده. ثم اتجه إلى مصر في العام التالي ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م، وساعده في الاستيلاء عليها فخر الدين بن شيخ الشيوخ، أحد أفراد الأسرة الأيوبية، وكان يحقق على العادل [الثاني]، إذ سجنه لمكتبته نجم الدين^(٤). فبويع لنجم الدين بالسلطنة في مصر ووصله التقليد والخلع الخلاقية، حيث قرأ تقليده الخلاقى المؤرخ المعروف سبط بن الجوزى [ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م]^(٥)، في حضور مؤرخ مشهور آخر هو ابن العديم (ت ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م).

وقد سراً الناس في مصر سروراً كبيراً بسلطنة نجم الدين، وزيت له القاهرة ومصر وظواهرها وقلعة الجبل زينة عظيمة؛ ذلك لأن العادل [الثاني] لم يكن يهتم بمصالح الدولة^(٦) اهتمامه بالجوارى الجنكيات، وهن عازفات آلة الجتكت من آلات الطرب، والعوديات، والراقصات، وحتى رقاص الأفراح^(٧)، وإقامة الأسمة - وهى الولاثم الفخمة في الميدان الأسود تحت قلعة الجبل، بحيث كان قد صرف كل ما كان يوجد في خزائن الدولة من الأموال، وبلغ ماصرفه منها ستة آلاف ألف

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٢٧٠، ٣١٦، ٣٣٩.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٠.

(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٥، ٢٨٠.

(٤) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٦.

(٥) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٨.

(٦) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٧.

(٧) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٥.

دينار [٦ مليون]، وعشرين ألف ألف درهم [٢٠ مليون]^(١). فسجن نجم الدين أخاه العادل [الثاني] في القلعة في جبل المقطم، ثم أرسل إليه من خنقه في السجن، ولم يتول غير بضعة عشر شهراً.

وعلى عكس العادل [الثاني]، كان نجم الدين سلطاناً مهيباً يملأ العينين، وقد عرفه المصريون في سيرة الظاهر بيبرس بالنجابة والشهامة، وأنه مكشوف عنه الحجاب، وذو همة كبيرة مثل جده صلاح الدين، وسلاحه في هزيمة الفرنسيين عصاو درع من خشب الجميز بملاحظة المؤرخين. ومع هذه المهابة، فإنه لم يكن يرفع بصره إلى أبعد من الذي يحادثه، وأكثر مايقول إذا شتم: يا «متخلف»^(٢)، ولاعرف من النكاح غير زوجته شجرة الدر، وكانت في الأصل من رقيق الترك، التقطها وهي صغيرة؛ حينما كان أميراً لبلاد الجزيرة، فلازمته من وقتها، وجاءت معه إلى مصر، وأنجبت له ولداً اسمه خليل، لقّب بالملك المنصور خليل، إلا أنه توفي في مصر، ولبس المصريون عليه البياض، زى الحداد من أيام الفاطميين، فعرفت بسبب ذلك بأم خليل. ولما كانت تسيطر على زوجها بجمالها وذكائها، حتى وصفت بأنها أنثى ذات جمال وفتنة، وأدب وفن، وزوجة ذات حب ووفاء؛ فقد غمرها بالدر والجوهر، وبسبب كثرة مجوهراتها اشتهرت باسمها شجرة الدر أو شجر الدر^(٣)، أو شجرة الدر الصالحة نسبة إليه، أو ولعلها سميت هكذا؛ لأنها كالشجرة التي تظل عرشه^(٤).

• كذلك عمّر نجم الدين في مصر مالم يعمره أحد من ملوك بني أيوب قبله^(٥)؛ وكان يحب العمارة مثل كل ملوك مصر وحكامها؛ فكانت له منشآت حربية ومدنية. فبنى لنفسه قصرًا - وهو قصر المنزل الحالى - في جزيرة قبالة

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٤ - ٥.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤.

(٣) بتفصيل: Ency del. Isl (art Shadjar al - Durr) le d, t4, p. 249 - 50.

(٤) ابن حبيب، درة الاسلاك في دولة الأتراك، مخطوط برقم ٤٦٨٠، ورقة ١٧ انظر. ماجد، دولة سلاطين المماليك، ص ٦٩.

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٠١ وهامش (٧).

الفسطاط، عُرِفَتْ باسم: الروضة^(١)؛ لأن الوزير الأفضل الفاطمي، كان قد أنشأ بها مكاناً في ساحلها - ولعله كان بستاناً - سماه الروضة، وكانت مدينة عامرة. فهدم السلطان نجم الدين مساكنها وبنى الدور السلطانية، وشيد القلعة بالروضة والأسوار، وجعل إلى جانبها ميداناً؛ ليلعب فيه بالكرة، إذ كان مغرمًا بلعبها، كما أقام جسراً على النيل يربط بينها وبين الفسطاط. كذلك اشتهر نجم الدين مثل جده ببناء المدارس؛ حيث إن منهجها هو المذهب السني، وأشهرها مدرسته الصالحية^(٢)، ولدنا حجر تأسيسها مؤرخاً في ٦٤١هـ / ١٢٤٣م - وهي قرب خان الخليلي - وبنت بها شجرة الدر قبره، وكانت أول مدرسة بمصر؛ رتبت فيها دروساً للمذاهب الأربعة؛ حيث كفل التدريس فيها لمفتي البلاد المشهور الشيخ عز الدين ابن عبد السلام^(٣).

كذلك دخل نجم الدين، مثل بقية أفراد الأسرة الأيوبية في صراع مع أفراد أسرته، وبخاصة مع ابن أخيه الصالح إسماعيل، ملك دمشق الأيوبي، الذي وليها منذ عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م، ومع ابن عمه الناصر داود أمير كرك في فلسطين، ومع الخوارزميين أيضاً، الذين أصبحوا تارة معه وتارة ضده. فحارب عمه الملك الصالح إسماعيل؛ بسبب أنه سمح لفرنجة عكة، وكانت أهم معاقل الصليبيين والباقية لهم من مدن الساحل في فلسطين بدخولهم دمشق، وشراء السلاح^(٤)، بل أعطاهم مافتحه صلاح الدين من قبل، وسمح لهم بإقامة مراكز بيت المقدس التي كان جدهم صلاح الدين استردها منهم بعسكره السمر المصريين كما ذكرنا؛ بحيث اعتبر استردادها معجزة؛ بسبب يأس المسلمين من رجوعها. وقد أفتى الفقيه المشهور، الشيخ عز الدين بن عبد السلام، الذي كان الملك الصالح إسماعيل عينه في خطابة جامع دمشق^(٥)؛ مما جعله يعزله، ويلزمه داره؛ فترك الشيخ عز الدين دمشق، وتوجه إلى مصر عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م؛ وعلى العكس أكرمه نجم الدين وقلده الخطابة في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط^(٦). ولما التقى عسكر نجم

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤١.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٠٨ انظر Corpus, 102 - 110, No 64, 65, 67: Van Berchem.

(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٩٤.

(٤) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٠٤.

(٥) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٩.

(٦) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٠٨.

الدين مع عسكر الصالح إسماعيل ومعهم الفرنجة؛ فإن عسكر الشام انضموا طواعية للعسكر المصريين، وقاتلوا معهم الفرنج وهزموهم فى معركة تل العجول^(١). فاستولى نجم الدين على دمشق، وأحضر عمه أسيراً إلى القاهرة، ثم عفا عنه. كذلك لما كثر نهب الخوارزمية، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمات، ولاسيما أن نجم الدين لم يسمح لهم بالدخول إلى مصر؛ فحاربهم مع بقية ملوك الأيوبيين، ووقعت وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزميون هزيمة منكرة فى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م^(٢).

ولما توفى نجم الدين فى ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م؛ استدعت زوجته شجرة الدر ولى عهده توران شاه، الذى كان فى حصن كيفا ببلاد الجزيرة؛ وأرسلت إليه الأمير حسام الدين نائب السلطنة، والأمير فارس الدين أقطاي (أو أقطيا) رئيس المماليك، والقاضى بدر الدين السنجارى، وبويع لتوران شاه بالسلطنة فى عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م، ولقب بالسلطان الملك المعظم، وإن قيل إن نجم الدين لم يكن راضياً عنه، وكان ينوى تسليم مصر للخليفة العباسى فى بغداد^(٣). ومع ذلك؛ فإن النصوص التاريخية تبين أن توران شاه على عكس ما أشيع عنه من أنه خفيف وأهوج وسكير، كان مولعاً بمجالس أهل العلم، وعلى يبة بالخلاف والفقه والأصول، وهى علوم أساسية عند المسلمين، وكان يناقش العلماء فيما يعلمه ويفهمهم، وكان جده الكامل يحبه لذلك. وما ينفى عنه هذا الافتراء أيضاً؛ انتصاره الناجح فى وقعة فارسكور بأسلوب حربى متميز؛ مما تسبب فى هزيمة الفرنسيين هزيمة ساحقة، وأثبت بانتصاره الكبير أنه كان هو الآخر سلطاناً عظيماً لمصر. فربما أتى تشوبه سيرته من قبل ممالك مصر، وهم عنصر غير عنصر الكرد، الذى يتنمى إليه الأيوبيون، فمن هؤلاء الممالك؟؟

* *

وفى أول الأمر، كان من يتولى حكم شر من الأيوبيين يعتمد فى حكمه على الكرد من بنى جنسه؛ إذ كان كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين قد جلب منهم أعداداً فى مصر، عرفوا باسميهما: الأسدية والصلاحية. ويبدو أن

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٩.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٢٤.

(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤٢.

سلاطين مصر الأيوبيين، كانوا قد امتنعوا عن أن يجلبوا طوائف أخرى منهم من موطنهم الأصلي، ولاسيما أن الأسرة الأيوبية أصبح طابعها المشاحنة فيما بينهم وأنهم لايتفقون، مع أن ظروف المنطقة كانت تقتضى اتحاد ملوكها، حتى ولو كانوا كثيرين؛ ما جعل السلطان الأيوبي في مصر؛ يعتمد فى تثبيت حكمه فى مصر على عنصر آخر غير الكرد؛ يكون ملكًا له وتحت تصرفه فى كل وقت، وهو عنصر الماليك.

ولفظه «الماليك» أو «الملوكون»^(١) - وإن كانت هذه الأخير غير مستعملة - ومفردا «مملوك»^(٢) فى أصلها اللغوى، مستخرجة من فعل «ملك»؛ لتعنى الرقيق الذى يشتري بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام. هذه اللفظة حلت محل لفظة «عبيد»، ومفردا عبد - ومؤنثها جارية - التى استعملت فى العصر الإسلامى الأول؛ وذلك لان الإسلام بمسوله الإنسانية، كان يرفع من شأن الرقيق؛ إذ لفظة العبيد تعنى العبودية، والعبد يولد من الرقيق؛ بينما المملوك يولد من أبوين حرين، ويباع؛ كما أن العبد قد يعنى إنسانًا أسود اللون؛ بينما المملوك كان غالبًا إنسانًا أبيض اللون.

ولاشك أن أصل نظام الماليك عمومًا يتصل اتصالاً وثيقًا بحياة القصر الإسلامى منذ نشأته فى أيام الأمويين، وكان معظم ممالكهم فى أول الأمر من سبى الترك فى وسط آسيا؛ حيث يقول الكاتب الجاحظ عن هؤلاء: إن أجسامهم من دون أجسام سائر الناس؛ بنيت على تقبل اللحم^(٣)، وأنهم أقرب الشعوب إلى العرب، حتى عرفوا «بأعراب العجم»^(٤). كذلك توسع العباسيون فى استخدام الماليك بعد الأمويين، وبذلت الأموال لشرائهم. فقد كان الخليفة المأمون العباسى يشتريهم ليجعلهم حراسه الأمناء، وتغالى فى شرائهم، حتى أنه قد يشتري الواحد منهم بمائتى ألف درهم^(٥)، وهو مبلغ كبير وقتذاك. وقد اقتدى به

(١) عن ذلك، انظر. لسان العرب، ١٢ ص ٣٨٣؛ انظر.

Ency of ISL, (art Mamlúk) 2ed, t3, p. 230 sqq;

ماجد، نظم الماليك ورسومهم فى مصر، ١ ص ١١ مابعدا.

(٢) كلمة «مملوك»، وردت فى القرآن الكريم: سورة ١٦ : ٧٧.

(٣) الجاحظ، رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مدح الترك، تحقيق هارون، مصر ١٩٦٥، ص ٢٩؛ انظر. سعد زغلول، الترك والمجتمعات التركية، ص ٧٣؛ ماجد، دولة سلاطين الماليك، ص ٦٤ ومابعدا.

(٤) الجاحظ، رسالة، ص ٧.

(٥) مروج الذهب، ٣ ص ٤٦٥.

أخوه المعتصم من بعده فاستخدمهم بكثرة في جيشه^(١)، وصاروا أغلب جنده، واعتمد عليهم في حكم الولايات؛ حتى أنه أسقط عطاء العرب من الديوان^(٢)، وجعل معظم العطاء للماليك الترك؛ مما جعل قواد الترك من المماليك يلعبون دوراً هاماً في سياسة العباسيين؛ وصل إلى حد التحكم في تولية الخلفاء العباسيين أنفسهم.

ولاشك أن التحول عن العرب إلى العجم اتفق مع طابع الدولة العباسية التي قامت أصلاً على أكتاف الشعوب، ومع ذلك نقول: إن إبعاد العرب والاعتماد على غيرهم في الجيش والحكم اعتبر ظاهرة لامفر منها؛ حيث لا ينخلدون رأي في ذلك، أورده في مقدمته؛ وهو أن اختلاف العرب طابع فيهم، وأنهم أكثر بداءة من سائر الأمم، وأنه يفسدهم العمران؛ وإن وجدت لهم حواضر مبعثرة في صحراوتهم، وهذا الاختلاف فيما بينهم هو نقطة الضعف في قوميتهم؛ بحيث أصبحت لهم رؤوسا كثيرة، ولم ينسوا قبليتهم.

وقد عرفت مصر الولاية من هؤلاء المماليك، مثل: أحمد بن طولون والإخشيد المصري - وكان يحب هذه التسمية - ، اللذين استكثرا من استخدام المماليك في جيوشهما، فابن طولون قد استكثر من مشترى المماليك؛ حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، أما الإخشيد المصري؛ فكان يسير في موكبه ثمانية آلاف من المماليك^(٣). ولما جاء السلاجقة إلى الشرق الإسلامي - وهم ترك من وسط آسيا - زادوا من استخدام المماليك؛ بحيث أصبح كل أمير سلجوقي يحيط نفسه بجماعة منهم. فيذكر الوزير السلجوقي والمفكر نظام الملك - في كتابه: سياست نامه^(٤) - ضرورة استعانة الأمير بالمماليك. وعلى العكس؛ فإنه لما جاء الفاطميون إلى مصر استكثروا من السودانيين - النوب في أغلبهم - وسموهم عبيد الشراء أو الشرى^(٥)؛ لشرائهم إياهم بالمال؛ ولا يعتبر هؤلاء من المماليك، وإنما من العبيد.

(١) بلغ ما اشتراه منهم سبعين ألف مملوك معجم البلدان، ص ١٤ س ٢١ بينما أبو المحاسن يقول. إنهم بلغوا ثمانية عشر ألفا. النجوم، ص ٢٣٣. وانظر: ابن حنبل، كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، تحقيق عباس العزاوي، إستانبول ١٩٤٠.

(٢) الولاية، ص ١٩٣، الخطط، ص ١٥١، ١٥٢، ص ١٠٠ س ٢٤؛ النجوم، ص ٢٣٣.

(٣) ابن إياس، بدائع، ص ٣٧؛ النجوم، ص ٢٥٦.

(٤) انظر. Siasset Namch, trad. Schefer, p. 135.

(٥) ابن إياس، بدائع، ص ٤٨؛ المقرئ، الخطط، ط. بولاق، ص ٣٣٥.

ولعل الذى ساعد على الإكثار من الممالك فى عصر الأيوبيين بالذات، التحركات المفاجئة لعناصر آسيوية، وهم المغول؛ مما جعل هذا النظام يتسع اتساعاً كبيراً بسبب ماسبه المغول من دمار. فحينما هاجم جنكيز خان، زعيم المغول، فى وسط آسيا - مجال أمم الترك خاصة - كان الآسيويون يهربون أمامه، ورغبة فى الحصول على مايمسك رمقهم، كانوا يبيعون ذكور أولادهم وإناتهم^(١)؛ بسبب قسوة بيتهم، فقد كان من عادة الشعوب الآسيوية أن تبيع أبناءها، ولم يزل الصينيون على عهد قريب، يبيعون أبناءهم.

يُضاف على ذلك أن المغول فى تحركاتهم كانوا يستولون على أسرى كثيرين، ويبيعونهم كرقيق فى الأسواق. فقد كان المغول يوجدون فى كل مكان، ويملاؤن الوديان وسفوح الجبال بجموع كثيرة^(٢)، وخيولهم لا تتعب أبداً، وليست فى حاجة إلى العلف؛ فهى تنقب الأرض بحوافرها بحثاً عن جذور النبات الذى تقتات به، وكأنهم السيل أو الجراد؛ حيث إنهم وهم يهبطون على المدن أو الامكنة فيملأونها، ولم يعد الناس يجدون ملجأ لهم لافى الكهوف أو الغابات أو حتى فى أعماق الوديان، بل كان المغول يجمعون الأسرى فى حظائر وكأنهم أغنام أو حيوانات؛ فمن لا يقتل يباع كرقيق.

كل هذا أوجد سوقاً لتجار الرقيق؛ بحيث إن هؤلاء زادت أعمالهم إلى حد أنهم لم يكن يخلصون الرقيق كما كانوا يفعلون من قبل؛ ليعملوا فى البلاط فى خدمة الحريم، أو ليكونوا خلصاء للأمير، الذى وضع حياته بين أيديهم، ولكنهم يبقون على رجولتهم ليكونوا جنوداً أقوياء. بل كانوا يبحثون لهم عن بنات جميلات؛ ليتناسلوا نسلًا قوياً.

فوجد تجار الرقيق فى مشاحنات ملوك الأيوبيين، وسيلة لزيادة دخلهم من بيع الممالك لهم، ولاسيما لسلطان مصر الأيوبي الغنى، الذى كان يشتري منهم الآلاف^(٣)، حتى أن المؤرخ ابن إياس يقول إنهم من كثرتهم ضاقت القاهرة بهم.

(١) معجم البلدان، ٢ ص ٣٧٩ س ١٢.

(٢) Fragments relatif aux Mongolia, trad. J. A. 1828, p. 217 - 219.: Dulaurier Guirgos.

سعد زغلول، الترك، فى عالم الفكر، ص ٤٢٣.

(٣) ابن إياس، بدائع، ١ ص ٨٣.

ومع ذلك، فإن تجار الممالك لم يظهروا في مصر؛ بدليل اللقب الذي كان يطلق عليهم، وهو: خواجه أو الخواجا أو الخواكجية، الذي يقول عنه القلقشندي: إنه يعنى التجار الأجانب^(١)، وهو لفظ فارسي بمعنى السيد، وكان معظمهم من الأوربيين النصارى أو من اليهود^(٢)، وإن كان بعضهم من الإيرانيين، فكان التجار الأجانب يأتون بالممالك غالباً عن طريق البحر؛ حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغرى دمياط والإسكندرية، بينما التجار المسلمون يأتون عن طريق البر، وقد كان سلاطين الأيوبيين، ومن بعدهم سلاطين الممالك يستقبلونهم كما يستقبلون كبار الشخصيات، ويستضيفونهم، ويمنحونهم الخلع والمال الكثير^(٣).

ونحن نسمع في القاهرة عن سوق لبس الممالك منذ أيام صلاح الدين، وهى خان مسرور، الذى عاش فى أيامه^(٤)؛ بحيث كانت فى شهرتها مثل سوق أخرى ظهرت فى أيام سلاطين الممالك وهى خان الخليلي^(٥). وربما كان يشرف على هذه الأسواق تجار آخرون يشترون الممالك منهم، ويسمى الواحد: تاجر الممالك، أو معلم تجار الممالك^(٦). كذلك وجد تاجر الخاص فى الرقيق، الذى تخصص فى بيعهم، وجمعهم للسلطان فى مصر^(٧)، وربما كان يعاونه «دلال الممالك»^(٨)، الذى يبحث عنهم ويشتريهم من بيت المال؛ بشهادة القضاة^(٩). وهذا لايعنى أن الممالك يباعون فى القاهرة وحدها، وإنما يباعون فى أماكن أخرى أيضاً، مثل: الإسكندرية^(١٠)، أو فى أسواق البلاد العربية، وبخاصة فى دمشق.

(١) صبح الاعشى، ٦ ص ١٣ س ١٦، ١٧، ص ٦٩ س ١، ص ٧٣؛ وايضاً.

Ayalon: L. Esclavage du Mamelouke, p. 137.

(٢) انظر: . Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age (1637 - 1517), p. 60.

الخطوط، ٣ ص ٢٤٨ س ١٦

(٣) الخطوط، ٣ ص ٣٤٨ س ١٧، ١٨، ٣٧١ س ٥.

(٤) نفسه، ٣ ص ١٤٩.

(٥) انشأها جهاركس الخليلي، فى أيام الظاهر برقوق، السلطان المملوكي. نفسه، ٣ ص ١٥٢، ١٥٣.

(٦) ابن إياس، ٣ ص ٣ س ٢١.

(٧) الخطوط، ٣ ص ٦٩.

(٨) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥ س ١١.

(٩) ابن إياس، ٣ ص ١٦ س ١١.

OP. Cit, p. 443.: Heyd

(١) انظر.

كذلك كان يساع في هذه الأسواق الرقيق ذكوراً وإناثاً، ليس فقط من السبي أو الاختطاف، ولكن الأب قد يبيع أولاده، أو الأخ أخاه، وإن كنا نستبعد ذلك في أسواق الرقيق في بلاد الإسلام. ولدينا وصف من الرحالة الأوربي طافور^(١) "Tafūr"؛ عن سوق الرقيق: فالرقيق ذكوراً وإناثاً يجردون من ثيابهم تماماً، ثم تطرح على الواحد منهم عباءة، ويعلن عن الثمن، وبعدئذ يخلعون العباءة عنهم، ويدعونهم يسيرون جيئة وذهاباً؛ ليرى الناس أنه ليس بهم عيب جسماني. ومع ذلك، فكان من الآسيويين أو من غيرهم من يأتي مقبلاً على المخاطرة برغبته، من غير تاجر الممالك؛ ليدخل في زمرة الممالك.



وقد بدأ يظهر نفوذ الممالك في مصر منذ السلطان الكامل الأيوبي؛ الذي كون لنفسه فرقة كبيرة منهم؛ عُرِفَتْ باسمه: الكاملية^(٢)، وهم الذين أصبحوا للعادل الأصغر [الثاني] من بعده. فلما طمع نجم الدين في ملك أخيه، وكان ذكياً، فإنه استطاع أن يستميل ممالك أخيه، وكانوا أعداداً كبيرة، وبهم تمكن من الاستيلاء على الشام ومصر، حيث نصَّب نفسه سلطاناً فيهما. إلا أنه لم يعد يثق في ممالك أخيه، وقد خانوا سيدهم، فتخلى عنهم، وقطع أرواقهم، واعتقلهم^(٣). وفي الوقت ذاته فكر نجم الدين في تكوين فرقة من الممالك الطارئة؛ جلب معظمهم من فئات الترك المسلمين، المسماة: التركمان، أو التركمانية، وحتى التراكمين^(٤)، أى أنهم ترك مسلمون، يؤمنون بحق بدين الإسلام؛ فقد تميَّز إسلامهم بالإيمان، ولم يتعصبوا لديانة أخرى سابقة؛ ولم تظهر لهم رندقة فأصبحوا يؤلفون في أكثر جيوش المسلمين قطاعاً رئيسياً في تكوينه، وعرفوا فيه باسم:

(١) رحلة طافور، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٣٤.

(٢) السلوك، ١ / ٢ ص ٢٩٦.

(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٠.

(٤) صبح الأعشى، ١ ص ٣٦٧. بتفصيل: Wiet:

La Tourkènie et leTourkmène. Paris, 1880;

Ibrahim Kofesogly: A propos du Nom Turkman. Oriens Vol II, Leiden, 1939, p. 146 - 150,

بارتولد، الترك، ترجمة عربية من أحمد السيد، ص ١١٢؛ سعد زغلول، الترك أفضل المجتمعات التركية،

«المشاركة»^(١). أما السلاجقة^(٢)، وهم أصلاً من التركمان، فلم يلبثوا منهم أعداداً كبيرة. فيقول المؤرخ ابن تغرى بردى - أبو المحاسن - إن نجم الدين أيوب، هو الذى أنشأ المماليك الترك فى مصر^(٣)، وإنهم زادوا فى عهده زيادة هائلة عن أى ممالك آخرين، بحيث كونوا فى جيشه أُميرَ جنده. فهو فعل مافعله المعتصم العباسى من قبل؛ حينما جعلهم أكثر جنده، وأسقط العرب من الديوان^(٤).

ومع ذلك؛ فإن التركمان لم يكونوا فى أى وقت تركاً خالصاً^(٥)، وإنما اختلطوا بشعوب المناطق التى نزحوا إليها فى جنوب بلاد الروس؛ حيث عرفوا لهم باسم: الترك «Tork»؛ وذلك حينما استقروا حول نهر الفولجا، الذى سماه العرب: إتل^(٦)، وربما تسميته على اسم مدينة خزرية، وجدت فى المناطق القوقازية التى سماها العرب: القَبَج أو القَبَق^(٧)، الممتدة من بحر قزوين إلى البحر الأسود. ففى هذه المناطق يذكر الجغرافى ياقوت أن فيها اثنين وسبعين لساناً، لايعرف كل لسان لغة صاحبه، مما يدل على كثرة الشعوب فيها.

كذلك اشتهر التركمان فى هذه النواحي بأسماء أخرى منها: بلاد القفجاق، أو القَبَجاق، أو القَبجاي، أو الخفجاق^(٨)، أو بدشت القَبجاق، ودشت كلمة روسية تعنى الصحراء، أو بيلاد البُشَنق أو البَشَناق^(٩)، أو بيلاد البَجَنك أو البَجَنك^(١٠)؛ ولكن المؤرخين البيزنطيين لايعتبرون البَجَنك «Pechengs»، من

(١) انظر . قبله.

(٢) مروج، ٣ ص ٣٦٥.

(٣) انظر . قبله.

(٤) مورد اللطافة، ص ٣٢.

(٥) معجم البلدان، ٢ ص ٣٧٨ - ٣٧٩؛ انظر .

Ency de L'isl, (art Turks) T4, p. 947 sqq.

(٦) معجم البلدان، ١ ص ١٠٣، ١٠٤.

(٧) نفسه، ٧ ص ٢٧ - ٢٨.

(٨) العمري، المصطلح الشريف، القاهرة ١٩٣١ - ١٩٣٣، ص ٤٣.

(٩) صبح الأعشى، ٤ ص ٤٥٨. عن هذه التسميات، أيضاً: انظر . تلفيق الأخبار، وتلفيق الآثار، ط أو رينورج، المجلد الأول، ص ٩٠.

(١٠) شرف الزمان (حوالى ٥١٤هـ / ١١٢٠م) من أبواب الصين والترك والهند، متخبة من كتاب طبائع الحيوان، تحقيق Minorsky، ص ٢٠ - ٢١؛

D, Hsso: Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan Jusqu'à Timour Beg, 4 Vols, 1852, cf.

عنصر الترك، وسموهم أيضاً: باتزيناك "Patzinak"^(١)، وإنما اعتبروهم من سلالة الشيطان، بينما المسلمون يرون أنهم ترك^(٢) مثل غيرهم، ربما لأن البجناك حاربوا الجميع في هذه النواحي بمن فيهم البيزنطيون والجورجين، الذين سُمي العرب بلادهم الكرج^(٣). وعلى كل حال؛ فإن التركمان بأصولهم المتعددة اعتبروا محاربون أشداء، ولعل ظروف معيشتهم السيئة في موطنهم؛ هي التي جعلتهم يعملون كجند مرتزقة في أي مكان، حيث برز استخدامهم بكثرة في ممالك الأيوبيين وإمارتهم، وبخاصة في السلطنة الأيوبية في مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب.

فبنى نجم الدين لماليكه الطارئة قلعة خاصة بهم؛ لتكون معسكراً دئماً لهم على ساحل النيل قبالة القسطنطينية في سنة ونصف، اشتهرت باسم: قلعة الروضة^(٤)، أو المقياس أو الجزيرة أو الجيزة أو الصالحية، أو حتى الحصن؛ لأن أحمد بن طولون والي مصر كان قد بنى بها حصناً في ٢٦٣هـ / ٨٧٦م، وأنشأ دار صناعة لبناء السفن؛ فسموا بالمماليك البحرية^(٥)؛ بسبب سكنهم قلعة الروضة، والمقصود بالبحر النيل، أو ربما لأنهم كمماليك جاءوا مع التجار عن طريق البحر^(٦)، وليس عن طريق البر؛ كما نسبوا إلى السلطان الملك الصالح فعرفوا: بالمماليك الصالحية^(٧)، أو بالاسمين معاً: الصالحية البحرية. كذلك أنشأ لهم نجم الدين معسكراً في طريق مصر الشام، على طرف الصحراء عُرف باسمه: الصالحية^(٨).



(١) بورفيروجينيوس، كتاب الإدارة De Administrato، ترجمة مع التصرف من عمران، بيروت ١٩٨٠، ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) معجم البلدان، ٢ ص ٣٧٨، ١٧ - ١٨، ٥ ص ٤٠٩ وما بعدها؛ وقبله.

(٣) نفسه، ٧ ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٤) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٠١ وهامش (١)؛ الخطط؛ ٢ ص ٢٩٧؛ أبو الفدا في: (R. H. C. or, TI, P. 110. Ency de L'Isrl, (art Rawda). cf

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤١. ويتفصيل:

Ency of L'Isrl, (art al - Bahriyya), 2ed, II, pp. 944 - 5'

Ayalon: Le Régiment Bahriyya dans l'armée Mamelouke. R. E. I, 1952, pp. 133 - 41

(٦) رضا نور، تاريخ الترك، ط. ١٩٢٦، ٩ ص ١٩١. (أوردتها: الشيبان، مصر الإسلامية، ١٩٦٧، ٢ ص ١٤٧).

(٧) الخطط، ٢ ص ٢١٦، ٢١٧ ص ٨.

(٨) السلوك، ١ / ٢ ص ٢٤٢.

ومن اليقين يُعتبر نجم الدين أيوب أول سلطان فى مصر عظم تربية المماليك، حتى يؤهلوا لأعلى المناصب فى الدولة، وإن تطورت تربيتهم بعد ذلك فى عهد دولة سلاطين المماليك تطوراً كبيراً؛ بحيث أصبحت من نظم دولتهم. فينسب المؤرخون إليه أنه اقتنى من المماليك ألف مملوك أو ثمانمائة^(١)، وأنه أسكنهم فى قطعة الروضة التى أصبحت لكثرة عددهم فيها أشبه بحى كبير؛ كما نسب إليه أنه أعطى مماليكه الإمريات^(٢)، أى تدرج المماليك فى الرتب العسكرية، كما رتب لهم الألقاب.

ومن المؤكد أيضاً أن ممالك نجم الدين كانوا يربون وهم صفار السن، فسموا أترباً^(٣)، أو غلماناً^(٤)، أى ممالك فرساناً، ويقوم على تعليمهم الطواشى^(٥)، وهو الآخر من المماليك؛ بمعنى الأخ الكبير. ولكن الإشراف العام على معسكرهم كان لمقدم المماليك^(٦)، أو الأمير جمدار وهو برتبة أمير، وله هيئة كبيرة عليهم. فكانوا أشبه بصبيان أو غلمان الحجر^(٧)، أو صبيان الخاص، الذين كانوا يربون فى الحجر فى القصر الفاطمى، وإن كان هؤلاء من أولاد الناس «المصريين»، وليسوا من المماليك، أو أشبه بالمماليك الأجلاب أو الجلبان أو المشتراوات^(٨)، بمعنى جلبهم أو شرائهم، فى وقت دولة سلاطين المماليك؛ حيث كانوا يتعلمون فى المدارس

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤١.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٠.

(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٥. مفرداً ترابى.

(٤) أنظر. El - Beheiry: OP. Cit. p. 49, 76.

(٥) هى كلمة تركية مفردة وجمع، أصلها طابوشى، ولعلها بمعنى الطاروس للتعبير عن الرجل الجليل. عنها بتفصيل:

Ency del L'Isl, (art Tawâshî) t4, p. 740; Dozy : Suppl, 2, p. 67; El - Beheiry: Op. Cit, p.49, 76.

(٦) صبح، ١ ص ١٧٣؛ السلوك ١ / ٢ ص ٣٧٠، كان يطلق عليه أيضاً: أمير جاندار. أنظر: El - Beheiry p. 69، وجان تعنى الأخ، ودار بمعنى محك؛ فالقصود هو الأمير المسك بالروح، أى أنه يقتل من يأمر السلطان به. بتفصيل: (art Jandâr) t1, p. 1043, Ency de L'Isl, Dozy: Suppl, I., 168; ماجد، نظم الممالك، ٢ ص ٤٨ - ٤٩ وهامش

(٧) الخطط، ٢ ص ٣٠٩ - ٣١١ أنظر. ماجد، نظم الفاطميين - الجزء الأول.

(٨) عن هذه التسميات: ابن شاهين، رتبة، ص ١١٦؛ وبتفصيل وهامش: ماجد، نظم الممالك، الجزء الأول.

الحرية، التى سميت بالأطباق ومفردها طبق. ولايعنى هذا أن جميع الممالك كانوا يذهبون للتعليم، بل منهم من كان يلحق مباشرة بخدمة السلطان.

فكان أهم شيء يتعلمه المملوك الفروسية^(١)، التى لدينا عنها مؤلفات من كبار شيوخ أساتذة الفروسية، فى وقت دولة سلاطين الممالك، وهى مكتوبة بالعربية، ومصحوبة برسومات حية ورائعة، ومعظمها لايزال يوجد مخطوطاً^(٢). ولاشك أن أساس علم الفروسية هو الفرس، الذى اعتبر عربى الأصل؛ لأنه قيل: إن إسماعيل-وليه ينتسب العرب-هو أول من ذلله^(٣)؛ كما أن الفروسية اعتبرت من السنة النبوية، فينسب إلى النبى أنه مدح الخيل^(٤). كذلك توافرت لخيول الممالك معداتها فى الركاب خاناه^(٥) بالقلعة، وهى مختلفة الأسماء والألوان، ومنها مايدersh لجمالها ومئاتها وثمانها الغالى، وقد يوجد بها من الذهب والفضة مايكفى لسك العملة^(٦)، وأصبحت لها أسواقها المتخصصة بالقاهرة مثل: سوق اللجمين، وسوق المهمازين^(٧).

(١) بتفصيل: Ency of Isl, (art Furúsiyya) 2 ed, t2, p. 951.

(٢) مثل: كتاب الفروسية، لنجم الدين حسن الرماح - المعروف بالأحدب، والملقب بالأستاذ (ت ٦٩٥هـ / ١٢٦٣م)، وهو مخطوط فى المكتبة الأهلية (B.N)، برقم 2825، ويوجد فى ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، برقم ٣٨ فروسية، وكتاب نهاية السؤل والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية، ليكتوت الرماح (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، وهو مخطوط فى (B.N)، برقم 2828، ومصور فى معهد المخطوطات العربية؛ برقم ٥٠ مصادر عامة، وغاية المقصود فى العلم والعمل بالبند، لمحمد بن لاجين المعروف بالطرابلسى، وهو مخطوط فى (B.N)، برقم 2827.

(٣) بتفصيل. نبيل، الخيل، القاهرة ١٩٧٦.

(٤) صبح الأعشى، ٤ ص ١٢؛ ريدة، ص ١٥٤.

(٥) صبح الأعشى، ٤ ص ٢١٢؛ انظر. ماجد، نظم الممالك، ٢ ص ٢٨.

(٦) صبح الأعشى، ٣ ص ٤٦٣.

(٧) المخطوط، ٣ ص ١٥٨، ١٥٩. فنذكر من أنواع معدات الخيل: القرايس، ومفردها قروبوس، وهى مقدمة السرج وخلفه، واللحم ومفردها لجام، والسيور وهى من الجلد، والركاب الحديد الذى هو من اختراع المهلب ابن أبى صفرة (ت ٨٣هـ / ٧٠٢م)، بعد أن كان من الخشب، والكنائش ومفردها كنبوش، ويوضع على رأس الخيل، والمهماز وهو آلة من حديد تكون فى رجل الراكب فوق كعبه، والزنار، وهو ما يوجد فى أسفل السرج، والعبى جمع عباءة، وهى البراذع، وغير ذلك. عنها: صبح الأعشى، ٣ ص ٢٠٤؛ انظر. ماجد، نظم الممالك، الجزء الثانى على الخصوص. أنظر Dozy؛ فى قاموسه بجزئيه: Supplément.

ولم تكن الفروسية عند الممالك بالشجاعة فقط، أو المهارة فى ركوب الخيل والجرى بها بسرج أو من غير سرج، أو القتال من على ظهورها، وإنما كانت لها قوانينها العلمية وفنونها^(١)، نتيجة للممارسة الحقيقية، والتدريب المستمر لها، وخاصة أنها تعنى لهم التفوق على الرغم من عقدة الرق، والحماية للوطن الذى على أرضه يعيشون، ولاسيما أن من شرب ماء النيل ينسى الغريب وطنه، وحماية دين الإسلام على الخصوص. فكان أساس تعلم الفروسية، ما عرف اصطلاحاً بالناورد^(٢)، وجمعها الناوردات، ومنها الناورد الصغير والكبير، أو ما كان يطلق عليه^(٣) أيضاً بند، وجمعها بنود، ومن مظاهرها: المنازلة وهى المبارزة؛ حيث يكون الضرب على الأطراف والوجه وليس على الحديد، والمطاردة ولها ستة عشر وجهاً، وهى: المفارقة، والمقابلة، والملاصقة، والمضايقة، على حسب المسافة، التى قد تصل أحياناً إلى شبر واحد، فيكون هدف الفارس وضع رجله فى سرج خصمه حتى يسقط، أو قطع لجام فرسه، فإذا وقع، ينتظره حتى يتدلى، ويلحق به قبل أن يستوى، فيصرعه هو ودابته، أو بالكسرات التى تكون دقيقة وشديدة، بالنقل خلفه وقدامه، وعن يمينه ويساره وشماله. مستقيماً أو معوجاً، حتى يوقع به؛ فإذا تلامس فعليه أن يستعمل كل أسلحته، أما إذا انقطع سرج الفارس نفسه أو لجامه أو ركابه؛ فإنه يدهش خصمه بأى شىء، ولو برمييه بحجر، وإذا ما خرج له فارسان أو أكثر فيستعمل الخيل والعقل؛ فيحمل على أدناهما بأسرع ما يمكن، ويرجع للآخر، ويستجاز الهرب أحياناً.

كذلك على المملوك أن يستخدم سلاحه بمهارة، وبخاصة سيفه فى القتال، أو اللعب به^(٤)، فهو أفضل الآلات الحربية وأجلها عنده، وشبهه بالأسد بين الوحوش، والفرس بين الدواب، فيتعلم الطعن به فى حائط طين ناعم، وقد يصل التدريب بسيفه الى ألف طعنة^(٥)، فبه يكسر سيف عدوه ويهشم بيضته - خوذته -

(١) محمد بن منكل، التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية. مخطوط بجامعة القاهرة، برقم ٢٦٣٣٨١.

(٢) عن هذه اللفظة: Dozy: Suppl, 2, p. 638.

(٣) حسن الرواح، مخطوط برقم: 2825؛ وانظر. قلعه، مخطوط اس لاجين العلم والعمل بالبنود، انظر.

(٤) السلوك، ١ / ٣ ص ٨٨٦.

(٥) ابن إياس، ص ١٣ س ١.

وجميع سلاحه، ويكون ضرورياً في التلاقي والتخلص، ويضع سيفه عادة في سرجه عند ركبته اليمنى. ويلى السيف الرمح، ويقارن به، ويطلق عليه الرمح المبارك، وهو أنواع منه: الرماح العسكرية وتسمى الموكبية، والرماح الطوال، وسنانها قد تكون رومانية أو حجازية، وتكون الرماح برأس أو برأسين، وعلى شكل زهورات غالباً، فيمسكه الفارس باليد اليسرى، أما اليد اليمنى فتأخذ بالعنان، وقد ينقله من يد إلى يد، ويضعه تحت الإبط، أو على الكتف، فكان للرمح متخصصون في تعليمه سموا: معلمى الرمح، ويرأسهم معلم المعلمين^(١)؛ مما يؤكد أهمية الرمح كسلاح عند المملوك. ويكون التعامل بالرمح عن طريق الطعان^(٢)، وله اثنتا عشرة نقلة، واثنتا عشرة طعنة، وأساسه ضرب رمح عدوه إلى فوق ليجرده منه، وهذه الطريقة في استعماله كانت تستخدم من أيام الفراعنة. ومن أسلحة المملوك الأخرى: الأعمدة، ومفردها عمود^(٣)، ويهشم به سيف عدوه أو رمحه أو خوذته، وقد يوازي الرمح ويقارن بالسيف، ويستعمل معه عادة الخنجر. ويلى العمود السيف والرمح. والدبابيس^(٤)، ومفردها دبوس، وهو عمود له رأس واحدة أو رأسان من الحديد؛ ومنها نوع دبوس الرش، وتوضع فيه النيران. والخراب، ومفردها حربة^(٥)، وتستخدم في شكل ثمان وخمسين حركة. والمزاريق ومفردها مزارق^(٦)، ورأسه تكون أغلظ من أطرافه. والنشاب ومفردها نشابة^(٧)، وهى سهام خشبية صغيرة، ذات نصول مثلثة الأركان. والقسي، ومفردها القوس^(٨)، وأهمها قوس الركاب التى تشد من ركاب الخيل، وتتكون من عمود له مفتاح، والسهم يوضع فى القضييب، ويرمى به الفارس على الأهداف الثابتة والمتحركة، وغير ذلك.

(١) نفسه، ٢ ص ٤١، ٨ ص ٣، ٣ ص ٢٥.

(٢) الخطط، ٣ ص ١٨١، ١١ ص ١١ وما بعدها.

(٣) حس الرماح، العروسية، مخطوط برقم 2825 (B.N)، ورقة ٣٣.

(٤) صبح الأعشى، ٢ ص ١٤٢؛ السلوك، ١ / ٣ ص ٨٨٦، ٩؛ انظر. Dozy: Suppl, I, p. 423

(٥) انظر حس الرماح، انظر. Suppl, I, p. 264.

(٦) حس الرماح، ورقة ٤٨.

(٧) الخطط، ٢ ص ٢٦٨، ٢٤ - ٢٥؛ انظر. ماجد، نظم الممالك، ١ ص ١٦٨، ٢ ص ٢٥.

(٨) عن وصفها، انظر. الخطط، ٢ ص ٢٦٨؛ ابن هذيل، كتاب الفرسان وشعار الشجعان، تحقيق عبدالغنى،

ص ٢١١؛ انظر ماجد، نظم الممالك، ١ ص ١٦٨، و Dozy: Suppl, 2, p. 418.

فكان المماليك يقيمون مباريات الفروسية بحضور السلطان الأيوبي؛ الذى أقام لها ميداناً خاصاً^(١) تنصب فيه أحياناً خيمة كبيرة له «دهليزاً»، وخياماً أخرى للاستراحة^(٢). ولعل أهم رياضة كان يمارسها المماليك؛ هى لعبة الكرة من على ظهور الخيل، وكان نجم الدين مغرمًا بلعبها، ويكون ضربها بالصولجان^(٣)، وهى العصا، وتعرف هذه اللعبة حالياً باسم: البولو «Polo»، والصولجان يعنى المضرب، وكان أول من لعبها فى مصر ابن طولون^(٤)؛ كما نسب للرشيد لعبها من قبل^(٥). كذلك انتشرت بين المماليك لعبة أخرى اسمها: القَبَق، أو ماسمى القَباق، أو رمى القَبَق أيضاً^(٦)، ولها صور فى الكتب المملوكية^(٧)، والقَبَق هو اسم تركى لنبات القرعة الصلب؛ وإن أطلق فى العربية على الهدف، الذى استعمل فى الرماية، وتكون من ذهب أو فضة، ويوضع فيها طير مثل الحمام، ويرمونها بالنشاب، وهى السهام، من على ظهور الخيل؛ وقد خصص فى أيام دولة سلاطين المماليك للعبة القَبَق ميداناً سُمى: ميدان القَبَق. كذلك كان من ضمن الرياضة المملوكية اللعب بالرماح والمطاردة بها^(٨). ويقول الجاحظ: إنه لا يوجد مثل التركى فى ركوب الخيل، ورميه السهام أو الخراب من على ظهورها، فإنه يصيب أى شىء حتى العصفور^(٩) فالفروسية عند المماليك اعتبرت محك الرجولة والإقدام،

(١) أنظر. قبله

(٢) الخطط، ٣ ص ١٥١ س ١٤؛ ١٨٣ س ١١

(٣) عرفت بأسماء فارسية متعددة، مثل: الصوالجة. (الصوالج)، والجوكان. بتفصيل. صبح الأعشى، ٥ ص ٤٥٨؛ أنظر. Dozy, Suppl. I, 30, 235.

(٤) الخطط، ١ ص ٣١٣.

(٥) السلوك، ١ / ١ ص ١٦ س ٣.

(٦) بتفصيل نفسه، ٢ / ٢ ص ٥١٨، ٥١٩ وهامش (١)؛ الخطط، ٣ ص ١٨٠ س ١٨ وما بعدها، ١٨١ س ٨ وما بعدها، ١٨٢ ص ٤، وما بعدها؛ أنظر. ماحد، نظم المماليك، ٢ ص ١٤٢، Dozy: Suppl. 2, p.303

(٧) أنظر. Abd ar - Râziq

Deux Jeux Sportifs en Egypte au temps de Mamlûks. Islamologique. Cf.

(٨) السلوك ١ / ٢ ص ٣٧٧.

(٩) المسعودى، مروج، ٣ ص ٣٥٦.

ولاسيما أنهم كانوا يختلفون عن بقية سكان مصر بميزاتهم الجسدية، وبطابعهم العسكرى الصرف؛ فكانوا جميعاً ذوى قامة مديدة، وبنية شديدة، وتقاطيع خلقتهم متناسقة^(١).

ويبدو أن إعتاق المملوك كان يتم بعد انتهائه من دراسته العسكرية، ويكون بالجملة، ويقام له احتفال كبير يحضره السلطان والأمراء؛ بمنحه شهادة تسمى: إعتاق أو عتاقة، ويسلم للمملوك سلاحاً وفرنساً، ولباساً خاصاً «قماشاً» وإقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وغلماناً لخدمته^(٢)؛ وحينئذ يسمى عتيقاً أو معتوقاً، وجمعها معاتيق؛ أو مستخرجاً^(٣)، أى موظفاً فى الدولة، ويصبح السلطان أستاذه^(٤)؛ أما رفاقه المتخرجون معه، فيسمون خشداشية، ومفردها خُشداش^(٥).

وقد كان من المفروض أن المملوك لا يحصل على مرتبة الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة؛ حيث يميز من مراتبها من مراتبها فى وقت الأيوبيين أمير مقدم ألف^(٦)، بمعنى أنه يقود ألفاً من العسكر، وأمير طبلخاناه، ويقود أربعين من العسكر^(٧). فلا يلى الواحد منهم الإمارة إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكشرت آدابه، وامتزج بروح الإسلام، وبرع فى الفنون الحربية، فقد تميز أمراء الممالك بالتربية العالية لأفرادها.

وقد كانت لغة الممالك هى اللغة التركية^(٨) - وهى لغة مملوءة بالفارسية والعربية - حتى ولو لم يكونوا تركاً. ومع ذلك فلما فى زمن الأيوبيين، ثم فى

(١) ابن تغرى بردى، منتخبات، ٢ ص ٢٤٠، ٣ ص ٣٣٥، ٢٠.

(٢) ابن إياس، ٣ ص ٦٨.

(٣) نفسه؛ انظر، Dozy: Suppl I, P. 360.

(٤) نفسه، ١ ص ١٥١، ١٢، ١٧، ٢١٩ ص ١٤.

(٥) مثلاً: ابن إياس، ١ ص ١١٤؛ حوادث، ص ٢٢٣، ٢٠. هى كلمة معربة عن اللفظ الفارسى:

خواجه تاش، أى زميل الخدمة. وهى الخشداشية، أو الخجداشية، - أو خشداشين، وانفرد خشداش. انظر:

Steingass: Pers; Ency Diet CF، السلوك، ٢ ص ٣٨٨ - ٣٨٩، وملاحظة (٣)

(٦) مفرج الكرب، ٣ ص ١١٧؛ انظر.

El - Beheiry Op. Cit, P. 14.

(٧) صبح الأعشى، ٤ ص ١٥، ١٩، ٢٠؛ انظر. El - Beheiry: Op. Cit, p 24.

(٨) زبدة، ص ٩٩.

دولة سلاطين المماليك من بعدهم، كان تعليمهم العربية إجبارياً ؛ حتى أن كثيراً منهم أتقن العربية، وأصبح فصيح اللسان بها، وله مسائل فى الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء^(١).



ولكن انتقال سلطة الحكم فى مصر إلى المماليك، نُسب على الخصوص إلى شجرة الدر؛ حينما أتاحت الفرصة قوية للمماليك بالتدخل فى الحكم، لما جاءت مصر الحملة الصليبية السابعة، ومات السلطان نجم الدين فى المنصورة، وهو يترقب نتائجها، فجمعت شجرة الدر مماليكه، وأغلبهم من التركمان، وتكتموا خبر موته. ولما قتل قائد الجيش المملوكى فخر الدين بن شيخ الشيوخ^(٢) فى أثناء قتالهم، فإن شجرة الدر كفلت قيادته الجيش إلى أبرر المماليك البحرية، وهو الأمير بيبرس^(٣)، الذى اسمه يعنى الفهد، ولد فى بلاد القفجاق فى عام ٦٢٠ هـ / ١٢٣٣ م، وبيع للملك الصالح بأربعين ديناراً، (أو عشرين. جنهًا) فقط؛ ولأنه كان مجروحاً عند العين، ولأن سيده اسمه إيدكين بندقله، الذى عمل فى خدمة الملك الصالح وهو فى الشام؛ فنسب بيبرس إلى الاثنين، فعرف بالصالحى والبندقدارى، أو بسبب مهارته فى رمى البندق، من البندقية؛ كما ذكرنا قبلاً. وكان بيبرس يمتاز بالذكاء والفروسية، وتدرّب على قتال أعداء المسلمين؛ فكان تعيينه فى قيادة الجيش الأيوبي إيدانا بوضع قوة الدولة الأيوبية الحربية بالفعل فى يد المماليك.

وفى الوقت ذاته أرسلت شجرة الدر إلى مقدّم المماليك البحرية - وله لقب الجمدار أيضاً واسمه فارس الدين أقطاي (أو أقطيا) الصالحى، نسبة إلى أستاذه الملك الصالح وكان قد اشتراه بألف دينار؛ ليدعو توران شاه ولى العهد من بلاد الجزيرة إذ كان خليل ابن شجرة الدر قد توفى وهو صغير، كما ذكرنا.

(١) ابن إياس، ٢ ص ٣٤، ٣٥ انظر. ماجد، نظم المماليك، ١ ص ١٩.

(٢) أنظر. قبله.

(٣) صبح الأعشى، ٢ ص ١٤٥، ص ١٤٥٨ السلوك، ١ ص ٦٣٧ س ١ - ١٤ انظر. جمال سرور، بيبرس، ١٩٣٨، ص ٢٩؛ Ency of Isl. (art Baybars I) 2ed, tl.P. 1124 sqq؛ وقبله.

كذلك مملوكًا ثالثًا، وهو عز الدين أيك - بمعنى الأمير القمر - الجاشنكير الصالح^(١)، أى من كانت وظيفته تذوق الطعام قبل أن يتناوله السلطان، وكان مع الملك الصالح فى بلاد الجزيرة قبل مجيئه مصر، وله جماعه خاصة من المماليك الخوارزمية، التى هربت من أيام المغول، وتزعمهم مملوك منهم وهو قطز؛ وكان أخلص مماليكه، وعرف أيك ومملوكه قطز بجرائعهما فى القتال، وقد أصبحا اليد اليمنى لشجرة الدر فى كل قراراتها.

ولما وصل توران شاه إلى مصر، الذى لقّب بالسلطان الملك المعظم، وهزم الفرنسيين هزيمة ساحقة فى فارسكور؛ فإنه مع نجاحه الكبير؛ إلا أن تصرفه نحو ممالك أبيه؛ حدد لمن ستؤول السلطة والسيطرة فى مصر، ستكون للأيوبيين الأكراد، أم لطبقة المماليك التركمان. وعلى كل حال، كان توران شاه، يقدر لهذا الصراع مقداره، بحيث كان قد حضر ومعه الأكراد من بنى جنسه، مع أن أباه كان قد ترك له وصية ولدينا نصها^(٢)؛ نصحه فيها بضرورة الاستماع إلى نصائح شجرة الدر زوجته، واستمالة قلوب ممالك أبيه.

ففى أول يوم وصوله إلى مصر، عمد إلى أن يقاوم سلطة المماليك التركمان المتزايدة فى الدولة. فمثلا تنكر لفارس الدين أقطاي الجمدار، وهو مقدم المماليك البحرية، الذى أرسلته شجرة الدر لاستدعائه من بلاد الجزيرة، فأبعده عن مجالسه، وكان يضرب برءوس الشمع المشتعل حتى تنقطع، ويقول: هكذا سأفعل بالبحرية^(٣)، ويضرب بشمعة شمعة، بعد أن يسميها باسم: المملوك.

(١) صبح الأعشى، ٤ ص ٢١، ٥ ص ٤٦٠؛ Corpus, I, P. 2؛ انظر. نظم المالك، ٢ ص ٤٩. كلمة «الجاشنكير» مكونة من كلمة جاشى ومعناها ذوق؛ و«كبير» ومعناها المتناول. أما أيك، فهى كلمة تركية بمعنى القمر السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٨ وهامش.

Qutremère: Hist des Sultans Mamlouks Paris, I, p. ١, no. 2.

(٢) انظر تفصيل عنها فى رسالة محمد محمد أمين، نقلاً عن النويرى فى نهاية الأرب . . رسالة ماجستير الملك الصالح نجم الدين أيوب، صفحات ٢٢٩ - ٢٤٩.

(٣) النجوم، ٦ ص ٣٧١.

ومع ذلك؛ فإن الممالك البحرية لم يثوروا عليه؛ إلا حينما تجرأ على شجرة الدر، وكانت هى التى رفعتهم إلى أعلى مراتب الدولة بعد موت زوجها، فأخذ يحاسبها على مال أبيه، ويطالبها به، وبالجواهر عندها^(١). فقرر الممالك البحرية قتله بفارسكور، وقيل: إن شجرة الدر نفسها، أمرتهم بذلك. فدبرت مؤامرة لقتله فى المأذبة التى أقيمت احتفالاً بالنصر على الفرنسيين، فى ليلة الإثنين ١٩ من المحرم سنة ٦٤٨هـ / ٢٣ أبريل ١٢٥٠م^(٢)؛ حيث وصف الفارس الفرنسى جوفانفيل «Joinville»^(٣) قتله؛ بلغته الفرنسية الدارجة، بما يتفق مع المصادر الإسلامية. ولما رأى توران شاه السيف تلمع أمام عينيه حاول الهرب، فعاجله بيبرس بضربة سيف قطعت أصابعه، فأسرع إلى البرج الخشبي الذى نصب بفارسكور، والدماء تنزف من أصابعه؛ فأشعل الممالك النيران فى البرج وأحرقوه، ومع أن النار اشتعلت بجسده؛ فإنه رمى بنفسه فى النيل، وهو يقول: لا تقتلونى، ولا أريد ملكاً. ولكن النشاب، وهى السهام عاجلته، وسبح بعض البحرية وراءه، بما فيهم بيبرس قائد الجيش، وقطعوه بالسيف؛ حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً. فأخرج أقطاي قلبه، وقدمه للملك فرنسا، الذى لم يكن غادر المنصورة بعد، حيث كان توران شاه قد أساء إليه بعد أسره، وبذلك انتهى حكم توران شاه، الذى لم يتم غير شهرين.

عندئذ وجد موقف سياسى دقيق؛ إذ وجد عدة أشخاص من كبار الممالك الترك أو طائفة البحرية، كل منهم يطمع فى حكم مصر، وهم: بيبرس قائد الجيش، وفارس الدين أقطاي الجمدار مقدم الممالك البحرية، وعز الدين أيبك الجاشنكير، الذى كان قد حار على ما يظهر على قلب شجرة الدر. فكان خوف كل واحد من هؤلاء الطامحين من الآخر؛ ما جعلهم يتفقون على سلطنة شجرة

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك فى دولة الأتراك، مخطوط، ورقات ١٥ - ٥٥.

(٢) نفسه، وقيل فى ٢ من صفر سنة ٦٤٨هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م.

(٣) أنظر Joinville: Op. Cit, Lxix. cf

الدر. فاجتمعوا فى خيمة «دهليز» سلطانى، وحلفوا لها، حيث أخبرها أيبك باختيارها ملكة على مصر؛ فأعجبها ذلك بملاحظة المقرئى^(١)، كما حلف لها الأجناد وهم ليسوا من الممالك، وإنما من الشعب المصرى، مما يدل على موافقة الجميع فى أن تكون شجرة الدر ملكة عليهم. وفى الوقت نفسه تقرر أن يكون عز الدين أيبك مدبراً للمملكة، وأتابكاً للعسكر وهم الأجناد المصريون، وتكون شجرة الدر وحدها صاحبة القرار بتوقيع «العلامات السلطانية»^(٢).

ولكى تبقى شجرة الدر على سلطانها، اعتمدت كلية على الممالك البحرية من دون الممالك الآخرين؛ إذ هى الأخرى كانت مثلهم من رقيق الترك؛ بحيث زادت قبضتهم على المملكة. وبالفعل، فإن عز الدين أيبك كان لا يتصرف فى أى أمر إلا بعد مشورتها، فكانت توقع على المراسم بعلامتها السلطانية «والدة خليل». وقد نسبت شجرة الدر نفسها إلى الخليفة العباسى المستعصم؛ فأصبحت تلقب بالمستعصمية، ملكة المسلمين ويدعى لها على منابر مصر بعد الدعاء للخليفة بألقابها النسائية فيقال^(٣): واحفظ اللهم الجهة الصالحة، ملكة المسلمين، عصمة الدين والدنيا، ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، وزوجة الملك الصالح نجم الدين، وغير ذلك من الصيغ المتشابهة أو المختصرة. كذلك نُقش اسمها على الدينار والدرهم^(٤)، ويوجد دينار وحيد بالنقشين بألقاب الخليفة العباسى المستعصم معها، محفوظاً فى المتحف البريطانى "B.M" بلندن بتاريخ ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م، فشجرة الدر تعتبر أول امرأة مسلمة تولت عرش مصر.

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٢.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه؛ انظر. Lane - Poole: A History, of of Egypt, p. 225.

(٤) انظر: Lane - Poole: Calalogue, iv, 136. يذكر هريدى فى فهرست خطط مصرى، 2 / xx Ann. Isl.

1983 P. 137;139، توجد تفاصيل عن سكة شجرة الدر ونقشها.

وعلى ما يظهر لم يجد حكم امرأة فى مصر معارضة من المصريين، ولا سيما امرأة قوية الشخصية مثلها، فهى وصفت بأنها صعبة الخلق، قوية البأس^(١). بل وبعض المؤرخين مثل السيوطى يقول صراحة: إن المصريين هم الذين ولوها، وقتلوا توران شاه، الملقب بالمعظم من قبل، وقتل من المصريين طائفة كبيرة؛ بسبب ذلك. كذلك نصوص أخرى تذكر أنه ولاها أعيان الدولة، وأهل المشورة فى البلاد. وهم العلماء أهل الحل والعقد؛ لتكون ملكة على مصر^(٢). فما من شك أن شجرة الدر قد أصبحت مصرية بحكم الإقامة فى مصر؛ وأن المصريين أحبوها وأحبتهم. وعلى كل حال، هذا يدل على حيوية رأى العام فى مصر وإيجابيته فى أحداث بلده الهامة.

فالمصريون كان لاخير عليهم من أن تحكمهم امرأة، وهم الذين تعودوا على أن يروا النساء بجانب الرجال فى الملك طوال زمن تاريخهم؛ فقد حكمتهم بعض النساء فى العصر الفرعونى، وفى الإسلام، وجدت ملكات قويات فى مصر فى وقت الفاطميين، سيطرن على الحكم، مثل: ست الملك أخت الحاكم بأمر الله، والملكة سلطنة أخت الظاهر لدين الله، والملكة رصد أم المستنصر بالله، التى كانت لها مثل أخت الظاهر، علامة خاصة، توقع بها على المكاتبات الرسمية، وهى عبارة: «الحمد لله ولّى كل نعمة»^(٣)، وأن الملكة الحرّة السيدة أروى حكمت للفاطميين فى اليمن، وهذه البلاد مثل مصر كانت قد تعودت على أن يحكمها ملكات؛ عرفن فى التاريخ باسم: «سبا» فى العصر القديم. بل قبل شجرة الدر فى وقت الأيوبيين؛ وجدت الست السوداء، وكانت مصرية صميمة، وأبوها الشيخ نصر، وكان الملك الكامل الأيوبرى يؤثرها على جميع جواريه ونسائه، بحيث أصبحت تدبر شئون المملكة بعد موته لابنها العادل الصغير [الثانى]، وهو أخو الملك الصالح، زوج شجرة الدر.

(١) ابن إياس، ١ ص ٩١.

(٢) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٨.

(٣) السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق ماجد، ط ٢؛ سجل ٥١ و ٥٢.

ولكن المعارضة لحكم امرأة فى مصر، جاءت من خارج مصر، من الخليفة العراقى، المتربع على سرير الخلافة فى بغداد؛ والغارق لأذنيه فى الملذات، فلم يعجبه أن تحكم الرجال امرأة. ويذكر المؤرخون أن الخليفة العباسى المستعصم وقتذاك، عاتب أهل مصر فى ذلك، وقال لهم: «إن كانت الرجال قد عدت عنكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»^(١). كذلك الأيوبيون فى الشام، رفضوا الاعتراف بشجرة الدر ملكة فى مصر، وهى من رقيق الممالك التركمان، خوفاً من أن تضع مصر من الأيوبيين. وهنا جدير بالذكر نقل رأى الفيلسوف الأندلسى ابن رشد بشأن تولية النساء الحكم، نقله عن الفقيه والمؤرخ الطبرى؛ فى أنه يجوز أن تكون المرأة حاكمة، وأنه وغيره أجازوا لها تولى القضاء أيضاً، وهو نوع من الحكم. وعلى العكس؛ فإن أمراء الممالك وغيرهم - ويقصد فى النص المصريين - جددوا الإيمان بالبيعة لشجرة الدر^(٢)، التى تفوقت بإرادتها على إرادة بقية ملوك بلاد الإسلام فى وقتها، بمن فيهم خليفة المسلمين فى بغداد.

عندئذ خلعت شجرة الدر نفسها، بعد حكم دام أقل من ثلاثة أشهر (ثمانين يوماً)، وإن أقيمت على السلطة الفعلية فى يدها؛ لأنها تزوجت من أحد الطامحين الثلاثة وهم من كبار الممالك البحرية، هو عز الدين أيبك الصالحى^(٣)، الذى كان مقرباً لها، ويمثل طبقة الممالك التركمان فى مصر؛ فعرف لذلك بالتركمانى أيضاً، إلا أنه لم يستطع أن يستولى على السلطة الكاملة للممالك فى الحكم؛ لوجود ملوك الأيوبيين فى الشام فى معظم مدنها الهامة، فى: حلب، وحمص، ودمشق، وكرّك، وكلهم يرى أن مصر جزء من دولة الأيوبيين، ولا سيما أظهرهم الملك

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٨٦

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٦٧

(٣) عن حياته، انظر ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ط ١، تحقيق لمحاتى، القاهرة ١٩٥٦، ١ ص ٥ وما بعدها.

الناصر يوسف، عم الملك الصالح أيوب، كما لم يعجبهم قتل توران شاه^(١)، وهو واحد منهم، فهم على عكس المماليك، لهم نبل الأصل، ويتقلدون حكمهم من الخليفة العباسي، الذي أيد شرعية حكمهم.

لذلك؛ فإن أيك التركمانى اختار طفلاً صغيراً من الأيوبيين، عمره ست سنوات، هو حفيد من ستة أحفاد للملك الكامل الأيوبي، ولقبه بالملك الأشرف موسى^(٢)، وجعل نفسه أتابكاً له^(٣)، حيث لدينا عملة باسم أيك الأتابك، والملك الأشرف، بتاريخى ٦٥١ و ٦٥٢ هـ / ١٢٥٣، ١٢٥٤ م^(٤). فكان يُخطب لهما معاً مع الخليفة، وصارت التواقيع تخرج باسميهما^(٥). ولكن ملوك الأيوبيين فى الشام، رفضوا تصرف أيك، واجتمعوا بقيادة الملك الناصر يوسف لمهاجمة فى مصر، وربما كان الناصر يوسف يريد أن يكون أيك نائباً له فى مصر وأن تكون له الخطبة فيها. كذلك ظهر لأيك عدو آخر من الأيوبيين، منافساً للأشرف موسى فى مصر، هو الملك المغيث عمر، وهو حفيد آخر للكامل، مثل الأشرف موسى، وأعلن نفسه ملكاً فى كرك والشوبك.

فيخرج أيك لقتال الأيوبيين على رأس المماليك التركمانية من طائفة البحرية، ويهزمهم فى بليس قرب الصالحية، التى أقامها الملك الصالح بجوارها، حيث كان فى جيش الأيوبيين قائد اسمه لؤلؤ، من أصل أرمنى، وصف ممالك مصر سخرية بأنهم: «مخانيث»، وأنه قادر على استرجاع مصر بمائتى قناع، أى امرأة. فقد كان الأيوبيون هم الذين استخدموا المماليك التركمان. فينضم ممالك الناصر يوسف إلى أيك، وينهزم الناصر يوسف، ويتراجع إلى الشام، ولاسيما أن

(١) ابن حبيب، درة الإسلاك، اورقات ١ - ٢ ب.

(٢) هو موسى، ابن المسعود يوسف كان يحكم فى اليمن وهو ابن الكامل.

(٣) عن اللفظة؛ قبله.

(٤) أنظر Lane - Poole: H. of Egypt, p. 256.

(٥) المنهل، ١ ص ٧.

الملك المغيث عمر، الذى طالب بعرش مصر، تصالح مع أيك^(١). وقد استمر النزاع بين أيك والناصر ست سنوات، واضطر الخليفة العباسى المستعصم للتدخل بينهما بالمصالحة؛ بسبب أن المغول كانت تزحف من إيران. واتفق نهائياً على أن تبقى مصر وغزة وعقبة والقدس إلى الأردن، ضمن أملاك الأشرف موسى ووصيه أيك، وأن يضم الناصر باقى الشام وبلاد الجزيرة^(٢).

ولكن لما يصل المغول إلى العراق، يعزل أيك الأشرف موسى، وينفيه إلى بلاد آسية الصغرى عند الترك السلاجقة، وقتل عددًا كبيراً من أنصاره من الأيوبيين فى مصر، وأعلن نفسه نائباً للخليفة المستعصم، وتلقب بالسلطان المعز لدين الله^(٣)، وطلب التقليد الخلفى من الخليفة أسوة بملوك الأيوبيين، وبذلك قد يعتبر أيك أول سلطان لماليك الترك فى مصر^(٤)، إذا اعتبرت شجرة الدر من الأيوبيين وإن كان بعض المؤرخين اعتبروها أول سلاطين الترك. والملاحظ أن قيام دولة الأيوبيين فى مصر، جاءت نتيجة من نتائج الحملات الصليبية، كما أن استيلاء المماليك البحرية على زمام الحكم فيها، جاء نتيجة للحملات الصليبية أيضاً.

حقاً إن شجرة الدر كانت قد عزلت نفسها، وتنازلت لأيك عن الحكم ظاهرياً، ووافق أمراء المماليك على سلطته، بمن فيهم شجرة الدر ملكة مصر السابقة؛ ربما لأنه على حسب قولهم كان من أواسط المماليك^(٥)، أى من السهل إزالته فى الوقت المناسب. إلا أن أيك بعد تسلطه، ووصول التقليد الخلافى؛ فإنه اشتد ساعده، وسعى إلى أن يكون صاحب القرار من دون زوجته شجرة الدر،

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٧٣.

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٨٥.

(٣) قيل إنه أعلن سلطته فى ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ / ٤ يوليو ١٢٥٠م، ربما باعتبار أن سلطته منذ تولية شجرة الدر الحكم؛ حيث كان مديراً لمملكها. ولكن من وجود عملة بتاريخى ٦٥١ و ٦٥٢هـ / ١٢٥٣ و ١٢٥٤م؛ باسمى أيك والأشرف موسى، نرى أن إعلان سلطته بمفرده كان بعد هذين التاريخين، ولعله قبل سقوط بغداد فى يد المغول فى ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م.

(٤) ابن حبيب، درة الإسلاك، ١ ورقة ٢.

(٥) المنهل، ص ٦.

التي كانت لها فرقة خاصة بها من المماليك تثق فيهم. ولذلك لانظن أن عداء شجرة الدر الطارئ لزوجها أيك - كما تذكر المصادر - بسبب أنه خطب عروساً أخرى من الأسرة الأيوبية، وهي ابنة لؤلؤ أمير الموصل^(١)، أو بسبب غيرة نسائية أو مشكلة زوجية أو وجفاف في العواطف، إذ كان لأيك جوار كثيرات، وإنما عداؤها له أتى من التنافس بينهما على السلطة حتى أصبح كل منهما يتربص بالآخر، وبخاصة أن أيك أصبح ينفرد بالسلطة من دونها، وهي التي كانت طامعة فيها.

حقاً إن أيك استطاع أن يتخلص من أقطاي الجمدار، مقدّم المماليك الذي نافسه منافسة شديدة على حكم مصر، وكان يعترم الزواج هو الآخر من أميرة أيوبية، وطالب أيك أن يسكنه وعروسه في القلعة، ولاسيما أنه كان له خشداشية كثيرون^(٢)، وهم زملاؤه في الطباقي. ويبدو أن أقطاي هذا هو الذي أجبر أيك على أن يولى الأشرف موسى الأيوبي معه في الحكم؛ حتى لا يستقل أيك بحكم مصر. ولكن أيك استدراج أقطاي إلى القلعة بقصد مشاورته وقتله^(٣). فلما حاصر ممالك أقطاي القلعة بقصد إسقاط أيك، رمى لهم أيك برأس أقطاي، حيث هبره قطز وهو من المماليك الخوارزمية وغيره بالسيوف. ففرق ممالك أقطاي على رأسهم بيبرس، وهربوا جميعاً إلى الشام عند الأيوبيين، أو عند أمراء السلاجقة الروم في آسية الصغرى؛ فأرسل أيك وراءهم من حذر ملوك الأيوبيين وأمراء السلاجقة منهم.

إلا أن أيك عجز عن إحباط المؤامرة التي دبرتها له شجرة الدر لقتله على الرغم من أنه أحس بقصدها، وعمد هو الآخر إلى تدبير مؤامرة لقتلها، وكان لأيك منجم أخبره بأنه سيقتل على يد امرأة^(٤)، وقد ظهر تدبيره أيك لقتل شجرة الدر حينما أنزلها من القلعة مركز الحكم إلى دار الوزارة^(٥)، غير أن شجرة الدر

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٤٠٢؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، ١ ورقة ٢٢ ب؛ انظر . ماجد، دولة سلاطين المماليك ٢ ص ٨٤

(٢) عن هذه اللفظة، انظر . قبله.

(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٨٧ وما بعدها. في ٦٤٩هـ / ١٢٥١م.

(٤) المنهل، ١ ص ١٢

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٤٣

كانت أسرع منه، وربما كاتبت الناصر يوسف فى دمشق وهو أكبر ملك أيوبى، بأنها عزمت على قتل أيك، وتمليكه مصر^(١). وبالفعل عمدت شجرة الدر تخبئة خمسة من خدمها المخلصين فى الحمام لخلق أيك، وربما كان منهم بعض خدم لأقطاى الذى قتله أيك. وعلى الرغم من توسلاته لشجرة الدر، التى كاد قلبها يلين، لولا أن القتلة قالوا لها إن خرج حياً فلن يبق عليهم أو عليها؛ فقتلوه خنقاً، وادعوا أنه مات بالصرع؛ كما قيل فى موته أن الخدم وثبوا عليه وأمسكوه، وصارت هى تضربه بالقبقاب إلى أن فارق الحياة^(٢)، أو أنه لما دخل الحمام قفلته عليه، فبقى فيه إلى أن مات، وكان ذلك فى ليلة الأربعاء ١٤ من ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ٢٨ فبراير ١٢٦٠.

ولكن كان لأيك مماليك خاصة به كما ذكرنا، كان اشتراهم من جماعة الخوارزمية، التى هربت من أمام المغول بعد هزيمتها؛ تزعمهم المملوك قطز، الذى كان خاله جلال الدين خوارزم شاه، استرق وبيع فى دمشق، ثم فى القاهرة لأيك، حيث اعتبر من أخلص مماليكه. فولى قطز على بن أيك، وكان صبياً عمره حوالى خمس عشرة سنة، ولقب باسم: الملك المنصور، وعين نفسه أتابكاً له - أى وصياً عليه - وسك العملة باسمه^(٣). فأمر على بن أيك بقتل شجرة الدر، قاتلة أبيه؛ بأن سلّمها لجوارى أم على، اللاتى قتلنها بالقباقيب^(٤)، بحيث سحقته تحتها كحشرة، وألقوا بجسدها للكلاب، وليس عليها سوى سروال وقميص؛ وذلك بعد ثلاثة أيام من قتل أيك. وكان من قوة نفسها لما علمت بأنها قد أحيط بها، أن أتلقت كل مجوهراتها واللالى، وكسرتها فى الهاون، وذرتها فى الريح. وقد أحب المصريون شجرة الدر من دون زوجها أيك، الذى قتل خلقاً كثيراً منهم، وشنق عالماً من الناس بغير ذنب؛ ليوقع فى القلوب مهابته؛ بينما هى كانت رمزاً عندهم للمرأة العطوفة عليهم؛ ولا يزال قبرها ويوجد فى مسجدها، الذى بنته بجوار مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة يزار للآن.

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٤٠٢.

(٢) مورد اللطافة، ص ٢٤

(٣) أنظر. 91, p. 275. Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes. Egypte, Paris, 1887.

(٤) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤ وما بعدها

ولكن قطز^(١) هو الآخر طمع فى أن يتولى السلطنة، من دون علىّ بن أيك، ولعله لم يعجبه قسوة علىّ المبكرة، التى ظهرت له؛ بأمره بقتل شجرة الدر، ولاسيما أن الموقف الحربى كان خطيراً بوصول المغول إلى الشام، بعد اجتياح العراق، وقتل المستعصم خليفة المسلمين. فنجد قطز يخبر علماء مصر ومشايخها وأعيانها أن مصر والإسلام فى حاجة إلى سلطان قوى، له خبرة فى القتال، وليس صبياً مراهقاً، حتى ولو كان ابن أستاذه. فمنحه علماء مصر وأعيانها - وهم يمثلون مصر أمام الحكام المماليك - الإذن بعزله، وبتولية السلطنة من دونه، ولقب بالملك المظفر سيف الدين، وسك العملة باسمه^(٢). وهكذا كانت البداية الحقيقية لدولة سلاطين المماليك الفتية فى مصر.



ولابد لنا هنا من أن نعترف بأن دولة سلاطين المماليك فى أول نشأتها فى مصر، قامت على أسس من قيم عظيمة جداً، من إيمان عميق بالدين، لتكون دولة فرسان المسلمين، وحمايتهم ضد الطامعين والغزاة. فهذا ثابت بما يتناقله واقع التاريخ من انتصاراتهم الكبيرة على أعداء المسلمين، حيث يعتبر قطز المؤسس الحقيقى لدولتهم، جمع فى شخصه هذه القيم العظيمة، كما أن بيبرس الذى جاء من بعده مباشرة، فإن القصص الشعبى فى مصر لا يزال يتغنى بمآثره وبطولاته، وفروسيته ونبله ودهائه فى سبيل نصرة المسلمين.

(١) اسمه الأول محمود، وأبوه هو مودود، ابن عم جلال الدين خوارزم شاه. بتفصيل السلوك، ١ / ٢ ص ٤٣٥

انظر Ency of Isl, (art Kutuz) 2ed, p. 261, no (2).

(٢) انظر . Lane - Poole: Egypt, p. 261, no (2). بتاريخ ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م.

الخاتمة

من اليقين أنه توجد فى تاريخ الشعوب ثوابت لاتنفصل عنها؛ أبرزها الوطنية التى تكمن وقتذاك عند المسلمين فى الروح الإسلامية، بعد أن تمكن الإسلام من شعوبهم - بما فيهم شعب مصر - بعد إسلامه واستعراجه؛ بحيث اختفت العصبية والقوميات، وجعلت المسلمين أخوة لافرق بين عربى وعجمى، حيث كانت مصر فى الفترة الأيوبية قاعدة للوطنية الإسلامية، التى تقوم على أساس الروح الإسلامية، والإيمان العميق بها، ولم تكن الوطنية مثلما هى فى وقتنا تقوم أساساً على الانتساب للأرض أو صلة الدم؛ فهى وطنية مركبة من مقومات متعددة، وليست من مقوم واحد، أمثلها الروح الإسلامية.

ولاشك أن الدولة الأيوبية تعتبر حقبة هامة فى تاريخ مصر الإسلامية، غطت مساحة من الزمن، ناهزت الثمانين عامًا، وهى مدة قصيرة فى تاريخ مصر المديد الطويل؛ إلا أنها حافلة بالإيمان والكرامة والصمود والأمجاد والإشراقات. فعلى يد السمر المصريين وحدهم، كما تقول نصوص التاريخ، بقيادة صلاح الدين المؤسس الأول للدولة الأيوبية وكبير البيت الأيوبى، استردت القدس بعد أن يأس المسلمون من استردادها، ووضعوا حدًا لأطماع الفرنجة وهم أهل أوروبا فى الشرق الإسلامى بهزيمتهم مرتين فى مصر، حينما غزوها فى حملات شرسة ومكثفة؛ حيث فهم الصليبيون أن القوة الرابضة فى مصر قد أصبحت حائلًا دون أطماعهم، وأن لمصر الريادة فى الدفاع عن العرب والمسلمين، وكأن الأقدار قد أرسلت الأسرة الأيوبية الكردية الأصل لتحكم فى مصر لتحقيق ذلك؛ مما جعلها بمثابة توجيه لدفع الحاضر والمستقبل فى مصر والبلاد العربية.

حقاً إن الدولة الأيوبية فى البداية نشأت على أسس من قيم وطنية إسلامية عظيمة جداً، بسعيها لوحدة العرب والمسلمين؛ غير أن شهوة الحكم غلبت على ملوكها بعد موت صلاح الدين؛ بحيث دبت بينهم الفرقة، وأصبح الطابع الأول للحكم الأيوبي بعامية فى أى قطر عربى المنازعات والدسائس والمشاحنات والمشاجرات؛ مما ترتب عليه البعد عن قيمها وأهدافها، ومهد لسقوطها فى يد عماليك مصر، لتبدأ بهم حقبة جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية.

الكشاف

١ - جدول المصادر والمراجع

(أ) كتب عربية مخطوطة ومطبوعة

ابن الأثير (عز الدين) ، الكامل فى التاريخ، تصحيح عبد الله النجار، مصر ١٣٤٨ وما بعدها.

، التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية (بالموصل)، تحقيق
طلسمات، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م، وأيضاً
بعنوان: تاريخ الدولة الاتابكية ملوك الموصل، فى
مجموعة: R.H. des Hist de Crois. Or Vol II lèr.
Paris, 1869.

ابن إياس ، تاريخ مصر، المشهور ببداية الزهور فى وقائع
الدهور، فى ٣ أجزاء، بولاق ١٣١١ - ١٣١٢هـ (الجزء
الأول).

أسد رستم ، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم،
وصلاتهم بالعرب، فى جزئين، بيروت ١٩٥٥ -
١٩٥٦.

باركر (أرنست) ، الحروب الصليبية، نقله إلى العربية البار العرينى،
القاهرة ١٩٦٠.

البار ، مصر فى عصر الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٠.
الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول،
القاهرة ١٩٦٣.

ابن بهادر البندارى ، الفتح بن على (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م) - تاريخ آل
سلجوق، مصر ١٩٠٠.

، سنا البرق الشامى؛ تحقيق فتحية النبىراوى، القاهرة
١٩٧٩.

، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، مخطوط بدار
الكتب برقم ٢٣٢٩ تاريخ، وبمكتبة جامعة القاهرة،
برقم ٢٦١٦٦.

، حياة صلاح الدين الأيوبي، القاهرة ١٩٢٦.

قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، ١٩٥٢.

، (أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر
والقاهرة، القاهرة، ط. دار الكتب ١٩٢٩-١٩٥٦)،
وتحقيق Popper، ط. California.

، منتخبات من حوادث الدهور، تحقيق Popper، فى ٤
أجزاء، ط. Barkeley ١٩٣٠ - ١٩٣١.

، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، الجزء الأول،
تحقيق يوسف نجأتى، القاهرة ١٩٥٦؛ وتحقيق محمد
محمد أمين، فى جزئين، القاهرة ١٩٨٤، ١٩٨٥،
وله ملخص بالفرنسية من Wiet: Les Biographies

بعنوان: du Manhal Safi, 1932

، الدر الثمين فى سيرة نور الدين، مخطوط بمكتبة بلدية
الإسكندرية، برقم ١٣٣٦ ب.

، رحلة، تحقيق حسين نصار، مصر ١٩٥٥، وط.
Leyden، ١٩٠٧.

، مصر والشام بين دولتين، القاهرة ١٩٤٥.

، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩.

بيلى

بيومى

ابن تغرى بردى

بدر الدين

ابن جبير

جمال الدين الشيال

، تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثانى، العصران الأيوبي
والمملوكى، الإسكندرية ١٩٦٧ .

، (أبو الفرج)، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، حيدر
آباد ١٣٥٩هـ .

ابن الجورى

، الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية
الآداب بالإسكندرية، لسنة ١٩٦٢ - ١٩٦٣، ص ١٨٣
ومابعدھا .

جوزيف نسيم

، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى،
الإسكندرية ١٩٦٣ .

، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبي،
المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء، فصلة،
الإسكندرية ١٩٦٥ .

، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشره Moritz،
القاهرة ١٨٩٨ .

ابن الجيعان

، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، القاهرة
١٩٧٣ .

حامد غنيم

، (إمام الحرمين) (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م)، العقيدة
النظامية، تحقيق محمد زاهد والكوثري، مصر
١٣٦٧هـ / ١٩٤٨ .

الجوينى

، (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م)، درة الأسلاك فى دولة
(ملك) الأتراك، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة برقم
٢٢٩٦١، وفى المكتبة الأهلية (B.N) برقم 4680 و
4681، ومقتنيات من Weijers، ١٨٤٠ .

ابن حبيب

، صلاح الدين وعصره، القاهرة ١٩٢٧ .

أبو حديد

، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، مصر ١٣١٧ هـ
/ ١٨٩٩ .

الحريرى

- حسن إبراهيم
حسن حبشى
- ، مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧ .
، الحروب الصليبية الأولى، القاهرة ١٩٤٧، وطبعة ثانية
١٩٥٨ .
- ، نور الدين والصليبيون، حركة الإفاقة والتجمع
الإسلامى فى القرن السادس الهجرى، القاهرة
١٩٥٨ .
- ، أعمال الفرنجة «Gesta»، ترجمه وعلق عليه، حسن
حبشى ١٩٥٨ .
- ، جوانقيل القديس ولويس وحملاته على مصر والشام،
ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨ .
- ، الحروب الصليبية، تأليف وليم الصورى، ترجمة
وتقديم، القاهرة ١٩٩١ - ١٩٩٤، ظهرت منه ثلاثة
أجزاء .
- حسن الرماح
- ، (نجم الدين) (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م) فى علم الفروسية
والمنازلة مع الفرسان، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N)،
برقم 2825 .
- حسنى
- ، صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين،
(رسالة ماجستير) .
- حسنين ربيع
- ، النظم المالية فى العصر الأيوبي، القاهرة ١٩٤٦ .
الصليبيين، رسالة ماجستير ١٩٥٩ .
- حسين مؤنس
- ، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، القاهرة
١٣٨٧هـ / ١٩٥٩ .
- الحسينى
- ، (صدر الدين)، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق إقبال،
لاهور ١٩٣٧ .

- حمزة ، صلاح الدين، مصر ١٩٤٢
- الحنبلى ، حكم قراقوش، القاهرة ١٩٤٥ .
- خحدورى ،شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٣١ تاريخ .
- ابن خلدون ،الصلات الدبلوماسية بين هرون الرشيد وشارلمان، بغداد ١٩٣٩ .
- ابن خلكان ،المقدمة، القاهرة ١٣٢٢هـ .
- ،وفيات الأعيان، بولاق، فى مجلدين، وفى ٣ أجزاء، القاهرة ١٢٩٩هـ، وتحقيق إحسان عباس، ١ - ٨، بيروت ١٩٦٨ .
- الراوندى ،راحة الصدور، تحقيق إقبال، ط. London، ١٩٢١ .
- رانسيما ،تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة البار، ط ٢، ١٩٨١ .
- روبرت كلارى ،فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمها من الفرنسية القديمة وقدم لها حسن حبشى، ١٩٦٤ .
- زابروف ،الصليبيون فى الشرق، ترجمة إلياس، موسكو ١٩٨٦ .
- رامباور ،معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ترجمة عربية، فى جزئين، ١٩٥١ - ١٩٥٢ .
- ربيدة عطا ،الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية، زمن الأيوبيين، ماجستير ١٩٦٩ .
- زكار ،الحروب الصليبية، دمشق ١٩٨٤ .

- السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، فى ١٢ سفرًا،
القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ .
- سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، القاهرة
١٩٥٧ .
- سعيد العريان ، شجرة الدر، قضية تاريخية، دار المعارف .
- سعد زغلول عبد الحميد، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب ابن
منصور الموحدى، مجلة كلية الآداب، جامعة
الإسكندرية، ٦، ٧، ١٩٥٣، ص ٨٤ - ١٠١ .
- سوفاجيه ، الآثار الإسلامية التاريخية فى حلب، عربها وعلق
عليها محمد أسعد أطلس؛ دمشق ١٩٥٦ .
- السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، فى جزئين،
القاهرة ١٣٢٧ - ١٩٠٩ .
- ابن شاهنشاه بن أيوب ، (صاحب حماة)، مضممار الحقائق وسر الخلائق،
ويشتمل على السنوات بين ٥٧٥ هـ و ٥٨٢ هـ، تحقيق
حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨ .
- أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين، فى جزئين، القاهرة
١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ .
- ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروفة بسيرة
صلاح الدين، القاهرة ١٣١٧ هـ .
- ابن صاعد ، طبقات الامم، نشر شيخو، بيروت ١٩١٢ .
- صدر الدين ، أخبار الدولة السلجوقية، صححه إقبال، طبعة لاهور،
١٩٣٣ .

- عادل حمزة ، رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى بلدوين الرابع، ملك بيت المقدس ٥٦٩هـ / ١١٧٤م، مجلة المؤرخ العربى، ١٩٩٦، ٤، ١٩٩٦ ص ٢٤٩ ومابعدھا .
- ، الحركة الصليبية، فى جزءين، القاهرة ١٩٦٣ .
- عاشور ، الأيوبيون والمالک فى مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠ .
- ابن عبد الظاهر ، سيرة الملك الظاهر، تحقيق الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، وترجمة فاطمة صادق، Oxford, 1956,
- ابن العديم ، ربدة الحلب من تاريخ حلب، فى R. des Hist. des Crois. Or t III.
- عماد الدين الاصفهاني ، كتاب تاريخ دولة آل سلجوق، مصر ١٣١٨ / ١٩٠٠ ، كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى، مصر ١٣٢١هـ.
- ، خريدة القصر وجريدة العصر، نشر أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس، القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٤ .
- عمر كمال توفيق ، الحملة الصليبية الخامسة، ١٩٥٨ .
- عنان ، مملكة بيت المقدس الصليبية، ١٩٥٨ .
- ، مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٣١ .
- أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر، الطبعة الأولى، الحسينية .
- ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٤٧ .
- ، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ .
- ابن القلانسی

- القلقشندي ، صبح الاعشى ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ ؛ وطبعة ثانية ، القاهرة من وزارة الثقافة .
- ماجد ، الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦ .
- ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، ط٢ ، بيروت ١٩٦٧ (وطبعة ثالثة شعبية) .
- ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر ، الطبعة الرابعة ١٩٩٤ ، فى جزئين ، ١٩٩٤ .
- ، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر ، القاهرة ١٩٨٨ .
- ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، فى جزءين ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير ١٩٦٨ .
- مختار العبادى ، البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، مجلة كلية الآداب . جامعة الإسكندرية ، ٦ ، ٧ ، ١٩٥٣ ، ص ٢٨ .
- المخزومى (أبو الحسن ، المنتقى من كتاب المنهاج فى علم خراج مصر ، تحقيق على) (ت ٥٨٥ هـ / Cahen ، ومراجعة راغب ، فى ملحق Ann Islamo ، ١١٨٩ م) القاهرة ١٩٨٦ ، العدد (٨) .

- المسعودى
المقرئى
،التنبه والإشراف، تحقيق de Goeje، ١٨٩٤ .
،كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الطبعة الثانية، ١ /
٢، تحقيق ريادة ١٩٥٦ .
الخطط المقرئية، ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٢٦هـ .
مكسيموس
،تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب
الصليب، ترجمة من الفرنسية، فى مجلدين،
أورشليم، ١٨٦٥ .
ابن ممتى
نجاح القابسى
،قوانين الدواوين، القاهرة ١٩٤٣ .
،اتجاهات البحث فى تاريخ الغزو الصليبي، - دراسة -
المؤرخ العربى، العدد ٣٤، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨، ص
٤٨ وما بعدها .
النعيمى
النويرى
،الدارس فى تاريخ المدارس، دمشق ١٩٤٨ .
،نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق فى ١٨ جزءاً،
١٩٢٨ - ١٩٣٨ .
هريدى
،فهرست خطط مصر، المجلد الثانى فى : Ann Isla-
mo; xx / 2, 1983.
ابن واصل
،مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق الشيال،
فى ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠، وحسنين
ربيع، فى ٤ - ٥، القاهرة ١٩٧٢م - ١٩٧٧م .
،التاريخ الصالحى، تصوير بمكتبة جامعة الإسكندرية،
برقم ٢٣١١ .

- وليام الصور (وليم)
الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق حسن حبشي،
في ٤ أجزاء، القاهرة ١٩٩١ وما بعدها.
- ياسين الحموي
دمشق في العصر الأيوبي، دمشق ١٩٤٦.
- ياقوت
معجم البلدان، تحقيق الخالجي، في ٨ أجزاء، القاهرة
١٢٣٢هـ / ١٩٠٦م.
- اليعقوبي
كتاب البلدان، تحقيق Houtsama، ١٨٩٣.
- يحيى بن سعيد
تاريخ، تحقيق وترجمة، ١٩٢٤.
- اليونيني
ذيل مرآة الزمان وتاريخ الأعيان، نشر حيدر آباد،
١٩٥٤ - ١٩٦٦.

ب - المراجع الأوربية

Alphandery (Paul): La Chrétienté et l'Idée de Croisades. Paris, 1954.

- Angelo : Histoire de la Palestine. Paris, 1932.
- Archer : The Crusade Of Richard. London, 1888.
- Aube : Godefroy de Bouillon. Fayard, 1982.
- Ayalon : Les Eaclavaes du Mamelouk. Jerusalem, 1951.
- Bassietti : Mohammed et Saint François. Ottowá, 1959.
- Bernhardi : Konrad III, 2 Vols. Leipzig, 1883.
- Bardonove : Saint Louis. Paris, 1984.
- Cahen : La Campagne De Mantzikert d'après Les Sources Musulmanes. Ext. de Byzantion. T LX. fasc2, Bruxelles. 1934.
- : La Syrie du Nord A l'époque des Croisades, 1940.
- : Contribution a` l'Histoire de Diyár Bakr ;au xive` Siècle, J.A, 1955.
- : Douanes et Commerce ... de L,Egypte Médiévale d,après le Minhadj d,al - Makhzúmi, JEscho Vol 7 / 1964, y 218 - 313.
- :Les Marchands Etrangers au Caire, sous les Fatimides et les Ayyoubides. Colloque Inter. le Caire, 1969.Grafhenaininden, 1972, p. 97 - 102.
- Castries : La Conquête de La Terre Sainte, 1973.

- Cedrenus : Synopsis Historiae Corpus Scriptionum. Historiae byzantinae, ed. Bekker (C.S.H.B) 1838 - 9.
- Champdor : Saladin. Le Plus Pur Héros de l'Islam. Paris 1956.
- De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes. 2 Vols. Paris, 1838.
- Dodu : Histoire des Institutions monarchiques dans Le Royaume Latin de Jerusalem, 1844.
- Dolger : Regesten der Kaiserrukunden des Ostromischen Reiches. Berlin - Munich, 1924.
- Elisséeff : Núr al - Dín. 1950.
- Enan : Decisive Moments in the History of Islam, 3ed. Cairo, 1948.
- Encyclopedia: Of Isl, 2ed, art Ayyúbides, TI,P. 796 sqq.
- Gabrielli : Saladino Encyclopedia Italiana, t XX.X. p. 485 - 486.
- : Storici Arabi delle Croicianste, 1957.
- Gesta : Francorum et Alionorum Hierosolymitanoium, transl. into English for the first time by Somerset de Chair. England, 1945.
- ولها ترجمة عربية من حسن حبشى
- Gibb : The amies of Saladin, in.C.H.E. 111 / 4, 1951, 304 - 326.
- : The Achievement of Saladin, in Bull Of the John Library, XXX V I, 1952, 46 - 60.

- : the Arabic. sources for the life of Saladin. Speculum, XXV, 1950.
- : The career of Núr ad - Din. Pensylvania, 1955.
- : The rise of Saladin 1169 - 1187. Pensyl, 1955.
- Gottschalk** : al Malik al Kámil, Wiesbaden, von Egypten und Seine Zeit 1958.
- Grousset** : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 Vols. Paris. 1934 - 1936.
- Heyd** : Histoire du Commerce du Levant, I, 1882.
- Houtsama** : Recueil de textes relatifs á l'histoire des Seldjoudes. Leyden, 1886 - 1902.
- Joinville** : Histoire de Saint Louis. Ed Natalis de Wailly Paris, وله ترجمة من حسن حبشى. 1874
- Lamb** : The Crusades. London, 1931.
- Lane - Poole** : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem London, 1898.
- : The Coinage of Egypt. London, 1879
- : Catalogue Of the Collection of arabic Coins. Preserved in the Khedivial Libray. London, 1897.
- : History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- Lavoix** : Catalogue des Monnaies Musulmanes. 3 Vols. Paris 1887 - 1897. Egypte - Syrie.
- Le Febvre** : Pierre L' Ermite et La Croisade. Paris, 1940.
- Le Strange** : Palestine under The Moslems. London, 1890.

- : The Lands Of Eastern Califate, Cambridge, 1905.
- Lewis** : The Source For the History of the Syrian Assassins. Speculum. XXVII, 1959.
- Marin** : Histoire de Saladin. 2, Tomes. Paris, 1758.
- Mathieu d'Esse** : Chroique Continué par Grégoire Le Prêtre, trad Dulaurier. Paris, 1858.
- Mawlawi** : The decline of Suljukid empire. Calcutta, 1938.
- Michaud** : Histoire des Croisades. 4 Vols. Paris, 1953.
- Michel LeSyrien** : Chronique, ed et trad. Chabot. (VOL3). Paris, 1899 - 1910.
- Minorsky** : Prehistory of Saladin, in Studies Caucasian History. Cambridge, 1953, p. 127 - 129.
- Norgate** : Richard the Lion Heart. London, 1924.
- Prawer** : The Latin Kingdom of Jerusalem. 1972
- وله ترجمة من قاسم ومحمد خليفة ١٩٨١ .
- Recueil** :des Historiens des Croisades: Historiens Orientaux t I - V. Paris, 1872 - 1906. Historiens Occidentaux t I - VI. Paris, 1844 - 86. Historiens Armeniens I - 2. Paris, 1969. Historiens Grecs I - 2. Paris.
- Reinaud A. M** : Notice Sur la Vie de Saladin. Paris, 1824.
- Répertoire** Chronologique d'épigraphie arabe, 17 Vols.
- Rey** : Histoire des Princes D'Antioch. Paris.
- Riant** : Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades. Paris, 1986.

- Róhricht : Geschichte des Konigreichs. Jerusalem, 1160 - 1291.
- Rousset : Histoire des Croisades, Paris, 1981.
- Roy : Histoire des Templiers. Tours, 1851.
- Runcinan : A History Of the Crusades 3 Vols. London, 1951 -4.
- وله ترجمة من البار.
- Salah Elbe-heiry : Les Institutions de l, Egypte au temps des Ayyúbides (Thèse). Paris
- Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury Ie`r de Jerusalem en Egypte au Xlle` Siécle. Paris, 1906.
- Setton : A History Of the Crusades. 2 Vols. Pensylvania, 1958.
- Tritton : The first and Second Crusades From an anonymous Syriac Chronicle. Translated by Tritton. With notes by Gibb. J.R.A.S. January 1933, p. 66 - 102, April 1933, p. 273 - 305.
- Van Berchem : Notes sur Les Croisades. J. A. 9 e`me Série, XiX 1902, p. 385 suiv.
- Wiet : L'Egypte et Les Lieux Saints deL'Islam, dans Mé-lange Offerts a` René Grozel. Poitiers, 1966, p. 119 - 130.
- : Histoire de la Nation Egyptienne, ed Hanotaux IV.
- Wilken : Geschichte der Kreuzziige. 7 Vols. Leipzig, 1807 - 1832.

٢- جدول الأعلام والأماكن

أ- الأعلام

ابن الأثير ٣١، ٤٤، ٧٧، ٩٦، ١١٢	١٦٤، ١٦٥
أحمد بن بويه ٢٤	إيزار بيلا ١٢٦
أحمد بن طولون ١٢٠، ١٤٤، ١٤٥	إيلغارى ٦٧
أحمد بن المشطوب ١٢٥	أيوب ٧٠، ٧١، ٧٧، ٨٨
الإخشيدي المصري ١٤٤	باسيل (الثانى) ٣٨
الإدريسى ١٢٦	بدر الجمالى ٣٠
إربانوس ٣٩	بطرس الراهب ٣٩، ٤٠
أزناط ٩٥، ٩٦، ٩٧	بودوان (بغدوين، بردويل) ٤١، ٥٨، ٦٥، ٧٢، ٧٩، ١١٦
أسامة بن منقذ ١٢	بورى ٦٠، ٦٨
الإستبارية ٥٠، ٩٧، ١٠٧	بوهيمند (البيمند) ٤١
إسماعيل (الملك الصالح) ٨٩، ٩٠	بيبرس ١٣٢، ١٣٣، ١٥٦، ١٥٨
إسماعيل بن بورى ٦١، ٦٨	١٦٤، ١٦٦
الأشرف موسى ١٦٢، ١٦٣	ابن البيطار (الصيدلانى) ١٣٠
الأفضل (الوزير الفاطمى) ٣٠، ٤٩، ٥٨، ٦٠، ١٦١	الاقسيس (أتسز) ٢٩، ٣٠، ٣٩
آق سنقر ٦٧، ٦٨	أقطاي (أقطيا) ١٤٤، ١٥٦، ١٥٨
ابن أبيك (مؤرخ) ١٧	١٦٤
أبيك (عزّ الدين، معز الدين) ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣	ألب أرسلان ٢٧، ٢٨
	أم على ١٦٥، ١٦٦

جى (جوى - كى) ٩٢ وما بعدها، ٩٦	أنر (معين الدين) ٦٥، ٧٠
الحافظ لدين الله ٦١	أنا كومنينوس ٤٠
الحاكم بأمر الله ٣٧، ٣٨، ١٦٠	أنوشتكين ٥٨
الحسن الأبرقى ١٠٤	ابن إياس ١٣١، ١٤٥
حنادى برين ١١٩ وما بعدها، ١٢٤، ١٣٠	إليكسيوس ٤٠، ٤٢، ٧٣، ١٢٢
الحسين بن على ٦٥، ٦٦، ٨٤	أليجوا ١٢٨
الحاتون (عصمة الدين) ٨٨	تتش ٢٩، ٣٩، ٤١
ابن خلدون ١٤٤	ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) ١٨، ٨٧
ابن خلكان ١٨، ٧٥	تشرشل ٩٤، ٩٦
دانتي ١٢٧	تاتكرد ٤٢
الداوية (الديوية) ٥١، ١٠٧	توران شاه ٢١، ٨٥، ٨٦، ١٢٧
الست السوداء ١٦٠	١٣١، ما بعدها، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٢
ست الملك ١٦٠	وما بعدها، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٨
سفر نيوس ٣٥	الجاحظ ١٩، ١٣٩، ١٤٣، ١٥٤
سكمان (سقمان) ٣٠	ابن جبير ١٦، ٨٥، ٩٣، ١١٢
ابن السلار ٦٥، ١٠٨	جلال الدين خوارزم شاه ١٣٩
سلجوق ٢٤، ٢٥	جوانفيل ١٢٨ وما بعدها، ١٢٩
سليمان بن قُتلمش ٤١	١٣٠، ١٣٢، ١٥٨
السهرورى (المقتول) ١٧، ٨٥	جودفروا ٤١، ٤٢
سييلا (الملكة) ٦١، ٩٣	ابن الجوزى ١٣، ٨٧، ١٣٤

السيدة الحرّة ١٦٠	ابن سبعين ١٢٧
سيف الدين غازي ٦٩ ، ٧٠	شرف المعالي (ابن الأفضل) ٥٨
السيوطي ١٨ ، ١٦٠	شيركوه ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٧٨
شادي ٧٤ ، ٧٥	الشيزري ١٥ ، ٨٥
شاور ٧٧ ، ٨٠ ، ٨١	الصالح إسماعيل ٨٨ ، ٩٠ ، ١٤١
شجرة الدر (أو شجرة الدر، والدّة خليل) ٢١ ، ١٢٧ ، ١٢٩	الصالح نجم الدين ٢٠ ، ١٢٦ وما بعدها، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٦ ، ١٥٤
١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٦	صلاح الدين ٧ ، ٢٩ ، ١٢ ، ١٣
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١	١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٧٤ وما بعدها، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٢
١٦٣ وما بعدها	وما بعدها، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٧
دقاق بن تَش ٦٠	١١٩ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٦
الذهبي ١٧	ضرغام ٧٧ ، ٧٨
راشد الدين سنان ٨٩	طافور ١٤٧
ابن رشد ١٢٧ ، ١٦١	طغتكين (طغتكين) ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧
رصد ١٦٠	طغرلبك ٢٥
رومانوس (الرابع) ٢٨	طلائع بن رزيك ٦٦
رضوان بن ولخشي ٦٠ ، ٦١	الظاهر لدين الله ١٦٠
ريتشارد (قلب الأسد) ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٥	العادل (سيف الدين) ٢٠ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤
ريوند (القمص) ٩٥	١٣٧ ، ١٣٨
زنكي ٦٧ ، ٦٩ وما بعدها ٧٢ ، ٧٥	
٧٩	

- العادل (الصغير) ٢٠، ١٣٨ وما بعدها، العاضد لدين الله ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٨٧
- فردريك الثاني ١١٨، ١٢٢ وما بعدها ١٢٧، ١٢٨
- ابن فضل الله العمري ١٢٩
- أبو العباس المرسى ١٢٠، ١٢٥
- فيليب أغسطس ١١١
- عبد الملك بن مروان ٩٦، ٩٨
- القائم بأمر الله ٢٥
- ابن العبري ١٧
- القاضي الفضل ٩، ١٢، ١٧
- عثمان النابلسي ١٥، ١٠٥
- قراقوش التقوى ١١٣
- ابن العديم ١٤
- العزیز بالله ٣٧
- عز الدين عبد السلام ١٣٧، ١٤١
- قراقوش التقوى ١١٣
- العزیز عثمان ٢٠، ١٣٣، ١٣٤
- ابن العميد ٩
- علي بن أريك (الملك المنصور) ١٥٨، ١٦١، ١٦٢
- ابن العين ١٨
- ابن العماد ١٨
- ابن العمداد ١٢، ١٠٩، ١٧
- ابن الفارض ١٢٥
- عمر بن الخطاب ٣٥، ٣٧، ٥١، ٩٨، ١٠٣
- الفتح البنداوي ١٦
- عموري (أمريك - مري) ٦٤، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ١١٣
- فان برشم ١٠
- قراقوش (بهاء الدين) ٨٥، ٨٦، ١٠٩، ١١٢، ١١٩
- فخر الدين شيخ الشيوخ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٢
- قراقوش بن أيبك ١٠٤
- فخر الدين بن لقمان ١٣٤
- قسطنطين الأكبر ٣٤
- ابن الفرات ١٨
- فرانچيسكو داسيسي ١٢٥
- فردريك بربروسا ١١١

المتعصم بالله ١٤٤	قطز ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٥ وما بعدها
المعز لدين الله ٥٥ ، ٥٩	فلج أرسلان ٤٢
المغيث عمر ١٦٢	القلقشندي ١٨ ، ٦٨ ، ٨٤ ، ١١٣
المقريزي ١٨ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ١٥٩	الكامل محمد ١٦ ، ٢٠ ، ٩٨ وما
مؤتمن الدولة ٨٦	بعدها ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
مودود (قطب الدين) ٦٦	١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٦٢
الناصر لدين الله (خليفة) ١٠٩	كربوقا ٤٤
الناصر يوسف ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢	كمشتكين ٩٠
نظام الملك ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٤٤	كونراد الثالث ٧٣
نور الدين ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ،	لؤلؤ التاسع ١٢٨ وما بعدها
٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠	لويس السابع ٧٣ وما بعدها
هارون ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨	ابن عماتي ١٥
ابن هيلانة ١٤	المأمون البطائحي ٥٩
ابن واصل ١٥ ، ٧٧ ، ٨١	مانويل ٤٦ ، ٧٩
الوليد بن عميد الملك ٩٩	متى الرهاوي ١٩
وليم الصوري (وليام) ١٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ،	مجير الدين ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٧
٣٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٣ ،	مروان بن محمد ٧٥
٧١ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٣	المخزومي ٧٥
ياغى سيان ٤٣	المستنصر بالله ٨٧
يوحنا الثاني ٤٦ ، ٧٢	المستعصم بالله ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،
أبو يعقوب المنصور ١١٣	١٦٦
	المشطوب (سيف الدين) ١٢٥

ب - الأماكن

إتل ١٤٨	حطين ٩٥ وما بعدها، ١٠٧
أذربيجان ٣١	حلب ٣٠، ٤٣، ٥٣، ٧٢، ٧٥،
الإسكندرية ٥٥، ٥٨، ٩١، ٩٣،	٩٠، ١٣٧، ١٦١
١٠٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١٦، ١١٧،	حمام ١٣٧
١٢٠، ١٢٧، ١٤٦	حمص ١٣٧، ١٥٧
آسية الصغرى ٢٨، ٣١، ٤٢، ١١٠	خوارزم ٣١، ١٣٨، ١٣٩
أشموم طنّاح ١٣١	دمشق ٢٩، ٤٣، ٥٣، ٥٩، ٦٧،
أقريطش ١٠٦	٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨٩، ١٢٣، ١٣٣،
اللّد ٦٤	١٣٧، ١٣٨، ١٥٧، ١٦١
أنطاكية ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧،	دمياط ٥٥، ٨٣، ١٠٤، ١١٦
٦٨، ٦٩، ٧٣	وما بعدها، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣،
إيران ١٥٩	١٣٠، ١٣١
إيلياء ٣٤	بليس ٧٩، ١٥٨، ١٦٢
بعلبك ٦٠، ٧٧	بلخ ٣١
بغداد ٢٣، ٢٩، ٣١، ٥٣، ٧٢،	البندقية ١٠٦، ١١٨، ١٢٢
١٣٩	بيت المقدس (القدس) ١٧، ١٩،
بلاد الجزيرة ١٨، ١٣٣	٣٠، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٣،
بيروت ٥٢، ٥٨	٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢،
بيزة ١١٥	٦١، ٦٤، ٩٧ وما بعدها - ١٠٠،
تكريت ٧٥	١١١، ١١٤، ١٢٢، ١٢٤
تل العجول ١٤٢	بئر سبع ٦٤
تونس ١٣٥	دوين (دبيل) ٧٦
جنوة ١٠٦، ١٢٥	الرملة ٩٥

القبيج (القَبَق) ١٤	الرُّها ٣١، ٤٧، ٦٧، ٦٨، ٦٩ وما بعدها
القسطنطينية ٣٧، ٤٠، ٤٢، ١٢٢	الشام ١٨، ٣٠، ٣١، ٤٧، ٥٢، ٥٧، ٧٢، ٨٠، ١٠٠، ١١٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٥٧، ١٦٢
القلزم ١٠٤، ١١٦	الصالحية ١٤١، ١٦٢
الكرج ١٤٩	صقلية ١٢٦
الكرك (كرك) ٩٣، ١٦١	صور ٥٢، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠
كليرمون فران ٤٠	صيدا ٥٨
كيفا (حصن) ١٣٢، ١٣٨	طرابلس ٥٨، ٧٧، ٩٣
ليون ١٢٥	العراق ٣٠، ٣١، ١٠٩، ١٦٢
مصر ١٨، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٥٧، ٧٧، ٨٠، ٨٩، ١٠٤، ١٠٧، ١١٥، ١٢٨ وما بعدها، ١٣٣، ١٤٦، ١٦٢	عسقلان ٦١ وما بعدها، ٧٧، ٨٢، ٩٧، ١١٠
المقس ٥٥، ١١٩	عكة (أو عكاء) ٥٠، ٥٥، ١١١ ما بعدها ١٣١، ١٣٣، ١٣٥
مكة ٥٥، ٩٦	الفسطاط ٨٠، ٨١، ٨٤، ١٢١، ١٢٥، ١٤١
ملاذكرد (أو منازكرد) ٢٨، ٤١	فراسكور ١٢٨، ١٣٢، ١٥٧
المنصورة ٢٠، ١٢٤، ١٢٧، ١٥٤	الفرما ١١٧
الموصل ٣١، ٤٤، ٦٦، ٧٠، ٧٥، ١٣٩، ١٦٠	فلسطين ١٧، ٣٤، ٥٧، ٦٣ وما بعدها ٩٥ وما بعدها
نابلس ٩٥	القاهرة (المحروسة) ١٨، ٥٥، ٥٩، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٦، ١١٩، ١٢١، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٤٦
نابلي ٩٧، ١٠٦	١٦١
نيقية (أو أنيقية) ٤٢	
يافا ٥٨، ٦٤	
اليمن ١٣٥	

١٩٩٧ / ٥٩٥٨	رقم الإيداع
977 - 10 - 1004 - 2	I. S. B. N الترقيم الدولي

LES AYYÚBIDES.

Dans L'Histoire de LEgypte Musulmane .

Histoire Politique.

A.M.MAGUED.

Professeur d,Histoire Islamique.

Expert National du Centre des Etudes Papyrologiques.

Université de Ain Shams - Le Caire.

2e`me Edition.

1417H. / 1997.

Le Caire.

Publié par la Librairie. Dár al - Fikr al - ' Arabí

94. Rue Abbás al - 'Akád. Madinat Nasr.Téléphone:

2752794 -2752984.

هذا الكتاب

تاريخ الدولة الأيوبية السياسي في مصر له عطر؛ بسبب دور أهلها وفاعليتهم في المنطقة العربية والإسلامية؛ نتيجة لوقوع العبء الأكبر على عاتقهم، في كفاحهم لموجات الفرنجة المكثفة والمتعددة في الشرق الإسلامي، فهم جاءوه ليس فقط بهدف الاستعمار فيه، وإنما بمشروع مبيت للاستيطان في فلسطين، التي اغتصبوها بالحديد والنار؛ لتحقيق رجحان أوزبى في الميزان السكاني فيها.

وفي ظلها برز أيضاً دور المصريين الوحدوى في جمع كلمة العرب والمسلمين، الذين كانوا جسمًا برءوس كثيرة، ولم يعودوا أمة واحدة، كما أراد الإسلام لهم. فقد كانت الوطنية المصرية وقتذاك مبركة من مقومات متعددة، أميزها روح الإسلام والانتماء العربى، مما مهد للعمل الموحد، والانتصار على الغزاة الصليبيين للشرق.

إضافة إلى أنه في ظلها زاد ارتباط المصريين بمدينة القدس، وهى قضية فلسطين، التى وصفها القرآن المجيد بأنها أرض مباركة، فأصبحت لها عندهم محبة وجدانية عميقة، وكأنها أغنية فى قلوبهم. فكان للعسكر المصرى بالذات دور مميز فى عودة الأرض العربية فى فلسطين، وانتزاع القدس من غزاتها؛ بعد أن عمّ المسلمون اليأس؛ من استردادها، فيقول عماد الدين الكاتب الأصفهاني، وكان شاهد عيان لهذا الفتح الكبير: ولتفخر مصر بعسكرها على باقى الأمصار.

فحكم الدولة الأيوبية فى مصر، ما كان يعود بمصر إلى الوراء؛ لتكون مجرد ولاية فى ظل وحدة الحكم الخلافى العباسى، حيث كان للسلطان الأيوبى المصرى، وهو كبير البيت الأيوبى، الدور الحاسم فى السياسة العربية الإسلامية. فالتاريخ لسان صدق يعبر عن دور مصر فى الحقبة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية، والتاريخ والقومية هما غصنان فى شجرة واحدة.

أ. د. عبد المنعم ماجد.